الله جل جلاله

وجوده ۞ عرفانه ۞ طريق الاتصال به

بقلم

سليم الحبابي

ماجستير علم الأديان المقارنة

Bibliotheca Alexandrina
0127952

اللّٰه

جلّ جلاله

وجوده ۞ عُرفانه ۞ طريق الإتصال به

بقلم

سليم الجابي

ماجستير في علم الأديان المقارن

الله

جلّ جلاله

وجوده ۞ عُرفانه ۞ طريق الإتصال به

الطبعة الأولى١٩٩٨ - عدد النسخ المطبوعة ٢٠٠٠
جميع الحقـوق محفوظة للمؤلف

عنوان المؤلف : دمشق ـ تلفون : ٧٧٧٤١١٣ ـ ص.ب : ٥٤٢٥
تصميم الغلاف والتنضيد والإخراج الفني :
النبلاء للخدمات الإعلانية ـ دمشق ـ تلفاكس : ٢٢٤٨٠٨٢
الطباعة : مطبعة نضـــر لفنون الطباعة الحديثة ـ دمشق ـ تلفون : ٢٣١٢٣٦٣

▪ صـــــدر للمؤلـــف:

- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء أول)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثاني)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثالث)
- نظرية جذور الأخلاق . (مترجم الى الفرنسية ويترجم إلى الإنكيزية)
- النظرية القرآنية حول خلق العالم .
- القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة.
- الرأي في المرأة والحرية والتراث حول حوار د.البوطي و أ.فياض.
- فن الإختزال في القرآن الكريم .
- هل مات المسيح على الصليب ؟ (مترجم الى البولندية)
- في ظلال دلالات سورة الكهف وبمنظور جديد معاصر.
- في ظلال دلالات سورة الاسراء وبمنظور جديد معاصر.
- الصوم في الإسلام.

▪ يصـــــدر قـــريبـــا :

- أصـــول تفـــسير القـــرآن العظيـــم
- خلق الإنســـان

كلمة إهداء وشكر

أهدي هذا "السفر" الغنيّ بما يُبرز روح الدّين الإسلامي الحنيف، إلى الله خالقي ومالكي وربّ الأرباب والذي له مافي السماوات ومافي الأرض ومابينهما، والذي إليه يرجع الأمر كلّه، والذي إليه المصير.

كما أشكر جميع إخواني وأحبّائي الذّين ساهموا في إنجازه تنضيداً، وطباعة، وبالتبرّع ماليّاً. وأدعوه جلّ شأنه أن يجزيهم أحسن الجّزاء.

المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

من المعلوم تاريخيّاً أنّه كان لكتاب الله نزولان وأنّ دعوة الإسلام قد مرّرها الله عزّ وجلّ بدورين ، قبل أن يُكمل مُحمّد بن عبد الله ﷺ تبليغها للنّاس . فقد قدّر تعالى أن يرى النّاسُ وجه الإسلام وهو في دوره المكّي تابعاً لحكومةِ قريشٍ الجاهليّة . كما قدّر تعالى أن يرى العالم هذا الوجه الإسلاميّ ، وفي أيدي أتباعه زمام الحكم ، وله السّيادة ، وهو في دوره في المدينة المنوّرة بعد الهجرة إليها إثر تقبُّل أهلُها الإسلام ديناً . ولايُعقل أن يُقدّر الله الحكيم الخبير كلّ ذلك دون حكمةٍ بالغةٍ وهو علاّم الغيوب .

ولطالما فكّرت في هذا الأمر مليّاً . وقد لفت نظري أنّ الدّور المكّي أثبت خلاله كلُّ مَنْ آمن ثباتاً على العقيدة ، وتقديماً لكلّ تضحيةٍ مطلوبةٍ منه ، فلم تحدث ظاهرةُ ارتدادٍ ولاظاهرةُ نفاق. على حين أنّه قد ظهرت في الدّور المدنيّ طبقةٌ من المنافقين وهي في لباس إسلامي .

كما لفت نظري أيضاً أنّ ماأنزله الله العزيز من سور في مكّة المكرّمة كانت مضامينها لاتتناول ماأنزله تعالى في المدينة المنوَّرة من مضامين . ولاشكّ أنّ مثل هذا التّصرف لايخلو أيضاً من حكمةٍ تُلفت نظر المُتدّبرين .

والنّتيجة التي استقيتها من ذلك كلّه ، والتي توصّلت إليها، هو أنّ الله عزّ وجلّ قد أراد إعطاء درسٍ عظيمٍ للّذين يرفعون شعاراً في زماننا من أنّ الإسلامّ دينٌ ودولةٌ ويسعون لاستعادة مجد الإسلام وهو أن يتذكّروا هذين الدّورين المكّي والمدنيّ ، وملامحهما التي ذكرناها ، ليُدركوا من خلال ذلك أنّ الدّين الإسلامي الحنيف يشكّل في حقيقة أمره كياناً له استقلاليّته . وأنّه مخلوق ومُصاغٌ من جسدٍ وروح . فالإسلام كدينٍ يُمثّله الدّور المكّي والإسلام كدولةٍ يمثّله الدّور المدنيّ . بمعنى أنّ التّعاليم التي كان الله تعالى قد أنزلها في مكّة هي بمثابة الرّوح لكيان الإسلام . وأنّ التّعاليم التي أُنزلت في المدينة هي بمثابة الجسد لكيان الإسلام . وإنّه لشيءٌ بديهيٌّ أنْ لاقيمة لجسدٍ بدون روح . فلو وعى هؤلاء الّذين يرفعون الشّعار المذكور ويسعون لاستعادة مجد الإسلام هذا الدّرس العظيم وتلك الحقيقة ، لاحتذوا حذو مافعله ربّهم عزّ وجلّ ، ولكانوا سعوا لإحياء تعاليم هذه الرّوح ووفق مشيئة ربّهم ، وليس وفق ماشاؤوه.

وبناءً عليه كان لزاماً عليّ أن أؤلف "سفراً" أي كتاباً كبيراً يُعين المسلمَ البعيد عن العّقل التّقليدي على تبيُّن ملامح تلك الرّوح الإسلاميّة التي نفخها محمد خاتم النبّيين ﷺ في أصحابه في مكّة المُكرّمة ، حتى إذا عاد بإمكانهم حمل مِشعل الإسلام وتقلُّد زمام الأمور إذا ما سعى الحُكم إليهم بتقديرٍ من ربِّ العالمين .

وأقدمت على هذه الخطوة المباركة ، من بعد أن تبيّن لي خُلوُّ مكتباتنا من كتابٍ مماثلٍ ينظر مؤلّفه بنفس المنظار الذي عاد طوع بناني . والحقُّ أنني وجدتُ تأييداً كبيراً من جانب ربّي على هذا الطّريق السّويّ.

وبهذه المناسبة أقول : إنني وقد سبق لي أن تصدّيت للقراءة المعاصرة التي طلع بها الدكتور محمد شحرور على قُرّائه قبل عدّة سنوات . وكان ينبغي أن يقترن ردّي في ذاك الوقت بمثل هذا الكتاب ومن باب أنّ تلك القراءة المعاصرة قد خلت من هذه الرّوح . لكنّ الّذي حدث أنّي كنت ملتزماً بنهجٍ واضح المعالم ، سرتُ عليه إلى آخر هذا الرّد . وانتهيت منه وأنا على مضضٍ وتحفّزٍ لكتابة هذا "السّفر" الغنيّ بالمعلومات ، والذي كان من المستحيل إنجازه في وقتٍ قصيرٍ ، فاكتفيت وقتئذٍ بإبراز معالم ماقام به المذكور من عمليّات تمزيقٍ وتقزيمٍ لكتاب الله ، وإسقاطٍ لأفكار الماركسيّة على آياته عن قصدٍ وعن غير قصد . الأمر الذي أغضب الله تعالى الذي كان أنزل هذا الذّكر ووعد بالمحافظة عليه .

ألا لاينبغي لأحدٍ أن يغرب عن ذهنه ،بعد الذي ذكرته ، أنّ الله عزّ وجلّ كان غرضه الأساسيّ من إنزال كتابه العزيز ، هو لتعريف عباده على نفسه ،ليتبيّنوا وجه ربّهم الذي لاإله إلا هو، فيتبيّنوا وجه جماله ووجه جلاله وحُسنه وإحسانه، لينجذب الطّالبون إليه فيطلبوا محبّته وقُربه ورضوانه ،ولتتوطّد اللُّحمة مابين العبد وربّه ويصبح من عابديه الحقيقيّين . وليبوء الفاسق بشرّ أعماله ويستحقّ العقاب.

لذلك أدعو إلهنا المحبوب أن يتقبّل ماأقوم به ، وليحقّق مابشّرني به على طريق هذا المسعى ، وإنّه ذو الفضل العظيم . وأنا في السّبعين من عُمري ،ولاحول ولاقوّة لي إلا بما أيّدني به من لدنه.

وليعلم القارئ العزيز أنّي التزمت خلال تأليفي هذا السِفر المبارك بمنهجٍ ماحُدْتُ عنه يتحدّد في الأمور التالية :

أولاً : قرّرت ألا أستقي معلومات هذا الكتاب إلا من ضمن النصّوص القرآنيّة نفسها ،وليس من القيل والقال.

ثانياً : وأن ألتزم بأصول تفسير القرآن الكريم ، ووفق معطيات مفرداته وتراكيبه وذلك بالرّجوع إلى مابلغنا من معاجم اللّغويّين العرب .

ثالثاً : وأن أقلّل من الاستشهاد والاستدلال بالأقوال من خارج هذا القرآن العظيم، إلا بمايفيد توثيق مصداقيّته .

رابعاً : وأن أتجنّب العقليّة التقليديّة مااستطعت ، ولأكتب بأسلوبٍ علميٍ معاصر.

وانطلاقاً من هذا المنهج المذكور ،فقد رُحت ، وأنا أبرز معالم روح التّعاليم الإسلاميّة الحنيفيّة ، فقسّمت المواضيع إلى ثلاثة بحوث. ففي المبحث الأوّل ألقيت الضّوء على مصداقيّة وجود ذات الله عزّوجل ومصداقيّة كتابه العزيز . وفي المبحث الثّاني تكلّمت عن أهمّ مايساعد المسلم ليتعرّف إلى ربّه عزّوجلّ ، وليساعده على الفوز بمحبّته وقُربه ورضوانه . وفي المبحث الثالث ألقيت الضّوء على تاريخ اتّصال الله تعالى بمخلوقاته. هذا الاتصال الذي حدّده القرآن العظيم ، والذي لن ينقطع في يومٍ من الأيّام .

علماً بأنّي قسّمت المبحث الأوّل إلى أربعة أبواب . وقد تضمّن **الباب الأوّل** فصولاً ثلاثةً اشتملت على ماللعقل والفكر من منزلةٍ في كتاب الله العزيز ، وعلى أنّ الوحي قديمٌ ، وقد ناقشت ماوضعوا بصدده من نظريات . كما وضّحت مافي التّوراة والإنجيل المُعاصرين من تحريفات ، الأمر الذي يُسقطهما من الميزان ، فلايُعدّان مرجعاً موثوقاً.

وقد تضمّن **الباب الثاني** أربعة فصول دارت مضامينها حول إثبات مصداقيّة القرآن الكريم كمرجعٍ موثوق للمحقّقين.

أمّا **الباب الثّالث** فقد تضمّن خمسة فصول دارت مضامينها جميعها حول وجود الله عزّوجلّ ، وعلى أدلّة وجوده ، وعلى المنهج القرآنيّ في هذا الخصوص . علماً بأنّي استقيت الأدلة من القرآن الكريم نفسه ، مُتجاوزاً في ذلك الأسلوب التقليديّ المعروف.

وأمّا **الباب الرّابع** فقد اشتمل على فصلين اثنين . فبحثت في الفصل الأوّل فيهما موضوع الشّرك الخفيّ خاصّة ، ومايمتّ إلى هذا الشرك الخفيّ من أمور .

وعلى هذه الشاكلة فقد قسّمت المبحث الثاني إلى أربعة أبواب . **فالباب الأول** منها اشتمل على فصلين . وقد تضمّن الفصل الثاني قوانين المحبة الإلهيّة ، ومقاماتها المختلفة.

وأما **الباب الثاني** من تلك الأبواب فقد اشتمل على ثلاثة فصول . وقد بحثت في الفصل الأوّل منها الآثار الرّوحيّة التي تتأتّى عن العبادات . وبحثت في الفصل الثاني منها كيفيّة تحصيل المحّبة الإلهيّة وكسبها. وبحثت في الفصل الثالث مراحل السير الرّوحاني التي يقطعها السالك على طريق التّعرّف إلى ربّه عزّوجلّ والوسائل العائدة إليها.

وأما **الباب الثالث** من تلك الأبواب فقد اشتمل على فصلين اثنين بحثتُ في الفصل الأوّل منهما موضوع الذكر الإلهي الذي يتطلبه السّير الرّوحاني : تعريفه، فلسفته ،وأشكاله وكيفيّته.

وبحثتُ في الفصل الثاني منهما البركات والثّمار الرّوحيّة التي تنجم عن الذّكر الإلهيّ بالدّعاء.

وأمّا **الباب الرابع** من تلك الأبواب فقد اشتمل على ثلاثة فصول . وقد عدّدت في الفصل الأوّل من هذه الفصول تلك الصّفات الذميمة التي تحول دون العبد ودون فوزه بمحبّة ربّه عزّوجلّ . كذلك عدّدت في الفصل الثاني من هذه الفصول تلك الصّفات الحسنة التي إذا ماتحلّى بها العبد السّالك درب عرفان ربّه ، تجذب محبّة ربّه عزّوجلّ إليه ، ويفوز بالتالي بمحبّة خالقه وقربه ورضوانه. وقد خصّصت الفصل الثالث من هذه الفصول للكلام عن حُسن الله وإحسانه وجماله وجلاله.

وأخيراً فقد خصّصت المبحث الثالث للكلام عن موضوع الإتّصال بالله تعالى. وقسّمته إلى ثلاثة أبواب :

فالباب **الأوّل** من هذه الأبواب اشتمل على ثلاثة فصول . وقد بحثت في الفصل الأوّل من هذه الفصول إمكانيّة الاتّصال بالله جلّ شأنه . وبحثت في الفصل الثاني من هذه الفصول أسماء الذّات الإلهيّة الحُسنى ،ومضامينها ، وتجلّياتها. وبحثت في الفصل الثالث من هذه الفصول علاقة البشر بهذا الخالق العظيم قبل آدم عليه السّلام وبعده.

وأما **الباب الثاني** من تلك الأبواب فقد اشتمل على فصلين اثنين . بحثت في الفصل الأول منهما ماواجه المفسّرين من إشكالات بمايتعلّق بموضوع آدم عليه السّلام ،وبخصوص جنّته التي أسكنه ربّه عزّوجلّ فيها ، وكونه أوّل رسول بعثه الله تعالى لنقل البشر نقلةً نوعيّة. وبحثت في الفصل الثاني منهما حقيقة قصّة آدم

عليه السلام الوارد ذكرها في القرآن الكريم ، والمقاصد الهامّة المرجوّة من ذكرها.

وأمّا **الباب الثالث** من تلك الأبواب فقد اشتمل على ستّة فصول . تناولت في التلخيص في الفصل الأوّل من هذه الفصول ، تلك الحركات المادّية التي أعقبت بعثة آدم عليه السّلام . واستعرضت في الفصل الثاني من هذه الفصول حقيقة النقلة النوعيّة التي أسفرت عن بعثة آدم عليه السّلام في حياة الجنس البشري.وألقيت الضوء في الفصل الثالث على كيفيّة بروز روح الشّرك با لله تعالى من بعد بعثة آدم عليه السّلام ، ومراحل تطوّر الشّرك إلى نوعين : شركٌ جليٌّ وشركٌ خفيٌّ . وتناولت في الفصل الرابع من هذه الفصول الكلام عمّا أحدثه ا لله عزّوجلّ في الأرضِ من انقلاباتٍ روحيّةٍ أعقبت بعثة آدم عليه السّلام لمعالجة أنواع الشّرك التي ذكرناها ،ولترسيخ جذور توحيد الذّات الإلهيّة في نفوس البشر ، وأعلامها ورموزها. وتكلّمت في الفصل الخامس من هذه الفصول عمّا يُحدثه ا لله تعالى في وقتنا الحاضر من انقلابٍ روحيّ. وأما الفصل السادس والأخير من هذه الفصول فقد خصّصته للكلام عن موضوع إمكانيّة اتّصال البشر على الدّوام بخالقهم، ومنهجيّته، وطرقه ، ودوامه ، وعلاقته بحقيقة الدّعاء بين يديّ ا لله عزّوجلّ .

وأتوجّه بعد هذا الذي شرحته لأقول لقارئ هذا "السّفر" الغنيّ بالمعلومات ، أن يُطالع مضامينه بإمعان وتدبُّرٍ لينظر ويتحسّس ماعلق في نفسه من أثرٍ محسوسٍ يتحسّسهُ في نفسه . فإن تراءت لأعينه من خلاله معالمُ الرّوح الدّينيّة التي اشتمل عليها الإسلام الحنيف، والتي سبق أن ذكرت وقلت أنّ ماعدا هذه الرّوح الدّينيّة من تعاليم سياسيّة واقتصاديّة وغيرها إنما أُنزلت من لَدُنِّ ا لله تعالى

لتشكّل جَسَدَ هذا الدّين الحنيف . فإن تراءى لهذا القارئ مصداقيّة ماذكرت ، فليُطالع بعده "القراءة المعاصرة" التي تباهى بها الدكتور محمد شحرور ، ولينظر كيف أنّه من خلالها قد أفرغ الإسلام من هذه الرّوح الدينيّة ، ليُسخّره لصالح ماأسقطه من آراء ماركسيّة على آيات هذا الكتاب المقدّس والمبارك والمتّصف بالنّماء والدّوام.

وبكلمة مختصرة أخيرة أقول : إنّ المسلم المثقّف ، إذا ابتعد عن فهم روح هذه التعاليم التي تناولتها في هذا الكتاب الكبير ، فكراً وسلوكاً ، يكون كالذي يُفرِغُ إسلامه من روحه التي كان قد نفخها محمد خاتم النبيين ﷺ في أصحابه في مكّة المكرّمة . عن تلك الرّوح التي منحتهم ديناميكيّة سادوا من جرّائها على كلّ من واجههم ، وفي كلّ مكان وزمان .

ولا يظّنن ظانٌّ أنّي أدفع بالقارئ ليصبح متصوّفاً ، وليبتعد عن مجال خدمة أمّته ووطنه. كلا ، بل أدفعه ليتسلّح بهذه الرّوح الدينيّة الإسلاميّة التي لولاها مااستطاع محمد عليه السلام توحيد أفئدة أمّته بالرّغم من تفرّقها وتشرذمها في زمانه ، والتي لولاها ماكان باستطاعة أصحابه رضوان ا لله عليهم من إنجاز ماأنجزوه من بعده.

فالإنسان المسلم إذا كان مهتمّاً أن ينقل أمّته إلى مصّاف الدّول المتقدّمة علميّاً وتقنيّاً ، وفي وقت لايكون فيه متقمّصاً هذه الرّوح الدينيّة الإسلاميّة كما وضّحتها فكراً وعملاً ، ويدأب على التفكير بأسلوب التّفكير الماديّ ، بعيداً عنها ، وهو يضعُ جُبّة الإسلام على كتفيه ، فإنّي لعلى يقين تامٍّ أنّه لن يُفلح فيما هو ساعٍ إليه ، وسيكون مصيره إلى الخيبة والفشل الذّريع . من منطلق أنّه لايصلُح آخر هذه الأمّة إلا بما صَلُحَ به أوّلها.

ولا ينبغي لأحدٍ أن ينسى أو يتناسى أنّ الله الذي كان ومايزال يسمع ويرى مايجري على هذه الأرض ، يسمع ويرى في أيامنا هذه مايكيده الظّالمون للقضاء على دينه الحنيف . وكان قد أنبأ قبل أربعة عشر قرناً عن ذلك كلّه في أكثر من سورةٍ من سور كتابه العزيز وكنت قد كشفت الغطاء عن تلك الأنباء الرّهيبة في مؤلفي "فن الاختزال في القرآن الكريم" وغيره من المؤلّفات ، من أنّه سيهلك هؤلاء الظّالمين . وهاأنّي وضّحت لهذا القارئ البعيد عن العقل التقليديّ في هذا "السفر" الذي هو بين يديه معالم الانقلاب الرّوحي الذي ابتدأه الله عزّ وجلّ في عصرنا الحاضر . وهو الانقلاب الرّوحي الذي ستمتدّ آثاره المستقبليّة ألوف السنوات إنشاء الله العزيز . وهل يتناسى هذا القارئ المسلم وعد ربّه الذي بشّر فيه وقال :﴿ **والعاقبةُ للمتّقين** ﴾ ؟ فعش رجباً ترى عجباً .

وأخيراً أحمد الله الذي له الأسماء الحُسنى والذي لا شريك له في مُلكه ، أنّه أعانني على كتابة هذه المقدّمة التي قدّمت بها لهذا السّفر الغنيّ بالمعلومات التي تُبرز روح تعاليم هذا الدّين الحنيف إلى الوجود ، وعلى الانتهاء من كتابتها ليلة ذكرى مولد محمد بن عبد الله نبيّ الإسلام وخاتم النبيّين . اللهم صلِّ على هذا الرّسول الصادق الأمين كلّما طلعت على هذا الكون من حولنا شمسٌ وكلما غربت ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

١٢ ربيع الأوّل ١٤١٩هـ الموافق ٦ تموز ١٩٩٨

سليم الجابي

المبحث الأول

مصداقية وجود الله عز وجلّ

الباب الأوّل

المدخل إلى البحث

تمهيد ضروريّ

في لُغتنا العربيّة، كلمة الحياة نقيض كلمة الممات. فالحيّ ضدّ الميّت. وكلمة الحَيَوان مصدرٌ، سُمّي به جنس الحيّ ممّا به حياةٌ وحسّ، كالإنسان والفريس وسواهما من المخلوقات الحيّة، ويُعرّف الكائن الحيوان بأنّه جسمٌ حيٌّ نامٍ حسّاس مُتحرّك بالإرادة أو الغريزة. ويُطلق الحيوان كذلك على ذي الرّوح غير النّاطق، ويُجمع على حيوانات. والنّسبة إليه حَيَوانّي. أما الحيوان بمعنى الحياة، فقد قال صاحب الكليّات : (الحيوان أبلغ من الحياة، لما في بناء وَزن فَعَلان من الحركة والاضطراب اللاّزم للحياة، والحَيَوان في الجنّة، والحياة في الدنيا.) أي أنّ الحَيَوان يعني الحياة التي لايعقُبها موت.

فالحياة إذاً، تعني قوّة مزاجيّة تقتضي الحسّ والحركة. والنسبة إلى الحياة حيويّ. ولذلك نلاحظ أنّ المُنادي إذا كان عربيّاً، ونادى ذا حياة به حسّ وحركة، أراد أن أسرع اليّ، يُناديه أن "هلمّ". وننادي في الأذان "حيّ على الصّلاة"، و "حيّ على الفلاح".

والملاحظ أنّ الإنسان، وإن شابه الفرس من حيث المزاجيّة والحسّ والحركة، فهو يفترق عنه بالفكر والنّطق والإرادة، فالإنسان يتميّز عن سائر مخلوقات الله بهذه المزايا.

دونكم السّبع الذي يسمّونه سيّد الغابة، وهو سيّد الغابة بلا مُنازع. فالملاحظ أنّه كان، ولايزال يتمتّع بهذا اللّقب فلم يؤثّر في منزلته هذه كرّ السّنين، أو تعاقُب الدّهور.

على حين أنّ الإنسان لم تكن له السّيادة على ماحوله من الكائنات في بدء تاريخه، فقد كان يعيش حياةً هي أقرب إلى حياة الحيوانات، بل دون منزلة السّبع، إلا أنّ هذا الإنسان ارتقى وتطوّر، وعاد في عصرنا يُهيمنُ على سيّد الغابة وسائر الكائنات. وعادت له السّيادة على الأنهار وسطوح البحار. وركب

أجواز الفضاء. وعاد يقلّب نظره فيما حوله من عالمنا الفسيح، متسائلاً عن كيفيّة نشأة هذا الكون ومن أنشأه. وعن الكون أهو موجود أزليّاً، أم أنّ له خالقاً أبدعه وأوجده، ومتسائلاً عن وجود الله تعالى نفسه : من هو، وأين هو، وكيف؟

ولابّد أن يلاحظ كلّ فردٍ منّا أنّ جسده قد جُهّز بحواس عديدة، أطلقوا عليها اصطلاح (الحواس الخمس) : السّمع والبصر واللّمس والشمّ والذوق، ولم يُدخلوا العقل ضمن مُصطلحهم المذكور. ذلك أنّهم لاحظوا أنّ العقل يعمل على مستوياتٍ ثلاثة من الزّمن، هي الماضي والحاضر والمستقبل إلى جانب أنه يستقبل معطيات هذه الحواس الخمس التي لاتعمل إلا على مستوىً وصعيدٍ واحدٍ هو الزّمن الحاضر.

والحقيقة، هو أنّ العقل جهازٌ متطوّرٌ في غاية التطور، وهو من ماهيةٍ غير مادية وخالد خلود النفس ولايعمل إلا بعوامل مساعدة ثلاثة تساعده في العمل على تلك الصُّعد، وهذا الأمر شبيه ببقيّة حواس الإنسان، فهي عاجزةٌ عن العمل إلا بمساعدة عوامل مساعدة. فالعين على عظمة تكوينها، فإنّها لاترى إلاّ بمساعدة الضوء. والأذن على عظمة تكوينها، لاتسمع إلاّ إذا توفّر لها الهواء. والأنف بالرغم من عظمة تكوينه، لايشمّ إلاّ بمساعدة الرّوائح، واللّسان على عظمة تكوينه، لايتذوّق إلاّ بمساعدة الأطعمة المختلفة، والجلد بالرّغم من عظمة تكوينه، لايشعر باللّمس إلاّ إذا صادف شيئاً ماديّاً، على هذه الشاكلة، فإنّ العقل على عظمة تكوينه، لايعمل على صعيد الزّمن الماضي إلا بمساعدة اللُّقى القديمة والآثار والمخطوطات والمستحاثات، ولايعمل على صعيد الزمن الحاضر إلاّ بمساعدة ملاحظة الإنسان لما يراه من الأشياء، وبإجراء التجارب على هذه الأشياء، والقيام بعمليّات استنتاج واستخلاص للمعلومات وبدون الاستعانة بهذه العوامل المساعدة يعسر على العقل اتخاذ قرارات صحيحة.

ولايعمل هذا العقل على صعيد الزمن المستقبل، فيما يتعلّق بأمور الغيب وماوراء هذا الكون، إلا بمساعدة وحي السّماء، أي بمساعدة وحي وكلام الخالق نفسه، الذي كلّم ويكلّم به عباده، وإنه لولا تلقّي الإنسان هذا الوحي الإلهي، ماكان للبشر أن يعلموا عن خالقهم شيئاً، ولاأن يعلموا عن عالم مابعد الموت أمراً يقينيّاً أبداً.

فالعقل والحال هذه، حاسّةٌ سادسةٌ، لكنّها أكثر تطوُّراً من بقيـة حـواس الإنسان. يؤكّـد هـذا دلالتـه اللغويـة أيضـاً. تقـول العـرب : عَقَـلَ الـدّواء بمعنـى أمسكه. وعقـل الدّابـة بمعنـى ربطهـا. وعقـل الغـلامُ بمعنـى أدرك وأصبـح عـاقلاً مُدركاً. وعقل فلانٌ بعد الصّبا : عرف الخطأ الذي كان عليه قبل صبـاه. وعقـل الأمر تدبّـره وفهمـه. وهـذه دلالاتٌ علـى شـاكلة مـاأعطى العـرب الحـواس مـن دلالات. وعليه فما العقل إلاّ حاسّة سادسة، لكنّها أكثر تطوراً مـن بقيّـة حـواس الجسم، وأعظم تقنيّـة وتستعين بمعطيـات الحـواس الخمـس. فهـو أشبه مـايكون بالحاسوب أي الكمبيوتر في عصرنا، وإن جـاء الفـارق مـابين العقـل والحاسـوب كبيراً جدّاً، يكاد لايُقاس.

المهّم من جميع ماذكرته هـو أنّ الإنسـان، وإنّ شـابه السَّبع وغـيره مـن الحيوانات، من حيث مزاجيّته وحسّه وحركته، إلاّ أنّ هـذا الإنسـان امتـاز عنهـا بهذه الحاسة السادسة المتطوّرة ذات التقّنية الخارقة، التي أطلق العرب عليهـا اسـم العقل[1] .

❀❀❀

[1] ـ سيأتي الكلام عن العقل مفصلاً وعلمياً فيما بعد

الفصل الأول

١ـ منزلة العقل والفكر

والخالق إذ جهّز جسم الإنسان بجهاز العقل، الذي تَميّز به هذا الإنسان على سائر مخلوقات الله عز وجلّ. لم يشرّفه به عبثاً، ودون حكمةٍ بالغة. وأقلّ مايُقال هو أنه تعالى ميّز الإنسان بهذا العقل لينقله نقلَة تطوّرٍ، لم تتأتّ لمخلوقٍ آخر سواه في هذا الكون. /

ذلك أن الإنسان يأكل ويشرب كما تأكل بقيّة المخلوقات وتشرب، والإنسان ينجب أطفالاً، وسائر المخلوقات تلد، والإنسان يسعى لتحصيل رزقه، كذلك تفعل بقيّة مخلوقات الله تعالى، فمن هذه الظواهر يتجلّى لنا أنّ الله لم يشرّف الإنسان بجهاز العقل بقصد أن يستعمله لتحصيل رزقه وضمان نسله، فهذه أمور غريزيّة تتحصّل للإنسان بالسّعي وتتحقّق للإنسان غريزياً، على شاكلة ماتتحقّق للحيوان غير العاقل، بدليل أن من فقد عقله وأصبح مجنوناً، نلاحظه يسعى إلى غذائه وتحقّق نسله أيضاً وبصورة غريزية. وهذا الأمر يدعونا إلى أن نجزم بالضرورة، بأنّ هبة العقل، قد قُصد بها أن تكون أداةً للإنسان يعي به ماحوله، ويتعرّف به خالقه.

والمُلاحظ أيضاً، هو أنّ البشر لم يختلفوا فيما بينهم في أمرٍ مادّي وعوه من الأشياء من حولهم، فما اختلف الناس يوماً في أنّ الماء يُطفىء العطش مثلاً، هذا وإنّ سرّ إجماعهم هذا، هو في تكوين الأشياء من حولهم، تكويناً مادّياً، مكّنتهم من هذا التوحّد في الإدراك والوعي المادي للأشياء من حولهم فتوحّدت إدراكات البشر جميعاً.

أما الأمر الذي لايزال النّاس فيه في غُمّةٍ واختلافٍ وتبايُنٍ في الآراء والمعتقدات، فهو موضوع وجود الذّات الالهية المقدسة والذي خصّصت كتابي هذا من أجله، من أجل التّعريف بهذه الذّات التي لاتُرى ولاتُنظر ولاتُسمع ولاتُشمُّ ولاتُلمس، التّعريف بهذا الخالق الذي بادر من جانبه لإعلامنا بوجوده،

منذ أن اكتمل وعي الإنسان لما حوله من أشياء، وأضحى مُؤهّلاً للتّعرف على خالقه ومعبوده، وقد حمل إلينا مُبادرته جلّ شأنه ودعوته هذه إيّانا للتّعرف عليه والتقرّب إليه، أنبياء الله ورسله، بما أوحي إليهم من شرائع وماأطلعهم عليه من حقائق وأسماء وصفات اتّصفت بها ذاته عز وجل.

أما كيف أوحى الله تعالى إلى الذين اصطفاهم من عباده، وكيف كلّمهم، هذا الأمر سيأتي بيانه في موضعه من هذا الكتاب.

وقصارى القول، هو أن العقل هو أداة الفكر الذي شرّف الله الإنسان به من أجل أن يساعد للتعرّف على خالقه فلا يبذل قصارى فكره، في تحصيل مأكله ومشربه وملبسه واشباع ميوله وشهواته، بل يبذل قُصارى فكره في التفكير في خفايا هذا الكون ومعرفة قوانينه، والتعرّف إلى خالقه والتقرُّب إليه، وإلاّ يكون كمن استعمل أداةً من الأدوات في غير ماصُنعت له، فهو كمن يتّخذ من الصّحن الذي صنع للطعام، أداةً يقاتل فيها ويثير الشّجار، على سبيل المثال.

من هنا ندرك أنّ من واجب كل إنسان تخصيص وقتٍ للتفكير في آيات الإبداع من حوله، وتدبّر مابلغه من وحي ربّه. وإلاّ فهو يُغمط هبة العقل والفكر حقّها ويظلم بذلك نفسه، لأن صلاتنا وصيامنا قد شُرّعا لمساعدتنا أصلاً لدفعنا على طريق التفكّر، وهما أداتان تساعداننا على التعرُّف إلى خالقنا والاتّصال به واكتساب رضاه.

ثم إنّ التّفكر فيما وراء المادة، يستلزم ضرب الأمثال ممّا هو كائن في عالمنا المادّي، ولهذا ورد في البيان الإلهي قوله تعالىٰ في سورة ابراهيم ، الآية (٢٥) : ﴿..**ويضرب الله الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون.**﴾. وورد قوله تعالى في سورة العنكبوت ، الآية (٤٢) ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس، ومايعقِلُها إلاّ العالمون**﴾.

علىحين أنّ التفكُّر في الذات الإلهية المقدسة نفسها، لايُجدي فيه ضرب الأمثال المادية، ومن أجل بيان هذه الحقيقة ورد قوله تعالى في سورة الشّورى ، الآية (١٠) : ﴿ **ليس كمثله شيء، وهو السّميع البصير.**﴾. أي أنّ حقيقة ذات الله الخالقة، خافية على الإنسان المخلوق، وإن كان لهذه الذّات من الصّفات مايشابه صفات الإنسان في الظاهر، كالسمع والبصر. فإنّ الفارق بين

صفات الذات الالهية وصفات الإنسان، ممّا لايُقاسُ بمعاييرنا الماديّة، ذلك أنّ ذات الله ليس كمثلها شيءٌ مادّي.

وعليه فإن بحث مؤلّفي هذا، وإن كان يتعلق بوجود الله تعالى، صاحب الذّات التي ليس كمثلها شيء. إلاّ أنني سأكون مضطّراً أحياناً، للاستعانة بضرب الأمثال الماديّة، لأبرهن من خلال ذلك على ما لله من صفاتٍ وعلمٍ وقُدرات.

ومادام التفكّر في حقائق المادة والكون ووجود الخالق، وهو أسمى مايفعله الإنسان العاقل الذي أنعم عليه ربّه بنعمة عقله وتفكيره، يستلزم ذلك منّا مراجعه دلالات كلمة (فكر) في معاجم اللغويين.

قال صاحب معجم محيط المحيط : فكر في الشيء، معناه أعمل النّظر فيه وتأمّله، والاسم الفكر، ويجمع على أفكار، وقال في الكلّيات : الفكر حركة النّفس نحو المبادىء، والرجوع عنها إلى المطالب والنظر هو ملاحظة المعلومات الواقعة في ضمن تلك الحركة. والفِكير، هو كثير التّفكير.

وبمعاني الفكر هذه نزل قول الله تعالى في سورة البقرة (٢١٩) : ﴿**كذلك يُبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾. وقال في سورة آل عمران (١٩١) : ﴿**الذّين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السّماوات والأرض..**﴾. وقال في سورة الأعراف (١٧٦) : ﴿ **فاقصُص القصَصَ لعلّهم يتفكّرون.**﴾. وقال في سورة الحشر (٢١) : ﴿**وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلّهم يتفكرون.**﴾. وهذه الآيات جميعها تشعرنا بما للفكر في نظر الخالق من شأن في طلب الحقيقة وابتغاء الهداية والإيمان، ومن ثمّ كان لابدّ لمُطالع كتابي هذا، من إعمال فكره ماوسعه ذلك، لأني، إنّما أخاطب فيما أكتبه الفكر قبل كلّ شيء، وأنّ ماأطرحه في هذا الكتاب، هو مجرّد أفكار تستدعي من قارئها، تقليب نظره فيها، والعمل على وعيها وإدراك أبعادها، وإنّما يستجيب الذين يستمعون، وموتى النّفوس يبعثهم الله عز وجلّ.

فموضوع كتابي هذا يدور إذن حول الذات الالهية المقدسة وماتتّصف به من صفات، والتي قالوا عنها وبمصطلحنا اللّغوي أنّها ذات غير محدودة بحدود، قالوا ذلك بمقاييس عقولنا، وفي حدود تصوّراتنا، ومهما قالوا، فلا يغيّر هذا من الحقيقة شيئاً فالحقيقة أنّ الذات الإلهية مستقلّةٌ عنا بوجودها على كل حال. وقد

أشكل هذا الأمر على كثيرٍ ممّن قالوا مقولتهم هذه، خصوصاً وأنّهم قرؤوا في كتاب الله القرآن الكريم قوله تعالى في سورة (ق) ١٦ : ﴿**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.**﴾. فذهب ذهن بعضهم إلى عقيدة وحدة الوجود، على حين أننا نجده تعالى يقول في سورة المعارج (٤) : ﴿**تعرُج الملائكة والروّح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾.

والعروج هو الارتقاء، فلو صحّت نظريّة وحدة الوجود، ماكان للملائكة من حاجة إلى العروج، ثم إنّ الله عز وجلّ قال في سورة الزّمر (٦٧) : ﴿**والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة..**﴾، ولايكون في قبضة القابض، إلاّ ماهو مستقلٌ عنه وخارج كيانه.

ولسائلٍ أن يسأل : من أين استقيت معلوماتك حول الذّات الإلهية المقدّسة؟ وأسارع لأجيب السائل وأقول : استقيت معلومات كتابي هذا من مصدرين اثنين : الأوّل ممّا تضمّنه وحي الله القرآني. والمصدر الثاني هو حصيلة عِرفاني للذّات الإلهية وتعاملي معها، أي من حصيلة ماتحقّق لي من صلاتٍ مع خالقي. هذا الخالق القريب على بُعده، والبعيد على قُربه، من خلال محبتي المتولده لذاته عز وجلّ، وانقيادي في طاعته، واستعانتي بقدراته، وتوكّلي عليه جل شأنه. وليس هذا السّبيل في التّعامل مع الذات الإلهية المقدسة بأمرٍ مُغايرٍ لما انطوى عليه القرآن الكريم من علوم وتعاليم. بل هو سبيلٌ من السُّبل الرّئيسيّة المسلوكة للرّاغبين.

وسيلاحظ قارىء هذا المؤلّف، أيّاً كان، أنّني، وإن استقيت أكثر معلوماته من القرآن الكريم نفسه، فإنيّ لم أنهج فيما استقيته من معلومات، نهج المقلّدين لمن سبق من العلماء. بل اتّخذت نهجاً مختلفاً، ذلك أنّي أعمل الفكر في فهم آي الذكر الحكيم، مُستعيناً بقواعد لُغة الضّاد، وبأصول تفسير القرآن، وبما استجدّ على السّاحة من علوم، وقد بذلت جهدي، وعلى نسق أسلوب القرآن الكريم نفسه، ألاّ آتي برأيٍ حتى أسنده إلى دليل وأبنيه على برهانٍ يستسيغه أهل عصرنا، خلافاً لفئةٍ ممّن سبق من المجتهدين.

والمعلوم أنّ عصرنا هذا، هو عصر العقلانيّة والعلم، بعيداً عن الخرافات والأساطير. فلا يتقبّل عاقلٌ معاصر مالا يستسيغه عقله، ولامايُخالف ماتدارسه من علوم، فلا يفاجىء مطالع كتابي هذا إن أكدّت له أنّي استقيت معلوماتي

من كتاب الله العزيز. وليتوجّه بكلّيته متفحّصاً مايحمله كل طرحٍ قرآنيٍ استشهد به، من أدلّةٍ وبراهين.

٢ ـ اسم الذّات الالهية الأعظم :

ومادامت أبحاث الكتاب ستدور حول الذات الإلهية المقدسّة، فلابدّ للمرء أن يتساءل في حديث نفسه : وهل لهذه الذّات الخالقة إسمٌ أعظم تمتاز به عن سائر الأسماء؟

والجواب هو أن وحي القرآن الكريم قد أتى لنا بالاسم الأعظم للذات الإلهية المقدّسة، وهو لفظ الجلالة (الله)، والذي يطالع معاجم اللغويّين العرب، يُدرك أنّ لفظ الجلالة (الله)، هو اسمٌ امتازت باستعماله لغة الضّاد. وهو على القول المُعوّل عليه، اسمٌ غير مشتق، ويحمل في جنباته جميع مأتى به القرآن الكريم من أسماء الله الحسنى، ودلالاتها على الذات الإلهية المقدّسة، موضوع هذا الكتاب.

❁❁❁

الفصل الثاني
١ ـ قِدَم الوحي والتّوحيد

وقد سبق لي أن قلت، إن الله الخالق هو الذي بادر إلى اصطفاء بعض عبيده، وكلّمهم، وأوحي إليهم بما أتوا للبشر من شرائع وتعاليم، وعلى هذا فقد وجب عليّ أن أعرض هذا الطّرح الفكري مؤيّداً بالأدلّة والبراهين المقبولة عقلاً ومنطقاً وعلماً.

وقد بات معلوماً، من خلال كتابات أصحاب نهج التفكير المادّي في القرنين الأخيرين، أنّهم زعموا أنّ فكرة وجود الله لم تنشأ عند الإنسان عن طريق مبادرة الوحي السّماوي، بل نشأت هذه الفكرة تدريجيّاً لديه.

فالبشر الأوائل في زعمهم، ركعوا أمام مأأخافهم منذ بدء تاريخهم، كما يركع الطّفل حين يواجه مايخيفه. وترسّخت على مرّ الأيام وكرّ السنين فكرة الخوف من بعض ظواهر الطبيعة، وانقلبت هذه إلى فكرة تأليه لهذه الظواهر الطبيعية، ومن ثم كانت هذه الفكرة ترتقي وتتطور في أذهان الناس كُلما ازدادوا علماً، فاستُبدلت هذه الفكرة بالاعتقاد بوجود ذوات إلهيّة سامية، اتّخذت لنفسها مظاهر تجلّت في أشياء كثيرة.

ثم أتى طورٌ، على زعمهم، تنزّهت فيه هذه الذّوات الإلهيّة المُختلفة فكرياً في نظر أصحابها، عن مظاهرها المادية، فانتهت البشرية إلى وحدانية الله في الذّات والصّفات، وهكذا تكّونت فكرة الله ووجوده عند الإنسان على هذه الصورة، ولم تتأتّ فكرة وجود الله عن وحي الخالق نفسه كما يزعم المؤمنون بوجوده.

هذه هي خلاصة نظريّة أصحاب الفكر المادّي، ويمكن أن نركن إلى القوا أنّها ارتكزت إلى عُنصرين أساسيين :

أوّلهما : أنّ الخوف شكّل الأساس الأول لنشوء تصوّرٍ عن وجود الله عز وجل.

ثانيهما : أنّ هذا التّصور قد تكامل بالتّدريج.

٢ ـ مناقشة النّظرية المادية منطقيّاً وتاريخيّاً

ونحن إذا افترضنا صحّة هذين العُنصرين، وجب علينا البحث عن أوّل شيء أخاف الإنسان، فدفعه إلى عبادته، ويبدو ببساطة أنّه الحيوان الذي كان يُعايش الإنسان في فجر تاريخه، فهو الوجود الذي أخاف الإنسان منطقياً، على اعتبار أنّ الإنسان لم يكن يملك من وسائل الدّفاع عن نفسه، مايحميه، مما اضطرّه إلى اتّخاذ مسكنٍ يلوذ به من هجمات الوحوش التي كانت مصدر خوفه قبل أن يتحضّر. فالوحوش الكاسرة كانت أخطر ماواجهه الإنسان في بدايات حياته البدائية الأولى.

وإننا إذا تفحّصنا ماكشفت عنه آثار تلك الفترة الزمنيّة من حياة البشرية، فلانجد أن الإنسان ألّه أو عبد الوحوش المفترسة إلا ماندر. بل كانت تغلب عليه عبادة الأفاعي، و لم تكن لعبادة الأسود والذئاب من مكانٍ يُذكر في حياته.

فلو صحّ كلام هؤلاء المفكّرين، أصحاب النهج المادّي، لكان الإنسان الأول قد عَبَد السّباع والذّئاب، فالغضنفر هو أكثر إخافةً للإنسان من الأفعى، على اعتبار أنّه يهاجم فريسته جهاراً ومواجهةً.. بينما تتخفّى الأفعى، متربّصةً لاغتيال فريستها، ثم إنّ للسّبع زئيراً مُرعباً، يوهن الأعصابَ، سماعه. وليس للأفعى إلاّ الفحيح. وجُثّة الغضنفر، مُخيفةٌ ويهلع الإنسان لرؤيتها، وتخور قواه.

ولاتملك الأفاعي أجساماً مخيفةً على شاكلته. وقيسوا على ذلك بقيّة الوحوش، نسبة إلى الأفاعي، كالذّئاب والدّببة وسواها، فهي باعث للإنسان على الجزع والخوف أكثر من الأفاعي.

هذا و لم نعثر في لُقى وآثار الإنسان القديم مايدلّ على أنّ ذاك الإنسان كان يعبد السّباع والذّئاب، بل لاحظنا غلبة عبادته للأفاعي، وهذه المعلومات تُسقط في نظري عنصر الخوف الذي أقام الماديّون عليه حُجّتهم حين زعموا نشوء فكرة وجود الله بالتّدريج.

وإذا عُدنا إلى التاريخ، وجدنا قدماء المصريّين أكثر الشعوب عبادة للحيوان، وكانت الكثرة منهم تعتقد أنّ روح إله الخير المسمَّى (أوزيس) توجد في عجل يسّمونه (ألبيس)، لذلك كان العجل من أشهر معبوداتهم. وقد عبدوا لذلك (الثور الأسود)، معتقدين أنّه صورة (أوزريس).

وإذا كان بعضهم قد عبدَ الأسد والذئب، فإنّ ثمّة من عَبَد الكلب والقطّ والماعز والكبش والضأن، وكانوا يحنّطون مايموت منها، فأين عامل الخوف في عبادة المصريّين لهذه الحيوانات؟

وعنصر الخوف هذا قد يؤخذ به مُنطلقاً لهذه النظّرية، لوكان الإنسان قد خُلق على الأرض خلقاً جديداً، وفوجيء بما حوله من المخلوقات، خلافاً لنظريّة النّشوء والإرتقاء، ذلك أنّ ظهوره فجأة بين الوحوش، سيخيفه ولاشك، إنّما كان على هؤلاء الماديّين، إذا صحّ هذا الأمر لديهم، أن يؤمنوا بوجود الله الذي خلق الإنسان خلقاً جديداً، لاعلاقة له بنظريتهم في النّشوء والارتقاء، والتي أتى بها (دارون) وزعم فيها إنّ الإنسان كان قرداً وتطوّر وأصبح إنساناً. فإذا صحّ زعم دارون هذا، فكيف يخاف الإنسان ماحوله من حيوانات، إذا سبق له أن عايش هذه الحيوانات الكاسرة في مرحلة حياته التي سبقتْ صيرورته إنساناً؟ فلو صحّ أن البشر ثمرة تطوّر عن قرد ماكانت السّباع والذئاب والأفاعي، ولا الشمس والقمر والكواكب بأشياء جديدة طارئة على حياته. ذلك على اعتبار أنّه سبق أن رآها وعايشها قبل ذلك، إن صحّ ماأتت به نظريّة دارون من أمور. بل لابد أن القرد كان قد قاتل الأفاعي وسواها أيضاً.

وكيف بإمكاننا التّسليم أنّ هذا الإنسان، قد سيطر عليه الخوف من هذه الحيوانات، بعد ترقيّه وبلوغه مرحلة إنسانيّته ونُضجه، فأصبح يخشى جميع ماحوله من الأشياء، فركع بين يديها يؤلّهها ويعبدُها؟ وبهذا التحليل الذي أوردناه، نصل إلى القول ببُطلان نظريّة أصحاب الرأي المادّي التي أوردناها.

ثم إنّ الدّليل الأبلغ والأقوى على خَطَلِ نظرية هؤلاء، وهو الأمر الذي يبطلُ معه العُنصر الثاني لنظرية الماديّين، من أنّ تصوّر وجود الله تعالى قد تكامل لدى البشر بالتدريج، هو هذا الدّليل الذي يتبلور في أذهاننا، من خلال استقرائنا لتاريخ مُختلف شعوب الكوكب الأرضي.

فالملاحظ هو أنّ اللُّقى والآثار القديمة، بل الغارقة في القدم، والمتعلّقة بمختلف شعوب القارّات الخمس. يلاحظ الباحث والدّارس لها، أنّها لاتؤيّد تدرُّج عقيدة وحدانية الله عز وجلّ. بل إنه ثبت من خلال ماحتوته تلك اللُّقى والآثار القديمة أنه كان بين سُكّان مختلف القارات من كانوا يؤمنون بوجود إله واحد خالق لهذا الكون. وأنّه محيط بهذا الكون أيضاً، وذلك منذ فجر تاريخ هذا الإنسان. بل وكان ثمّة شعوبٌ عريقةٌ في القدم قالت بالوحي السّماوي، واعتقدت أنّ الإله السّماوي كان يوحي لأفراد اصطفاهم من بينهم.

نتناول قبائل قارّة أفريقيا العريقة في القِدم، فمن قبائلهم الشّهيرة، قبيلة (الزّولو) Zulu مثلاً، وهي تعدُّ من القبائل المتوحّشة. وقد كشفت آثار منطقتهم، أنّ أقدم أجدادهم كانوا يعتقدون بوجود إلهٍ غير مرئي، وهو أبٌ لجميع البشر، وكانوا يسمُّونه (أنكو لنكو Inkulunkils)، وهو الذي أوحى إليهم بكونه تعالى موجوداً، وغير مرئي أيضاً.

ونتناول قبائل قارة أستراليا. هذه القبائل التي لبثت مُنعزلة عن العالم، إلى أن اكتُشفت قارّتهم منذ قرون ليست بعيدة.

هذه القبائل الأستراليةً قد تبيّن بعد اكتشاف قارّتهم، أنها كانت على درجة كبيرة من التّوحش والاقتتال فيما بين أبنائها، حتى كادت تنقرض قبائلها بسبب هذا الإقتتال.

فمن هذه القبائل، قبيلة (أرنتا Arinta). وقد تبيّن من آثارها القديمة أنّ الأقدمين كانوا يعتقدون بوجود إلهٍ يقطن السّماء، وأنّه إلـهٌ واحد لاشريك له، وكانوا يسمّونه (ألتجيرا : Altjira) وأنّه كان يتّصف بالحلم، حتى كاد لايُعاقب أحداً من عباده. من كثرة حلمه وقد كانوا لذلك لايرون ضرورة لعبادته، وكانوا يعتقدون أنّه الإله الذي أوحى إلى أقدم أجدادهم.

وهذه قبائل القارة الآسيوية قديماً. فقد تبيّن من آثارها أنّ القُدامى قد اعتقدوا بوجود إله لاتحدّه حدود، وهو عالم الغيب، قادر على كلّ شيء. وكانوا يسمّونه (درونا Drona) فإذا كان ثمّة شخصٌ ماشٍ أو مُختفٍ أو مضطجع أو قائم، أو كان ثمة شخصان يتسارّان، علم الإله مايُسرّه كلٌّ منهما، لأنّه يكون ثالثهم. وهو مالك الأرض والسّماء بفضائها الواسع، وأنّه إذا حاول إنسانٌ تجاوز هذا الكون، فلا يستطيع تجاوز مملكة الإله (درونا) وحدودها.

وفي تاريخ البابليّين، في جوارنا، أنّ أحد ملوكهم كان يدعو دُعاءً يكشف عن اعتقاده بوحدانيّة الله عز وجلّ. وهذه الفاظ دعائه : (أيّها الملك الأبديّ، مالك جميع المخلوقات، أنت خالقي. أدعوك برحمتك أيّها الملك ياسيّدي يأرحم الرّاحمين. برحمةٍ ومرَحمةٍ جميع مملكتك الواسعة، أكتبْ محبّة عبادتك في فؤادي، وقيّض لي كلّ ماتراه خيراً، لأنّك أنت الذي صنعت حياتي على هذه الشاكلة.).

أعظم به من دُعاء، وماأشبه هذا الدّعاء بدعاء المؤمنين الموحّدين، فكأنه يريد أن يقول : قد أطلب شيئاً فيكون شرّاً عليّ، لذلك هب لي أنت ماتراه خيراً لي.

وهذه قارة أمريكة. فمن المعلوم أنّ شعب المكسيك فيها من أقدم شعوبها. بل تبيّن من خلال الدراسات التاريخية أنّ شعب المكسيك، يُعتبر من أقدم شعوب الكرة الأرضية، وعقائد المكسيكيين متوارثة جيلاً بعد جيل. وقد ثبت أنّهم كانوا، منذ القدم، يعتقدون بوجود الله ووحدانيّته، فقد عبدوا إلهاً أطلقوا عليه اسم : (آوونا وِلونا Awona Wilona) وأنّه خالق كلّ شيءٍ في هذا الوجود، ومحيط بهذا الكون وأبو جميع الآباء، وكان هذا الإله، وحيداً، فتخيّل، وتولّد من تخيّله قوة، أخذت تنمو رويداً رويداً، وإذا بها تكُوّن هذا الفضاء الفسيح، ولايلبث أن يتجلّى هذا الإله بنوره على هذا الفضاء، ثم لايلبث هذا الفضاء أن يتقلّص، فتتكّون منه الشمس والقمر والنجوم.

والآن لنمعن النّظر في هذه الأفكار التي كانت لأقدم المكسيكيّين فيما يتعلّق بوجود الله ووحدانيته، أفلا تشبه أحدث تصّورات إنسان عصرنا حول ذات الله عز وجل : مسيحياً كان أم مسلماً، مع فارقٍ لايُذكر. وهي أقرب ماتكون إلى أفكار أصحاب نظريّة الانفجار العظيم؟

إنّ هذه الشهادات جميعها، تُجمع على قِدَمِ عقيدة توحيد الله، وقدم عقيدة الوحي الإلهي. وهي تنقض بذلك نظرية أصحاب الرأي المادي، القائلة بتولّد عقيدة وجود الله وتوحيده تدريجيّاً، بدءً من سيطرة الخوف على البشر البدائيّين ممّا حولهم من المخلوقات المخيفة، واندفاعهم للركّوع أمامها، ثم عبادتهم إيّاها.

هذه الشهادات وسواها، ممّا عُرف من اللُّقى والآثار القديمة، تثبت ظهور رجال مُلهمين، تلّقوا وحي السّماء، في كل أمّة من الأمم الغابرة، وفي مختلف القارّات الأرضية، وفقاً لقول القرآن الصريح : ﴿**وإن من أمّةٍ إلا خلا فيها نذير.**﴾. علماً بأنّ اتصال شعوب هذه القارات بعضهم ببعض، كان شبه معدوم. إذ لم يثبت وجود اتّصال مابين شعوب إفريقية واستزالية، ولابين الآسيويين والأستراليين.

من هذا ندرك أن الذّين يروّجون النظرية المادية المذكورة، يقيمون أفكار نظريّتهم على أساسٍ من الظّنون والتخيّلات غير العلمية، بعيدين عن مُعطيات اللُّقى والآثار القديمة المكتشفة والمخطوطات، ولذا فإنّ نظريّة هؤلاء لاترقى إلى مرتبة القبول علميّاً.

٣ ـ مناقشة النظرية عقليّاً

ولنناقش نظرية هؤلاء من وجهة عقليّة، فالقاعدة المسلّم بها هي أن الناس يُقبلون على كلّ شيء جديد، ويؤثرونه عادة على الأشياء القديمة، وذلك بعد أن تتولّد عندهم قناعة به، وهذه القاعدة تقتضي أن يسود التوحيد في عصرنا، ويكون مذهب الشّرك وتعدّد الآلهة قد انقرض منذ زمانٍ بعيد، وذلك إن صحّ أنّ عقيدة التوحيد نشأت لدى الإنسان بالتّدريج.

على حين أنّ اللُّقى والآثار التي أتينا على ذكرها، إلى جانب واقع ملموس لكثيرٍ من شعوب الأرض الحاليّين، يدلّ على عكس ذلك تماماً. فقد دلّ على أن عقيدة توحيد الله تعالى هي قديمة جدُّ عريقة في تاريخ أمم الأرض.

وهناك البّحاثة (ميكَر Megr) الذي حقّق في تاريخ الصّين، فقد تبيّن له أنّ شعب الصيّن كان موحِداً في فجر تاريخه، على حين لاحظ من جهة أخرى أنّ الصيّن في عصرنا الحاضر، تفوق شعب الهند شركاً وتعداداً للآلهة، وقد سعى "ماوتسي تونغ" أن يمحو فكرة وجود إلهٍ خالق من أذهان الصينيّين أيضاً.

فقد روى لي شابٌ مسلم صينيٌ أنّ ماوتسي تونغ ألقى آخر خُطبه في شمال الصّين، فيما يُسمّى بالمنطقة الصّناعية، فأمر قبل القاء خطابه أن يوضع تمثال

في السّاحة العامّة يمثّل الله عز وجلّ، ثم أوعز أن يطلق الجنود نيرانهم على التمثال أمام أعيُن الجماهير الصّينية المحتشدة هناك. وقال إثر اطلاق النّيران على التمثال المذكور : ها نحن أولاء قتلنا عقيدة وجود إله تجاه أعيُنكم، وقتلنا الإله إلى أبد الآبدين، لكنه لم يمض على خطاب ماوتسي تونغ شهر ونصف، حتى حدث زلزال عظيمَ دمّر المنطقة الصّناعية تلك، تدميراً شاملاً ورهيباً. وأصيب ماوتسي تونغ أثر هذا الزلزال بفالج لم يُمهله طويلاً. فقضى نحبه خلال أشهر. وقد علم العالم بما جرى بعد موته.

فواقع الأمر أنّ الشّعوب التي تعبُدُ في عصرنا آلهة عديدة، هي من أعرق شعوب الأرض قِدَماً ووجوداً. وقد لاحظ الباحثون أنّ هذه الشّعوب كانت موحّدةً في تاريخها المُوغل في القدم. بل كانت تعتقد بوجود الإله الواحد وراء هذا الكون، والذي كان يصطفي من عباده من يُوحي إليهم بتعاليم من عنده.

فلو سلّمنا بنظريّة التدّرج الذي أدّى إلى تبلُور عقيدة التّوحيد، لكان يَنْبَغي أن يسود التوحيد شعوب عصرنا. فهذا مايقتضيه منطق عقولنا، ولكان نَدَرَ اليوم وجود فكرة تعدّد الآلهة لدى الناس قاطبة.

هذا وقد قُمت بزيارة الهند في الخمسينيات : ولاحظت وجود معبدٍ بوذي وسط مدينة (كاليكت) وسط الهند. وقد رتّب كهنته ثلاثمائة تمثال فوق سطحه القرميدي المتدّرج. وقد أجابني كاهن المعبد، ردّاً على سؤالي عن أسماء هذه التماثيل. فأجاب : إنّها آلهتُنا التي نعبُدها.

فما لهؤلاء الهنود المعاصرين يعبدون مئات الآلهة، وقد كان أسلافُهم القُدامى من الموحّدين، كما ثبت ذلك من آثار أجدادهم؟ وهكذا فإنّ الواقع المُعاصر يثبت بُطلان نظرية المادّيين التي تزعم نشوء عقيدة التوحيد بالتدريج.

ونناقش هذه النظرية من زاوية جديدة، وهي واقع أمّتنا الإسلامية المعاصرة، التي قامت تعاليم دينها الإسلاميّ على التوحيد الخالص من شوائب الشّرك، بلا خلاف.

أفلا يلاحظ أحدُنا كيف يبتعد كثير من المسلمين المعاصرين عن الوحدانيّة، من الوجهة العمليّة، حيث يقدّس بعضهم القبور والأشجار والجنّ وبعض النّجوم؟ هذه الظواهر تبدو عمليّاً، لايقرُّها الإسلام ولاتتّفق مع توحيد ذات الله عز وجل.

وإنّ الذي يُلاحظ هذه الظواهر في مُجتمعات المسلمين، لايذهب ظنّه البتّة إلى قدم الشرك عند المسلمين، أو إلى أنّ القرآن الكريم قد حضَّهم على ذلك. لأنّ الدّارس لتعاليم القرآن يجزم، وهو على يقين، أنّ تعاليم الإسلام، قد قامت على التوحيد الخالص من جميع شوائب الشّرك.

فمن واقع المسلمين المعاصرين، وواقع أممٍ كثيرةٍ أخرى عريقةٍ في القدم، نستنتج أنّ عقيدة التّوحيد كانت موجودة دوماً أولاً، ومن ثم تتحول إلى الشّرك، في مُختلف أحقاب التّاريخ، و لم يحدث عكس ذلك، كما يزعم أصحاب نظريّة التدرُّج في ظهور عقيدة التوحيد، هذه النظريّة التي لاتستند إلى وقائع صحيحة، ولاتقوم على أساسٍ ثابتٍ علمي.

الفصل الثالث
١ ـ الطّرح القرآني

وهذه الحقيقة التي أثبتنا صحّتها بمختلف الأساليب والأدلة لم يغفل القرآن عن تناولها بعمق ، وقد طرحها طرحاً واقعياً، فقد صرّح القرآن الكريم بذلك قبل أربعة عشر قرناً، من خلال ماأورده في سورة فاطر (٢٤/٢٥/٢٦) قوله تعالى : ﴿ **إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً، وإنْ من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير. وإنْ يكذّبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبيّنات وبالزّبر وبالكتاب المنير، ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير؟**﴾.

كما نبهنا القرآن الكريم في ذاك الزّمان الغابر إلى أنّه لم يأتِ الله على ذكر أسماء جميع رسله وأنبيائه الذين اصطفاهم لأداء رسالاته. مُنوّهاً إلى أن أسماء المذكورين منهم، والوارد ذكرهم في كتاب الله، ماهم إلا أسماء من بعثهم الله تعالى في منطقة الشرق الأوسط، والمتعلقين بسلسلة الهدايات السماويّة التي ابتدأت ببعثة آدم عليه السلام وانتهت ببعثة محمد خاتم النبيّين. فهذه الحقيقة نبّهنا إليها ربّنا في سورة غافر (المؤمن) ٧٨، من خلال قوله تعالى : ﴿**ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك، منهم مَنْ قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصُص عليك، وماكان لرسول أن يأتي بآيةٍ إلاّ بإذن الله، فإذا جاء أمر الله قُضي بالحق، وخسر هنالك المُبطلون.**﴾.

وإضافة إلى ذلك، فنحن إذ نتلو أوّل آيةٍ من آيات سورة الفاتحة، هذه السورة التي لاتصحّ صلاة دون قراءتها في جميع ركعات الصّلاة، وهذه الآية هي : ﴿**الحمد لله ربّ العالمين.**﴾ نتلو هذه الآية الكريمة، وقد وضعنا نصب أعيننا أنّها تشير إلى الحقيقة التي وضحناها آنفاً، والتي يثبت منها بُطلان نظرية الماديين المذكورة، حول تدرُّج ظهور عقيدة التوحيد إلى الوجود. ذلك أنّ كلمة (ربّ) في اللغة العربية تعني الذي يُنشىء الشيء حالاً بعد حال حتى يصل به مرتبة الكمال والتمام (اقرب الموارد). وعليه فمعنى (رب العالمين)، الله الخالق الذي انشأ هذا الكون وأبدعه، وهو يطوّره بوحيه وبالشرائع التي يحلمها أنبياؤه ورسله إلى عباده، وهو يطوّر هذا الكون، طوراً بعد طورٍ، ليكمل إنشاءه، ويُتّم إبداعه.

أي أنه لولا إنزال الله القرآن الكريم هدى ورحمة للناس، لظلّت البشريّة تتيه في دبابير الظلمات التي عرفتها أوربة في القرون الوسطى، كما هو معلوم من صفحات التاريخ.

فهذا هو الطرح القرآني الذي طرحه قبل أربعة عشر قرناً، ولابدّ أن لاحظ القارىء ممّا عُثر عليه من آثار مختلف شعوب الأرض تأييده لهذا الطّرح القرآنيّ. ومن المؤسف حقّاً أن يتجاهل أصحاب النهج المادّي هذه الحقائق. في وقت يزعمون فيه أنّ العقل سبيلهم إلى الحُكم، وأنّ العلم دليلهم إلى المعرفة.

أجل، لم يخالف القرآن الكريم مااعتقده الأقدمون، من أنّ ذات الله تعالى، هي خارج إطار عالمنا المادي، وهي بعيدة عنه أيضاً أمداً بعيداً، هذا الأمر أشارت إليه سورة المعارج، من خلال قوله تعالى : ﴿.. **من الله ذي المعارج. تعرُجُ الملائكة والرّوح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.**﴾ ٣/٤.

كما نبّه القرآن الكريم أذهاننا أيضاً، إلى أنّ الذات الإلهية المقدسّة يستحيل أن يطولها تصوُّرنا ويتبيّنَها فكرنا، فالإنسان لم يزوّده خالقه ببصيرةٍ تساعده على الإحاطة بذات الله الخالق عز وجلّ. فإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى في سورة الشورى (١٠) : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.**﴾. وقوله تعالى في سورة الأنعام ١٠٣: ﴿**لاتدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.**﴾ وقد قصد بالبصر هنا (البصيرة)، وبالإدراك معرفة أو بلوغ أقصى الشيء. وهذا هو سرّ سكوت القرآن الكريم عن الكلام على الذات الإلهية، وسرُّ اكتفائه بالكلام على أسماء الله وصفاته. وسرّ سكوت القرآن عن بيان مالذات الله من صفاتٍ خارج إطار أسمائه الُحسنى، وهي المتعلّقة بعوالم غير عالمنا.

ولاأقصد أننا لانملك أيّ بصيرة على هذا الصّعيد، فنحن نملك من القدرات مايمكن فكرنا وخيالنا بُلوغ إدراك أنّ لذات الله من العظمة مايفوق مدى هذا الفكرو هذا الخيال، وليس أكثر من ذلك، وهذه القُدرات يوفّرها لنا ويطوّرها، التقدّم العلمي ورقيّه على مدى الزّمان. على اعتبار أن الصّنعة تدلّ على صانعها. وأنّ البراعة والحذق في الصنعة، يَدلاّن على عظمة الإبداع عند الصّانع أيضاً. وعليه كان لابدّ لنا من مُتابعة ماكشفت عنه علوم عصرنا من

معارف وأسرار، بل وأن نجدّ لتطوير هذه العلوم والمُكتشفات، وسأحاول تلخيص ماجدّ من معارف وعلوم ذلك مااستطعت إلى ذلك سبيلاً.

في الزّمن الماضي، وفي القرن التاسع عشر بالذّات، دار جدلٌ عقيمٌ حول كوننا: أهو أزليٌ أم هو مخلوق. ونظر (نيوتن) العالم الفيزيائي الشهير، بل أبو الفيزياء، إلى عالمنا على أنه يحوي حقائق ثلاثاً، وهذه الحقائق هي المادّة والمكان والزّمان.

فقد وصف (نيوتن) المكان بقوله : (إنّ المكان مُطلقٌ بطبيعة ذاته، ودون علاقة له بأيّ شيء خارج عنه، وهو يظلّ مُتماثلاً وغير متحرّك.) ووصف الزمان بقوله : (إنّ الزمان المطلق والصحيح والرياضي بذاته وبحكم طبيعته، يتدفّق باطّراد، من غير أن تكون له علاقة بأيّ شيء خارج عنه.).

وأهَلَّ القرن العشرون بعلومه واكتشافاته، فأطاح بفيزياء نيوتن المذكورة، إذ أنّ نظريّة النّسبيّة الخاصة التي أتى بها آينشتاين قادت علم الفيزياء إلى التخلّي إلى الأبد عمّا زعمه نيوتن وسمّاه حقيقتي الزمان والمكان. بعدما أثبت أن علاقات الزمان والمكان وقوانين الحركة، لايمكن تعريفها، إلاّ بوصفها الموقف الشّخصي للذّي يُراقب الأشياء المادّية، ولظروفها الماديّة ذاتها.

وعندما تمّ اكتشاف التّركيب الذريّ، انتهى ذلك بعلماء القرن العشرين إلى التخلّي نهائياً عن فيزياء نيوتن ونظرته الكونية، وبدأ بذلك عصر الذّرة، وتغيّرت نظرة العلم إلى عقل الإنسان نفسه.

فبينما كان علماء القرن التّاسع عشر ينظرون إلى العقل على أنّه يعمل بصورة آليّةٍ ضمن إطار المادة، تبيّن لعلماء عصر الذّرة أن العقل لايعمل عملاً آلياً. وأنّه لايوجد له في الدّماغ مقرٌّ ولامركز. وحتى إرادة الإنسان لامقّر لها فيه أيضاً ولامركز. وثبت أنّ العقل والإرادة مستقلاّن عن الدّماغ، وأنّهما خارجه، أي خارج إطار المادة، وليس داخلها، وهذه الاكتشافات قد أثبتت صحّة الطّرح القرآني.

وعلى صعيد علم الفلك تبيّن أنّ سرعة الضوء تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ كم في الثانية، أي أنّ الموجة الضوئية التي تصدر عن الشمس تصلنا بعد ثماني دقائق من انبعاثها عن الشمس، لبعد هذه عن كوكبنا الأرضي مايُقارب (١٥٠) مليون

كم، وعلى أساس ذلك بدأ علماء الفلك يقيسون مابين أجرام السّماء وشموسه ومجرّاته بسرعة الضوء.

وقد اكتشفوا وجود شموس تبعُد عن شمسنا المعروفة أضعاف أضعاف بُعدها عنّا. ولايزال هؤلاء العلماء يكتشفون شموساً ومجرّاتٍ، على قدر ماتكشف عنه مراصدهم الفلكيّة وأجهزة رصدهم.

وقد كاد يُسلّم بعض علماء عصرنا أنّ عالمنا المادي لانهاية له ولاحدود. لولا أن طلع عليهم العالم الفيزيائي (جورج غاموف : georg gamoa) بنظرية الانفجار العظيم التي وضّح فيها، عن طريق الفيزياء النوويّة، أنّ الجُسيمات دون الذّرية قد انتجت في مراحلها الأولى ذات الكون الحديث النشأة، وهكذا أفادت هذه النظريّة أنّ مادة كوننا مخلوقة أيضاً، وأنّ الذي خلقها، إنّما هو عقلٌ مُطلق، وذلك منذ (١٢ ــ ٢٠) مليار عام. لكنّه استحال على صاحب هذه النظريّة تقدير مابقي من عُمُر هذا الكون.

فالعلم قادنا إذن إلى أنّ لعالمنا بداية ونهاية وأنّه مخلوق، وبطل بذلك زعم علماء القرن التاسع عشر من أنّ المادّة أزليّة الوجود. وقد برهن هذا التقدّم العلمي أيضاً على صحّة الطرح القرآني. هذا بالرغم من أنّ الوسائل العلمية لم تمكُنّ العلماء المعاصرين بعد من اكتشاف حدود هذا الكون المادّي الذي نعيش في ظلاله.

والعلم قد أثبت لنا أيضاً، أنّ هذا الكون على سعته ورحابته، خاضعٌ في جميع أرجائه إلى قوانين واحدة، تُجلّي وحدانية الإله الصانع المُبدع.

وهكذا ساعد الرّقي العلمي المعاصر في فهم مضمون الآية الكريمة التي استهّل الله بها سورة المُلك، وهي قوله تعالى: ﴿ **تبارك الذي بيده المُلك وهو على كلّ شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلُوكم أيّكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغَفور، الذي خلق سبع سماواتٍ طباقاً، ماترى في خلق الرحمن من تفاوُت، فارجِع البصر هل ترى من فطور، ثمّ ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.**﴾. ففي قوله تعالى ﴿ **ارجع البصر هل ترى من فطُور؟**﴾ تنبيه للأذهان العلميّة المعاصرة خاصّة إلى أنّ هذا الكون لابدّ إلاّ أن يكون مُخطّطاً له ومتكاملاً، لاثُغرة فيه ولاصدع.

ثم إن قوله تعالى : ﴿**ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.**﴾ ينبّه أذهان هؤلاء العلماء إلى وجود نظامٍ كاملٍ وشاملٍ في هذا الكون، مُنزّه عن كل نقص، يضمُّ سلسلةً طويلة من القوانين المُنسجمة التي لاتتضادّ ولاتتصادم.

وينفي الله تعالى أن يكون قد حدث كلّ ذلك اتفّاقاً ومصادفة. فلا مناص من يشكّل هذا الكون الكامل الشامل الحجّةُ القاطعة التي يثبت منها وجود الله الأحد الخالق لهذا الكون بإرادةٍ وتصميم، وأنّه تعالى لم يخلق هذا الكوان اتّفاقاً وعبثاً، وأنّ ظاهرة الموت والحياة التي تتجلّى في أرجاء هذا الكون، كان القصد منها ابتلاء الإنسان في هذه العاجلة وامتحانه. وهذا ماأشار إليه قوله تعالى في نفس الآية : ﴿**.. الذي خلق الموت والحياة ليبلُوكم أيّكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور.**﴾ أي أنّ الذي أوجد ظاهرة الموت والحياة، أوجدها من مُنطلق كونه الإله الخالق (العزيز) أي الملك الغالب على أمره، والقادر الذي لايُغالب.

وكونه (الغفور) أي ستّار عيوب وضعف عباده وفقاً لقانون الاحتياج العام. فالخالق أخذ على نفسه ستر ضعف مخلوقه، وحثّه بالترغيب والتّحذير على العودة إلى رشده والرّجوع إلى خالقه.

ومن المؤسف أنّ علماء القرن التاسع عشر أصحاب نهج التفكير المادّي، وقد طغت المادّة ومُغرياتها على أفكارهم، وأخذت بمجامع قلوبهم، لم يفكّروا بنهجٍ روحانيّ، بل انطلقوا يشككّون في القصد الأساس لظاهرة وجود الإنسان وموته وحياته، فيزعمون أنّها ظاهرة طبيعيّةٌ من ظواهر المادة، وليست هي جزءاً من نظامٍ كونّي شامل وكامل صادرٍ عن ذاتٍ خالقة ومُبدعةٍ لقانون الموت والحياة ولتحقيق هدفٍ منشود.

وقد تسرّعوا، فزعموا أنّ وجود العقارب والأفاعي والدّواب المؤذية والحشرات والديدان والزلازل وماينجم عنها من كوارث، جميع هذه الأشياء لاتخضع لقانون. وأنّ وجودها عبثٌ، لاصلة له بهدفٍ مقصود لهذا النظام الكوني.

ومايُطمئننا هو أنّ تقدّم العلوم قد كشفت عن زيف هذا الزعمّ والتشكيك. وقد ثبت وجود توازن طبيعيّ، وأنّ ماخلق الله من أشياء إنّما هو

كنوزٌ مُخبّأةٌ لمصلحة البشرية نفسها، ويُستفاد منها حين تدعو الضرورة إلى هـذه الأشياء، وعلى قدر تنامي المعرفة وتقدّم العلوم. ومن هذه الأشياء ماأودعه الخـالق جوّ الأرض، ومنها ماأودعه باطن الأرض وأعماق البحار. وحتّى الزلازل لها مـن الفوائد مالا يخطر ببال. ولايزال العلماء يرصدون ماينجم عـن هـذه الـزلازل مـن آثار. ولست بصدد التوسّع في هذا المجال.

أعود إلى القول إنّ الرقّي العلمّي الذي شـهده القـرن العشـرون كشـف عـن عظمـة صُنـع الصّـانع، مـن خـلال الكشـف عـن وحـدة القوانـين النّاظمـة لمخلوقات هذا الكون الفسيح الذي لم ينته العلم من كشف مداه وحـدوده بعـد. بالرغم من أنّه كشف عن أنّه مخلوق منذ مايقارب (١٢ـ٢٠) مليـار عـام، كمـا كشف عن أنّ نهاية هذا الكون آتيةٌ لاريب فيها، وإن لم تتوفّـر الوسـائل العلميـة لتحديد زمان هذه النهاية.

هذا وإنّ (نظرية جذور الأخـلاق) الـتي تضّمنهـا كتـابي، كشـفت عـن وحدة تركيب أشياء هذا العالم أيضاً، وأنّ كلّ شيء قد تكّون من خليطة خاصـة من الذرّات المادية وقواها، ولايُستثنى الإنسان من وحدة هـذا الـتركيب الـذرّي، فقد خلقه الصّانع أيضاً من نُطفةٍ أمشاج.

والمهمّ في الأمر، هو أنني قصدت ممّا ذكرته حتى اللّحظة عن هذا الكون وعظمته وتركيبه وقوانينه الناظمة الشاملة، قصدت نقل تصوّرات وتخيـلات المـرء إلى المدى الذي يُعينه على تصوُّر عظمة ذات الله الخالق قدر إمكاني، هذه الذّات التي هي خارج إطار هذا الكون، الذي لم يكتشف العلم مداه حتى الآن وإنّ ممّـا لاشكّ فيه هو أنّ هذه المعلومات تساعد علـى تبيُّـن ماتحملـه هـذه الـذات الإلهيـة المقدسة من أسماء وصفاتٍ كانت وراء خلق هذا الكون العجيب.

٢ ـ مثالٌ من الواقع

وسبق لي أن ذكرت أن لابُدّ لي من ضرب الأمثال الماديّة الموضّحـة لهـذا الموضوع الذي يدور كتابي حوله، ليكون قريبـاً مـن الأفهـام، وهـا أنّـي أضـرب للقارىء أوّل مثلٍ مادّيٍ من واقعنا المعاصر، على أن يظلّ في حُسبان المرء أنّه مجرّد مثال مع الفارق الكبير جدّاً بينه وبين ماأردت التّنبيه إليه. ذلك أنّ الله عز وجـلّ ليس كمثله شيء.

وقد بات معلوماً لدى كلّ متابع لما يجري في العالم أنّ المؤسسّات العلمية في الدّول الكبرى المتقدّمة علمياً، تنافست في مضمار كشف الفضاء بمختلف الوسائل، ومنها هذه المركبات الفضائية التي امتطاها رُوّاد الفضاء.

أو لم نلاحظ أنّ هذه المركبات الفضائية، إنما تقوم برصد كلّ حركة من حركاتها، قيادةٌ أرضيّة على شاشات التلّفاز أمام أعينهم. وقد زوّدوا هذه المركبات بأجهزةٍ تبثّ جميع مايجري داخلها وخارجها وماتكشفه من مشاهد للكواكب المارّة بها؟ دون أن يكون بين القيادة والمركبات أيُّ اتّصال بأسلاك ظاهرة، وفي وقت فإنّ القيادة التي صنعت هذه المركبات قائمة خارج هذه المركبات ترصدها وهي بعيدة عنها ملايين الكيلو مترات؟

هذا المثال الحيّ من واقعنا المعاصر، إن أخذه المرء بعين اعتباره أمكنه أن يَعِ استقلالية الذات الإلهية الخالقة عن ذات هذا الكون المخلوق ومايحتوي عليه من مخلوقات، إنّما ينبغي أن يظلّ راسخاً في ذهن المرء أنّ هذا مجرّد مثال لفتُ الأنظار إليه، وهو مثال مع الفارق الشّاسع بينه وبين الذات الإلهية المشبّهة به. وقد كان القصد من هذا المثال نقل مخيّلة الإنسان ليتصّور عظمة الذات الإلهية التي أبدعت هذا الكون الرّحب الذي لاتُعرف له حدود.

وقد أحاط علماء الأرض بما لدى هذه القيادة الأرضية من خبرات وامكانيات، بل تتسابق الدّول الكبرى شرقاً وغرباً لصُنع المركبات الفضائية الشّبيهة بها، بل تتنافس في قيادتها، وفي إصلاح مايطرأ عليها من أعطال، وهي بعيدة عنهم هذا البُعد الشّاسع. فإذا شئنا أن نتعرّف على الله الخالق الذي يسيّر هذا الكون، فلا نملك من مُعطياتٍ لمعرفة مدى علم هذه الذات الإلهية وقدراتها إلاّ مايفيدنا به هذا القرآن الكريم الذي هو بين أيدينا، والذي له مصداقيّته.

ثم إنّه إن تاقت أنفسُنا إلى التّعامل مع هذه الذات الإلهية المقدسة، تعامل محبّةٍ وعرفان واتّصال، فلا نملك من مُعطيات علوم ذلك ومبادئه سوى مايخبرنا به هذا القرآن الكريم أيضاً.

كما أنّ الإنسان إذا راح يبحث عن فطرته وتكوينه الرّوحي لإدراك معالمها الحقيقيّة، وطريقة وأسلوب صيانتهما وتطويرهما، ويبحث عمّا يختصّ بعقله وأدواة صيانته، صيانةً تليق بمكانته ومنزلته في مقابل بقية حواس جسم

الإنسان وأجهزته، فلا يملك هذا الإنسان الباحث إلاّ مرجعاً وحيداً مُطمئناً مُعتمداً موثوقاً، وهو هذا القرآن العظيم أيضاً.

ذلك أنّ مالدى البشر من مراجع وكُتبٍ سماويّة، قد فرغ الباحثون من الجزم أنّ الأيدي قد عبثت بها، فحرّفتها. فلم يبق كتاب منها تطمئن نفس الباحث إلى مصداقيّته، على أنّه تنزيلٌ من خالق هذا الكون ومدبّره، فقد ثبتت عدم مصداقيّة هذه الكتب بأدلّة ومُحاكمات، من ضمنها ومن خارجها أيضاً. فلم يُعد أصحاب وأتباع هذه الكتب يملكون أيّ دليلٍ علمي أو عقليّ أو منطقيّ يدعم مصداقية أيّ كتاب من كتبهم الدينيّة.

ولمّا كان على الباحث ألاّ يُلقي كلامه جُزافا، فقد وجب عليّ تقديم أهم ماأملكه من أدلّة تؤيّد كلامي وتثبته، ولو بإيجاز.

٣ ـ التّوراة والإنجيل المعاصران محرّفان

إن الكتاب المقدس، الذي هو بين أيدي المسيحيين واليهود الذي له أصلٌ سماويّ، وهم مايسمونه بالعهدين القديم والجديد. وهو الكتاب الذي يتضمّن في العهد القديم منه تعاليم الديانة اليهودية، وفي العهد الجديد منه تعاليم المسيح وحواريّه. يزعم هؤلاء أنّه كتابٌ سماويّ نصّاً ومعنى، ومنهم من يزعم أنّه معنىً فقط، أي أنّ رجالاً متدينين قد كتبوه.

وأنا أسأل : ومأأدراني أنّ تعاليم هذا الكتاب هي حقيقة كما يزعمون؟ يكفيني أن أعلم أنّها لم تُكتب في الأزمنة التي نُسبت إليها هذه الكتب وتعاليمها، لتكون في نظري محلّ ريب وشك. فما نسبه العهد القديم إلى موسى، أقرّ كاتبه ضمن أسفاره، أنّه كتب ماكتبه بعد زمن موسى بقرون عديدة، وليُمعن القارىء نظرة في هذا الدليل المأخوذ من سفر التثنية، وهو السّفر الخامس من العهد القديم، ينسب ألفاظ هذا السّفر إلى موسى نفسه أيضاً. فقد ورد في الاصحاح ٣٤/٧ منه:

(كان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات، و لم تكلّ عينُه ولاذهبت نضارته. فبكى بنو اسرائيل موسى في عَربات مؤاب ثلاثين يوماً. فكمِلَت أيّام موسى.). فهل يُعقل أن يكون هذا النّص قد كتبه موسى، وكُتب في زمنه؟ لايُعقل إلاّ أن يكون قد كُتب بعد مماته.

والسّؤال الأهم هو : هل أن هذا النّص كتبه كاتب بعد موت موسى مباشرة ؟

الجواب عن ذلك يأتي من ضمن الإصحاح نفسه، ذلك أنّ الجملة التي سبقت ألفاظ هذا النّص تقول : (فمات هناك موسى عبد الرّب في أرض مؤاب حَسَبَ قول الرّب. ودفنه في الجِوَاء، في أرض مؤاب مُقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسانٌ قبره إلى هذا اليوم).

يتساءل الباحث : وأيّ يومٍ وأيّ تاريخ هو المقصود من (ولم يعرف إنسانٌ قبره إلى هذا اليوم)؟ فكم كان قد مضى على موت موسى، وعلى اندثار قبره من قرون، قبل أن يُدوّنَ كاتبُ النّص هذه السُّطور؟ أوليس هذا دليل ضمنيٌّ من العهد القديم نفسه، استقرأناه، وهو شهد أنّ التّوراة هذه لم تُكتب في عهد موسى ولابعد مماته مباشرة، بل كتبه كاتبه بعد مضيّ قرون عديدة من الزمان على موت موسى، وعن غيبٍ وسماعٍ، ودون أيّ سندٍ يمكن أن يشير إليه كاتبه؟

نتناول العهد الجديد، الأناجيل وتعاليمها، المنسوبة إلى المسيح بن مريم، ولنلاحظ مااستهلّ به كاتب إنجيل لوقا، إنجيله المُسمّى باسمِهِ، فقد كتب يقول : (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّةٍ في الأمور المُتيقّنة عندنا، كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعاينين وخُدّاماً للكلمة. رأيت أنا أيضاً، إذ قد تتبعت كُلّ شيء من الأوّل بتدقيق أنْ أكتب على التّوالي إليك أيُّها العزيز ثاوفيلُس، لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمْتَ به. كان في أيام هيرودس مَلِكِ اليهودية، كاهنٌ إسمه..) ١/١ لوقا.وهذا النّص الذي استُهلّ به إنجيل لوقا يشهد ضمناً بالأمور التالية:

الأوّل ـ قوله (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة..) يشهد أنّ الإنجيل وتعاليم المسيح بن مريم لم تُدوّن في حياة المسيح بن مريم نفسه، بل نقشت تعاليمه في ذاكرة أتباعه، فكانوا يروونها الواحد منهم عن الآخر.

ثم إنّ المستوى الوثائقيّ لهذه الروايات، يرتبط بمستوى شخصية الرّواة أنفسهم وبمستوى ذاكرتهم، وبمبلغ علمهم وإخلاصهم للمسيح نفسه، والذي يتبيّن من الأناجيل نفسها أن حواريّ المسيح الإثني عشر كانوا يتراوحون مابين حمّال إلى صياد أسماك، وقد خانه يهوذا الإسخريوطي، وأنكره بطرس فلم يكن بين حواريي المسيح أيُّ مثقّف يُوثق بعلمه وذاكرته وكمال إخلاصه.

الثاني ـ وهذا القول يعني أيضاً أنّ الأناجيل، ومن بينها إنجيل لوقا، هي مجرّد حكايات، استندت إلى رُواةٍ لم تُدرج أسماؤهم في الأناجيل ولاذكر شيء عن سيرتهم الدّينية، ولاأثبت رواة الأناجيل تواتر أخبار تعاليم حكاياتهم بأسلوب علمي. وبألفاظٍ أخرى نقول إنّ هذه الحكايات لم تستوف الشروط الموضوعية التي توثّق ماحَكَوه لنا فيها، ولايكفي الباحث قول كاتب إنجيل لوقا : (إذ قد تتبّعت كُلّ شيء من الأوّل بتدقيق..) فهذا مجرد ادّعاء لم يسنده أيّ دليل.

الثالث : ثم إنّه لايتضّح للباحث من خلال هذه الحكاية، كم من السّنوات مضت على دعوة المسيح التي يُنسب إليه ماورد فيها، ويكفي الباحث قول كاتب انجيل لوقا : (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة في الأمور المُتيقّنة عندنا كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء مُعاينين وخُدّاما للكلمة..) تكفي هذه الجُمَلُ ليستدلّ منها أنّ الباحث لوقا لم يكن من جُملة حواريي المسيح، وأنّه جلس يكتب (قصّة)، وأنّه وُجد بعد المسيح بزمان لايُعرف مداه، لقوله: (كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة..) فما هي أسماء الذين كانوا منذ البدء مُعايني وخُداماً للكلمة، وكيف أمكنهم حفظ جميع ماروووه، وكم بين هؤلاء وهؤلاء من وُسطاء؟

والخلاصة، هي أنّ الباحث المدّقق يكتفي بهذين الدليلين اللذين أوردتهما ومن ضمن مُعطيات العهدين القديم والجديد، والبرهنة على أنّ التوراة والأناجيل التي هي بين أيدينا، لاتصلح كمرجعٍ يقينيّ يطمئنّ إليه المرء للتعرّف من خلالها على خالق هذا الكون ومُبدعه، ومعرفة مدى علمه وقُدُراته، بل ولاتصلح أيضاً كمرجع مُطمئِنٍ للإحاطة بتعاليم موسى والمسيح عليهما السّلام.

وبإمكان المرء أيضاً أن يقيس على هذا الكتاب المقدّس المذكور، مالدى بقيّة أتباع الديانات من كُتبٍ يُقدّسونها، لاترقى إلى مستوى مرجع حقيقي موثوق به ومُعتمد، قد أنزله خالق هذا الكون لتعريفنا أسماءه وصفاته.

فلا يعرف الباحثون في عصرنا مرجعاً مُعتمداً سوى القرآن الكريم، والذي خُوطب فيه النّاس جميعهم في أوّل سورة من سوره وهي سورة البقرة (٢٢)، قوله تعالى : ﴿ **ياأيّها النّاس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتقّون.**﴾. فكلمة الناس في هذه الآية وردت مُعرّفة بالألف واللاّم لتشمل جميع البشر. وورد الخطاب نفسه في سورة الأعراف (١٥٨) على لسان

رسول الله (ص) ومأموراً : ﴿ **قل يا أيّها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك السماوات والأرض، لا إله إلاّ هو يُحيي ويُميت، فآمنوا بالله ورسوله النّبي الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتّبعوه لعلّكم تهتدون.** ﴾. فصيغة إليكم جميعاً، جيء بها للدّلالة على أنّ القرآن الكريم نزل يحمل تعاليم ذات صبغة عالمية، وليست هي بتعاليم قوميّة، وإلى قوم مخصوصين. هذه الصّيغة التي لم يتّسم بها أيّ كتابٍ سماويّ أُنزل قبل القرآن الكريم.

فالذي يتفحّص مضامين العهدين القديم والجديد لايُلاحظ وُرود آيّة صيغة فيهما تُفيد أن موسى وعيسى، بعثهما ربُّهما إلى الناس جميعاً، فكلّ ماسيجده المرء هو أنهما مبعوثان إلى قومٍ بذاته، وهم قوم بني اسرائيل.

فقد ورد في العهد القديم صراحة، في سفر الخروج ٣/٧: (فقال الرّب إنّي قد رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر، وسمعت صُراخهم من أجل مُسخّريهم. إنّي علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريّين، وأُصعدهم من تلك الأرض إلى أرضٍ جديدة وواسعة.). وهذه العبارات إنّ دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على أنّ تعاليم التوراة لاتتصّف بالصّفة العالمية، بل بالصّفة القومية.

وإذا تصفّح المرء العهد الجديد، تقع عينه في انجيل متّى ٥/١٠ على قول المسيح صراحة : (هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أممٍ لاتمضوا، وإلى مدينةٍ للسّامريّين لاتدخلوا. بل اذهبوا بالحريّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة..). فما معنى أن يوصي المسيح تلاميذه بذلك إن كان الله قد بعثه رسولاً عالميّاً؟

وفي انجيل متى نفسه ١٢/١٥، يذكر لنا أنّ امرأةً كنعانيةً عرضت للمسيح وهو وتلاميذه في طريقهم : (صرخت إليه قائلةً ارحمني ياسيّد يا ابن داوود. ابنتي مجنونة جدّاً، فلم يُجبها بكلمة. فتقدّم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنّها تصيح وراءنا. فأجاب وقال : لم أُرسَلْ إلاّ إلى خراف بيت اسرائيل الضالّة.). فهذا النّص واردٌ حرفياً في العهد الجديد، ثم إنّ (إلاّ) هي أداة حصر في اللّغة العربية، ودلالتها أنّها تحصر رسالة المسيح ببني اسرائيل وحدهم. ولايستفاد من ألفاظ هذا النّص أي معنى آخر، سوى الذي فهمناه.

وزبدة الكلام، هو أنّ البشرية قاطبة، لاتملك في عصرنا مرجعاً سليماً من التّحريف، ومُعتمداً، يُعرّفهم خالقهم الذي يُسيّر هذا الكون من حولهم إلا القرآن الكريم. ومن واجب الباحث، قبل الرّجوع إلى هذا الكتاب السماويّ أن يتدبّر مصداقية هذا الكتاب السماوي بأسلوبٍ علميّ ووفق الأصول التي تضمنّها هذا الكتاب السّماويّ نفسه.

❁❁❁

الباب الثاني

مصداقيّة القرآن الكريم ومرجعيّته

الفصل الأول
١ ـ القرآن ومزاياه كمرجع موثوق

أقول، الذي يشدُّنا ويدفعنا إلى تدبّر مصداقية القرآن بأسلوبٍ علميّ، إعجاز هذا الكتاب وتعدّد مزاياه. هذه المزايا التي يتسّم بها هذا القرآن العظيم. فللقرآن الكريم مزيّتان لاخلاف عليهما وهما :

١ ـ **المزية القرآنية الأولى** : أن القرآن نصّ بين دفّتيه على كونه مُنزلاً من الله تعالى بلسان عربيّ مُبين. فقد ورد في سورة يوسف (٢) قوله تعالى : ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون.**﴾. وقوله (عربيّاً) أي بلغة العرب. والإعراب في الأصل هو الإبانة والإفصاح. والتّعريب هو التبيين.

فقوله تعالى في الآية ﴿ **قرآنا عربيّاً** ﴾، يفيد أنّ القرآن يُعرب عن المعاني والدّلالات إلى حدّ الكمال وغاية الإفصاح، ومُبرّأ من كلّ نقص، هذا ماأفاده صاحب معجم أقرب الموارد. وجاء في المفردات : العربيّ المُفصح، والإعراب البيان. ثم إنّ إضافة كلمة (قرآنا) إلى (عربياً)، أضاف معنى جديداً، وهو أنّ هذا الكتاب السّماويّ أنزله مُنزلّه ليقرأه الناس ويتلوه دوماً في جميع أحوالهم. وهذه مزيّة لم يتسّم بها كتاب سماويّ من قبل. فالتوراة والأناجيل وإن كانت تطبع بكثرة، فإنّ أتباعها ومريديها لايكادون يقرؤونها بالكثرة التي يُقرأ بها هذا الكتاب السماوي العظيم، للنبوءة التي حملتها إلينا هذه الآية الكريمة المذكورة، بالرّغم من أن القرآن كان آخر الكتب المُنزلة، ولايزال أتباعه أقلّ من سواهم عدداً.

فإذا اتّجهنا إلى رأي الأوربيّين، وهم بأكثريتهم لايدينون بالدّين الذي أتى به هذا المرجع القرآن. فالملاحظ أنّ هؤلاء يغبطون العرب على عظمة ماتتمتّع به لغتهم العربيّة من مزايا.

فالعالم الأوربي (لين بول)، وهو العالم الذي قام بترجمة معجم (تاج العروس) إلى لغته الأوربية، نلاحظه وقد أعلن في مقدّمته وبكلّ حسرة أنه لم يجد بين لُغات العالم قاطبة، لُغةً هي على مستوى اللّغة العربيّة، من حيث سعة مصادرها ومفرداتها ودلالاتها، إضافة إلى بيانها لحكمة دلالاتها وأصولها.

ثم إنّ أدباء اللّسان العربيّ أنفسهم وَعَوْا هذه الحقيقة، وأدركوها. فهذا اللّغوي الشهير (ابن جنّي) تحدّث عن خصائص العربيّة.

وممّا قاله في كتابه الشهير (الخصائص) أنّه روى عن أستاذه أبي علي الفارسيّ أنّ أحرف الكلمة الثلاثية، مهما دارت وتبدّلت مواضعها، فهي تظلّ تدور حول معنى أساسيّ واحد وأصل واحد. وقد ضرب على ذلك مثلاً، الأحرف (الكاف واللاّم والميم) مهما تغيّرت مواضعها وترتيبها، فهي تفيد معنى القوّة في جميع الأحوال، كذلك لفظ (عربٌ) وهو المؤلّف من أحرف (العين والراء والباء) مهما تغيّر ترتيب هذه الأحرف، فهي تدلّ على الإمتلاء وغلبة الشّيء.

ومادامت الآية التي ذكرناها، قد ذيّلها مُنزلُها بقوله ﴿ **لعلكم تعقلون**﴾، فقد وضّح لنا بذلك الحكمة من إنزال هذا القرآن بلسان عربّي مبين. أي أنّ حكمة ذلك تتمثّل في سِعة دلالات ألفاظ هذه اللّغة وكثرةً تراكيبها، إذ يساعد هذا عقلاء الناس على الإحاطة بخفايا أحكام الله ودقائق تعاليمه.

وعليه، فلا أكون مُخطئاً إذا نظرت إلى لغة القرآن الكريم على أنّها مزيّة بارزةٌ من مزاياه. ويؤيّد هذا الإتجاه الآية (١٩٥) من سورة الشعراء : ﴿**وإنّه لتنزيل ربّ العالمين. نزل به الرّوح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين**﴾. وصيغة (رب العالمين) قُصد بها إعلامنا أنّ تعاليم القرآن الكريم موجّهة إلى النّاس كافة، هذا الأمر الذي اقتضته ربوبيّة (رب العالمين) وهو أن تختار لتحقيق هذا المقصد اللّسان العربيّ المبين أداةً لنقل هذه التعاليم إلى البشر، من بين لُغات العالم قاطبة، لاتّصاف اللّغة العربية بمزايا الإبانة والإفصاح والسّعة في الدلالة، الأمر الذي لم تتصّف به لغةٌ أخرى سواها، فهي تساعد لعظمتها على إيصال تعاليم رب العالمين إلى البشر كافة، تحقيقاً للمقصد من إنزال هذه التعاليم. ويكفي محمداً (ص) فخراً، وهو الأمّي الذي كان يجهل

لغات العالم في عصره، أن يحمل رسالة هذا التّنزيل، وقد لاحظنا أنّ كلمات العالم الأوربي (لين بول) تصدّق هذه المقولة.

كذلك يؤيّد اتّجاهنا هذا ماورد في سورة الرّعد الآية (٣٧) قوله تعالى : ﴿**وكذلك أنزلناه حُكْماً عربيّاً..**﴾، أي أنّ حُكم الله تعالى ورد عربيّاً، بمعنى مُفصّلاً وفصيحاً ومُبيناً، وليس مُجملاً.

من هنا يدرك الباحث مزيّة هذا المرجع العظيم الوحيد القرآن الكريم، أصدق وسيلة لمعرفة خالق هذا الكون، الذي لم يتوصّل علماء عصرنا بعد إلى معرفته، بالرغم من تقدّمهم العلميّ الكبير.

٢ ـ المزيّة القرآنيّة الثّانية :

والمزيّة الثانية للقرآن كمرجع، أنّ هذا الكتاب السّماوي نصّ في سورة الحجر (٩/٨) على كون الله الذي أنزله قد وعد بالمحافظة عليه إلى أبد الآبدين، من خلال قوله عز وجلّ : ﴿**مانُنزّل الملائكة إلاّ بالحق وماكانوا إذاً مُنظرين. إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.**﴾. أي أنّ الله تعالى لايُنزّل ملائكته إلى عباده إلا بالحقّ، وهو الأمر المقضي به من الله عز وجلّ، هذا الأمر الذي يتّصف بالعدل والثبات واليقين. وهذه الصفات هي دلالات كلمة (الحق) لُغةً (أقرب الموارد). ثم إنّ الله تعالى يصف هذا القرآن بصفة (الذّكر). والذّكر لغة يفيد الشرف والرفعة والسّمو. يقول إنّه تعالى أنزل هذا القرآن "الذّكر" بتوسّط ملائكته الذين لاينزّلهم إلا بالحقّ، إشارة إلى أنّ تعاليم القرآن تتصّف بصفات العدل والثبات واليقين، كما يتّصف بالحفظ والصّون، تصديقاً لقوله تعالى : ﴿**وإنّا له لحافظون**﴾.

هذا وإنّ وعد الله تعالى بالمحافظة على وحي القرآن الكريم وصونه، لاينبغي للباحث أن يتلقّاه بنظرةٍ سطحية تقليديّة، بل ينبغي أن يُقبل عليه بنظرةٍ علميّةٍ فاحصة ولايكفي أن نقف عند تواتر وصوله إلينا سالماً، كما يفعل المُقلّدون، الذين يقولون إنّا وجدنا آباءنا على ملّة، وإنّا على آثارهم مُقتدون.

أَوَليس عجيباً بعد هذا، أن يسبقنا إلى هذا الأسلوب العلميّ في البحث والتحقيق، للتوثّق من سلامة وحي القرآن الذي هو بين أيدينا، أن يسبقنا إلى هذا

علماءٌ لايمتّون إلى الاسلام بصلةٍ من الصّلات، وهم من تشحنهم الكنيسة المسيحية أيضاً بنقمةٍ على هذا القرآن بصورة عفويّة؟

لاشك أن المستشرقين، منهم المتطرّفون ومنهم المُعتدلون. والمستشرق البريطاني (سير وليم ميور) من هؤلاء المستشرقين المعتدلين. فقد كان ألّف كتاباً أسماه (حياة محمد) وبلُغته الانكليزية. وإليكم ترجمة بعض المقاطع الواردة فيه، فقد كتب على الصفحة (٣٨) يقول: (بالرغم من احتمال أن يكون محمّد هو الذي ألّف القرآن، فإنّ القرآن الموجود في زماننا هو الذي طلع به محمد على العالم).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(What we now have though possibly corrected and modified himself is still his own.)

وقد كتب على الصفحة (٥٦١) يقول : (إضافة إلى ذلك، فإننا نملك من مختلف الأدلّة، الداخلية منها، والخارجية، مايثبت أنّ الكتاب الموجود لدينا هو نفس الكتاب الذي طلع به محمّد على العالم، وقد كان يعمل بموجب تعاليمه).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية:

(There is otherwise every cecurity. Internal and external that we possess a text the same as that which Mohammad himself gave forth and used).

وكتب على الصفحة (٥٦٢) يقول : (وقد انتهيا إلى النتيجة التي توصّل إليها (وان هيمر)، فإذا لم ننته إليها في سائر جوانبها، ففي معظم هذه الجوانب. وهي ثبوت أنّ القرآن الموجود في زماننا، هو القرآن نفسه الذي جاء به محمّد دون أيّ تحريف. ونحن من ذلك على يقين، كيقين المسلمين أنفسهم، بأنّه وحي الله المقدس، الذي لم يُحرّف ولم يُبدّل.).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية:

(And we conclude with atleast a close approximation to the verdict a Von Hammer that we hold the quran to be as surely Mohammad's Waro as the Mohammadans hald it to be the world of good.)

وأضاف المستشرق ميور على الصفحة (٥٦٣) قوله: (ونحن نصّرح إستناداً إلى أدلّةٍ دافعةٍ، بأنّ كلّ آية من آيات القرآن أصيلة، وقد وصلتنا من محمّد دون أي تحريف.).

وهذه ألفاظه بالإنجليزية:

(We may upon the strongest presumption offirm that every vere in the quran is genrime and unoclterd composition of Mohammad himself).

هذا ماشهد به مستشرقٌ منصفٌ حول وصول هذا المرجع القرآنّي إلينا سالماً، بريئاً من أيّ تبديل أو تحريف، بعد أن تقصّى هذه الحقيقة بأسلوبٍ علمّيٍ رصين، والفضل ماشهدت به الأعداء.

والمستشرق الألماني (نولدكه) كتب يقول أيضاً : (ويمكن أن تكون قد وقعت بعض
الأخطاء الكتابية، لكن القرآن الذي قدّمه عثمان للعالم، هو نفس القرآن الذي جاء به محمّد، بالرّغم من كون ترتيبه عجيباً.

وهذه ألفاظه بالإنجليزية :

(S.light clerical errors there may have been but the quran of othan contains more but genuine elements).

مع الملاحظة أنّ الذي يرغب بالإحاطة بترتيب القرآن الموضوعي، بإمكانه مراجعة مؤلّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم).

❁❁❁

الفصل الثاني
١ ـ دليل من ضمن القرآن على مصداقية القرآن :

ولنعمد نحن، وبأسلوبنا العلمي، لإدراك مدى مصداقية القرآن الكريم. نتناول مانلاحظه فيما نصّت عليه سورة القيامة (١٦/١٧/١٨) من آياتٍ، جسّدت لنا معالم هذا الدليل الداخلي الضمنّي، من القرآن نفسه. فالله تعالى يقول : ﴿**لاتُحرّك به لسانك لتعجل به، إنّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه.**﴾، وهذه الآيات قد انطوت على وعدٍ إلهي واضح المعالم. وكأن الله عز وجلّ يقول لرسوله الكريم بألفاظٍ أخرى : وهل يستسيغ عقلُك أن نُنبئك عن المستقبل، دون أن نكون قد أعددنا أسباب ووسائل تحقيق هذا المستقبل؟ لذلك فاعلم أننا قد أخذنا على أنفسنا عبء جمع هذا الوحي القرآني الذي نوحيه إليك، وقرآنه على ترتيب تلاوته. فإذا فرغت من هذه التّلاوة ﴿**فاتّبع قرآنه**﴾، بمعنى أنّ مسؤوليّتك مقصورة على تنفيذ نهجنا هذا واتّباع أوامرنا. وهذا ماأفاده تعالى بقوله في مقام آخر : ﴿ **ماعلى الرسّول إلاّ البلاغ.**﴾ المائدة ٩٩ ـ

فهذه معالم دليلٍ ضمنّي من داخل القرآن نفسه. وهو على غاية الأهميّة، بسبب أنّ هذا الدّليل الضّمني وضّح لنا أن هناك وعداً إلهياً بالمحافظة على وحي القرآن الكريم، وهذا الوعد يشمل ترتيب تلاوة القرآن الكريم أيضاً.

وقد بقي السؤال هنا عن حكمة إنزال القرآن الكريم على ترتيبين : ترتيب إنزاله مُنجّماً، وترتيب تلاوته، وهو ماتتوق النّفس إلى معرفته.

ونحن كباحثين، نعثر على الإجابة ضمن القرآن، وفي سورة الفرقان (٣٢) من خلال قوله تعالى : ﴿**وقال الذّين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جُملةً واحدةً، كذلك لنثبّت به فؤادك، ورتّلناه ترتيلاً.**﴾. وكلمة (كذلك) تعني أنّنا أنزلناه مُنجّماً على هذا النّهج ﴿ **لنثبّت به فؤادك** ﴾، أي أنزلناه كذلك لتحقيق مقصدين هامّين : تحفيظُك آيات القرآن على مراحل إلى جانب تعريفك دلالات

هذه الآيات ومعانيها، وتثبيت هذه الآيات في (فؤادك). ذلك أنّه إذا ثبت الشّيء في المكان، دام واستقرّ. وأثبته : جعله ثابتاً، وعَرِفه حقّ المعرفة. (اقرب الموارد)

وإنّ الإنسان الذي يرجع إلى كُتب السّيرة المحمديّة، لابدّ أن يُلاحظ تحقُّق هذين المعْلمين لهذين المقصدين الهامّين. فقد كان محمد رسول الله (ص) يُحدث في شخصيّات أصحابه، التبديل الضّروريّ إحراؤه تبعاً لما كان ينزل عليه من وحي ربّه الذي كان يتلقّاه مُنجَّماً أي متفرّقاً. فكان رسول الله (ص) يَعي معانيه ويتدبّرها، ويصّرف أمور الدّعوة على أساس مااستوعبه من معاني هذه الآيات النّازلة عليه. وقد لاحظنا كيف أنّ المستشرق (سير وليم ميور) قد لاحظ ذلك، لذلك قال آخر كلامه الذي اقتبسناه من كتابه (حياة محمد) صفحة (٥٦١)، قوله بحق محمد : (وقد كان يعمل بموجب تعاليمه). Mohammad himself gave forth and used.

على هذه الصّورة أكون قد وضعت بين يدي المرء ملامح دليلٍ من داخل القرآن الكريم، يؤكّد مصداقيّته.

٢ ـ دليل من خارج القرآن على مصداقية القرآن

وأنتقل بالقارىء خطوة أخرى، لأُكمل خُطوتي هذه التي خطوتها، ولأضع بين يديه الدّليل من خارج القرآن الكريم، هذا الدّليل الذي يَثْبُتُ من خلاله تحقُّق المقصدين الهامّين اللّذين قصد تحقيقهما الوعد الإلهي الذي تضمنته آية سورة الفرقان. هذين المقصدين اللّذين استدعيا منه عز وجلّ أن يُنزّل وحي القرآن الكريم مُنجّماً.

فمن خلال تقصّينا لتطوّرات الأحداث التي حدثت في فترة نزول وحي القرآن مُنجّما. تتجلّى لأعيننا ظواهر ثلاث قد برزت إلى مسرح الأحداث : الظاهرة الأولى استمرار نزول جبريل عليه السلام بالوحي القرآنيّ مُنجّماً على رسول الله (ص)، وتحفيظه إيّاه ماينزل به من وحيٍ قرآنيّ، بل ومراجعته إيّاه

بجميع مانزل به من وحي بين حين وآخر. والظاهرة الثانية تتجلّى بظهور طبقةٍ من حُفّاظ هذا الوحي النازل مُنجّماً، وبترتيب مايشير به جبريل على محمد رسول الله (ص) ثم إنّ عدد أفراد طبقة الحُفّاظ هذه، قد تجاوز عشرات الألوف من أصحابه (ص). والظّاهرة الثالثة التي تتجلى لأعيننا هو تعيين محمد رسول الله (ص) كتبةً يكتبون له مايوحيه إليه ربّه على فترات، من وحيٍ قرآنيٍ، على الرّقاع والعظام، ووفقاً لما يُمليه عليهم الرسوم الكريم لفظاً وترتيباً.

هذا، وإنّ الباحث الذي أحاط بمعالم مُعطيات الدليل الداخليّ الذي ذكرناه، والمتضمّن الوعد الإلهي، لايستغْرب ظهور هذه الظواهر الثلاث التي لاحظناها. بل ولايخطر بباله أن يعتبرها قد حدثت مُصادفةً واتّفاقاً، بل يربط بين هذه الظّواهر وبروزها إلى سطح الأحداث، وبين الوعد الإلهي المذكور بصورة لاشعورية وتلقائيّة. فيرى من خلالها وجه تدخّل المشيئة والإرادة الإلهيّة التي سبق أن وعدت بجمع القرآن وقُرآنه.

على هذا النّسق نسير ببحثنا العلمي عن مصداقيّة القرآن الكريم، فمن شذّ عن هذا المسار، كان في نظري مُخطئاً، ولاينطلق ببحثه من مُنطلقٍ علميٍ صحيح.

والآن، أقول، والحقّ يُقال، وهو لو أنّنا كُنّا في ذاك الزّمان، وسط أمّة أميّة، وهي عرب الجاهلية، الأمّة التي اعتمدت ذاكرة أبنائها، لحفظ كلّ ماتراه مناسباً للحفظ من تراثها التاريخيّ وأدب أدبائها وشعرائها. فلو كُنّا في وسط الجوّ المذكور، وكان طُلب منّا أن ننهج أسلوباً علمياً في حفظ ماكان ينزل من وحي القرآن على قلب محمد رسول الله (ص)، فماذا كُنّا يومئذٍ فاعلين؟

وجوابي كمفكّر وباحث، لاأرى أُسلوباً أرقى من أن نعمد إلى تلك الوسائل الثلاث المذكورة وبصورة علميّة، يوم لم يكن الورق قد اكتُشف، ولاكانت وسائل الطّباعة قد ظهرت إلى حيّز الوجود.

فلم يكن متوفّراً بين أيدينا إلاّ أعدادٌ متزايدة من مؤمنين أُميّين، لايملكون من متاعٍ أثمن من ذاكرتهم النّامية بشكلٍ ملحوظ.

فإن كُنت مُخطئاً فيما قُلته وقدّمته من رأي، فليتفضّل الباحثون يُصحّحونه. وإني لأتوق لسماع رأي أصوب مما قدّمت.

وبذلك تتجلّى لي معالم تجليّات الله عز وجلّ الذي أنزل وحي القرآن الكريم، إلى جانب خلقه الأسباب التي أدّت إلى ظهور هذه الظواهر الثلاث التي لاحظنا ظهورها على مسرح الأحداث، وذلك حفظاً منه جلّ شأنه لوحيه، وأسلوباً منه تعالى أيضاً لجمع هذا الوحي القرآنيّ، وقرآنه على ترتيب تلاوته، وهو الوحي النّازل مُنجّماً لتحقيق المقصدين الهامين اللّذين سبق أن فهمناهما من آية سورة الفرقان.

فهذه البيئة الأميّة، وهذا الرسول الأميّ، قد استدعيا من الله عز وجل أن يعد، ويحقّق وعده، بهذه الوسائل الثلاث التي كان يستحيل اعتماد وسائل غيرها، أضف إلى ذلك قيمة وأهميّة أوقات رسول الله (ص)، والتي كان عليه أن يبذلها لتأدية رسالة ربّه. فما كان مسؤولاً عن إضاعة أوقاته في أمور خارج هذا الإطار. فقد تحددت مسؤوليته من خلال قوله تعالى : ﴿.. **ماعلىٰ الرّسول إلاّ البلاغ.**﴾.

والذي نخلص إليه من بحثنا ودراستنا هذه، هو أنّ طبقة حُفّاظ القرآن الكريم، كانت تؤلّف العُنصر الأساسيّ لجمع القرآن وقرآنه. وتأتي الرّقاع المكتوبة في الدّرجة الثانية أهميّةً، فما كانت الرّقاع إلاّ بمثابة صمّام أمان، يُعمد إليه في الوقت الذي يعود الاعتماد فيه على طبقة الحُفّاظ خطراً لا أهميّةً له من الوجهة التوثيقيّة.

هذا على شاكلة ماكان يجري عند العرب بشأن أشعار أدبائهم البارزين، إذ كانت مُعلّقات أشعارهم، ليست هي المرجع الأهم، بقدر ماكان لحُفّاظ تلك المُعلّقات من دورٍ يؤدّونه على هذا الصّعيد. مع فارق مابين المثالين، وأيّ فارق.

❁❁❁

الفصل الثالث
ـ جمع القرآن الكريم

١ً ـ واقعة اليمامة وجمع الرّقاع : توفي محمد رسول الله (ﷺ)، ووحي القرآن الكريم يعْمُر أفئدة عشرات ألوف الحُفّاظ، من جهة، وقد دُوّن من جهة أخرى على العُشُب (جرائد النّخل)، وعلى اللّخاف (حجارةٌ بيضٌ رقاق).

وأتتبّع الذي حدث بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، بنفس الأسلوب العلمي. فقد سارت الأمور، في عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، على ماكانت عليه في عهد رسول الله (ﷺ).

لولا أن حدثت معركة اليمامة، التي استُشهد فيها مايَنوف على خمسة آلافٍ من حُفّاظ القرآن الكريم، دفعةً واحدة. وتركت هذه المأساة صدىً كبيراً في نفوس كبار مسؤولي الدولة الإسلامية، في المدينة المنّورة، العاصمة آنذاك، وتتجلّى هذه الحقيقة لأعيُننا، من خلال مارواه البخاريّ في صحيحه، وقد دفعت هذه الحادثة هؤلاء المسؤولين الكبار للتفكير بجدٍ وعزيمةٍ ماضية، في أمر معالجة موضوع جَمْع الرّقاع، وترتيبها، وتهيئتها، تحسُّباً من تكرار حادثة اليمامة واستشهاد أكثرية الحُفّاظ، فلا تعود طبقة الحُفّاظ مُعوّلاً عليها في الحفاظ على القرآن الكريم نفسه.

والذي رواه لنا البخاريّ رضي الله عنه قال : (حدّثنا موسى بن اسماعيل عن ابراهيم بن سعد، حدّثنا إبن شهاب عن عُبيد بن السّباق : أنّ زيد بن ثابت رضي الله عنيه قال : أُرسِلت إلى أبي بكر الصّديق مَقْتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطّاب عنده.

قال أبو بكر رضي الله عنه : إنّ عُمَر أتاني فقال : إنّ القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقُرّاء القرآن ـ واستحرّ معناه اشتدّ ــ وإنّي أخشى إن استحرّ القتل بالقرّاء بالمواطن، أن يذهب كثيرٌ من القرآن ــ وهذا القول يؤيّد أهميّة ومنزلة وجود الحفّاظ وسلامة كتاب الله من أي تحريفٍ كان ـ وإنيّ أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر ـ والكلام لأبي بكر ــ كيف يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر : هذا والله خيرٌ ــ ويضيف أبو بكرٍ قوله ــ فلم يزل عُمر

يُراجعني، حتّى شرح الله صدري لذلك ــ يقصد أخذه برأي عمر في ضرورة جَمْع رِقاع القرآن ـ وأضاف :

ورأيت في ذلك الذي رآى عمر ـ والآن يعود الكلام للرّاوي زيد بن ثابت، قال زيد : قال أبو بكر ـ موجّها كلامه إلى زيدٍ بعد أن استدعاه وحضر بين يديه ـ : إنّك رجلٌ شابٌ عاقل، لاننّهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن، فاجمعه. قال زيد : فوالله لو كلّفوني نقلَ جبلٍ من الجبال، ماكان أثقلَ عليَّ ممّا أمرني به من جمع القرآن. قلت ــ والكلام لايزال لزيد ومخاطباً أبا بكر : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال ــ والكلام لأبي بكر ـ : هو والله خير.

ويضيف زيدٌ قوله : فلم يزل أبو بكر يُراجعني، حتى شرح الله صدري للّذي شُرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. فتتبّعت القرآن، أجمعُه من العُسُب ومن اللّحاف وصدور الرّجال ــ أي وفقاً لترتيب تلاوته عند حُفّاظ القرآن الكريم ـ حتّى وجدتُ آخر سورة التّوبة مع أبي خزيمة الأنصاريّ، لم أجدها مع أحدٍ غيره : ﴿ **لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ماعنتّم..**﴾ حتّى خاتَمَة براءة. فكانت الصُّحف عند أبي بكرٍ حتى توّفاه الله. ثمّ عند عُمر حياته ـ أي طوال حياته ـ ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه.).

هذه الرواية التي رواها لنا البخاري، تُعتبر في نظري من أوثق وأصحّ ماروواه. فهي ألقت للباحث الضّوء المُبهر على هذه الأحداث الهامّة وبجرياتها فيما يتعلّق بالتّبديل الطارىء بعد انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى.

والذي يُستدلّ من هذه الرواية، هو أنّ خشية الله تعالى كانت تعمر أفئدة هؤلاء المسؤولين الكبار في الدّولة الإسلامية. فهذا عمر الفاروق يرى في حادثة مقتل عددٍ كبيرٍ من حُفّاظ القرآن خطراً داهماً على القرآن الكريم نفسه. بسبب أنّه كان يعلم يقيناً أنّ طبقة الحُفّاظ، كانوا عماد "جمع القرآن وقرآنه". وبسبب أنّ الأمة المبعوث فيها هذا الرسول الكريم الأمين اشتهرت بكونها أمّةً أميّة لاتكتب ولاتحسب على الورق. ونَدَرَ من يعرف القراءة والكتابة من أبنائها. فقد كانت تستظهر كُل تاريخها وعلومها وأشعارها عن ظهر قلب.

وهذا أبو بكر الصّديق، يرى أخيراً رأي عمر الفاروق، بعد أن شرح الله تعالى صدره لرأيه. فقد كان يُدرك إذن أيضاً أنّ طبقة حُفّاظ القرآن هم

عماد "جمعه وقرآنه". فقد اقتنَعَ أنّه لابدّ أن تفعل هذه الحقيقة فعلها، إذا تكرّر في معركةٍ من المعارك ماحدث في معركة اليمامة. لذلك لاحظناه استدعى أحد أبرز الذّين كانوا كُتّاباً لوحي القرآن في زمن نزوله، وهو زيد بن ثابت رضي الله عنه، وكلّفه بمهمّة جَمْع الرّقاع المؤلّفة من العُسُب واللّحاف، أي من جرائد النخل ورقائق الحجارة البيض. يجمعها ويُرتّبها وفقاً لما في صدور حُفّاظ القرآن من ترتيب أيضاً.

وهذا زيد بن ثابت، وقد شرح الله تعالى له صدره لرأي هذين الصحابين المسؤولين العظام، وأدّى مُهمّته على أحسن وجه وبكلّ أمانة. وقد احتفظ أبو بكر الصّديق برقاع هذا القرآن المُدّون، والمرتّب على وفق ترتيب ماحفّظ محمد ﷺ الحُفّاظ إيّاه. أي على ترتيب التلاوة الذي كانوا يتلونه به كُلّ آن في حياة محمد رسول الله ﷺ . وقد تسلّم عمر بن الخطاب رقاع هذا القرآن المُدّون أيضاً، بعد أن تسلمّه من بيت أبي بكر بعد أن توفّاه الله عز وجل. فلّما توفّى الله عمر بن الخطاب، احتفظت ابنته حَفْصة برقاع هذا القرآن المُدّون المرتّب بترتيب تلاوته. علماً بأنّ حفصة رضي الله عنها، لم تكن ابنة عمر وحسب، بل وأمّ المؤمنين.

٢ ـ نسخ الرقّاع في زمن خلافة عثمان (رضي) :

وانتخَب المسلمون عثمان بن عفّان خليفة ثالثاً لرسول الله ﷺ ورئيساً لدولتهم الإسلامية. فلننظُر ماذا حدث زمن خلافته، وكيف تطوّرت الأحداث، وأثرها الذي تركته على طبقة الحُفّاظ وسلامة القرآن الكريم؟

لابُد أن يكون قد رسخ في ذهن القارىء إلى الآن أن دراستنا وأسلوبنا العلمي، قد أوصلانا إلى حقيقة تاريخيّة لاغُبار عليها، هي أنّ القرآن الكريم، الذي يُعدّ مرجعنا الوحيد لتقصّي صفات خالقنا وأسمائه الحسنى قد وصل عهد خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه مجموعاً ومرتّباً وفق ترتيب تلاوته في صدور الحفّاظ، سالماً من كلّ تحريفٍ وتبديل.

هذه الحقيقة تدحض زعم مايزعمه بعض المُغرضين من أنّ الخليفة الثالث عثمان بن عفّان هو الذي جمع القرآن الكريم. فقد ثبت لنا بالأسلوب العلمي وصوله مجموعاً ومرّتباً إلى عهد خلافته، بل وفي يديّ حفصة أم المؤمنين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : ماهي التطورات التي حدثت في عهد هذا الخليفة الثالث، والتي دفعته لنسخ القرآن على سبع نُسخٍ كما هو معلوم؟ خصوصاً أن أكثر تلك النّسخ لاتزال موجودة في متاحف أعظم الدّول المعاصرة؟

إذا كانت حادثة اليمامة التي جرى خلالها مقتل عددٍ كبيرٍ من حُفّاظ القرآن قد استدعتْ ذلك من الخليفة الأول أبي بكر الصدّيق جمع وترتيب القرآن على نفس ترتيب تلاوة الحُفّاظ.

فقد حدثت في عهد الخلافة الثالثة تحوّلات جذرية وتطورات، بالإمكان تتبُّعُها ومعرفة معالمها وأبعادها من خلال ماوصلنا ممّا وثّقه المؤرّخون لتلك الفترة من الزمان، هذه التحولات الجذرية والتطورات هي التي دفعت عثمان بن عفّان رضي الله عنه ليقلِب أو يعكس مُعادلة الحِفَاظِ على القرآن الكريم، التي ذكرناها وتحويلها من الاعتماد على الحُفّاظ، إلى الاعتماد على رقاع القرآن المجموعة والمرتبة بترتيب تلاوتها، فينسخها إلى سبع نُسخٍ ويوزّعُها على الأمصار. وذلك لتحتل النُّسخة المدونة والمنسوخة هذه المكانة الأولى كصمّام أمانٍ وحسب، ولتحلّ محلّ الحُفّاظ مصدراً لحفظ هذا القرآن العظيم.

نلحظ معالم هذه التحولات الجذرية والتطّورات المستجدّة من خلال أَسطُرِ روايةٍ أخرى نقلها لنا البخاري رحمه الله في صميمه. إذ قال : (عن أنس بن مالك أنّ حذيفة بن اليمان قَدِم على عثمان، وكان يُغازي أهل الشامَ في فتح أرمينيّة وأذربيجان، مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة. فقال حذيفة لعثمان : ياأمير المؤمنين أدرك هذه الأمّة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنّصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصّحف ننسخُها في المصاحف ونردُّها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان. فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام. فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرّهط القرشيّين الثّلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريشٍ، فإنّما نزل بلسانهم. ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصُّحُفَ في المصاحَف ردّ عثمان الصُّحف إلى حفصة. فأرسل إلى كلّ أُفقٍ بمصحف ممّا نسخوا، وأمَرَ بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحرق.).

ولنتدبّر الآن مضمون هذه الرّواية، وماحملته إلينا من معلومات :

أولاً - يتراءى من خلال هذه الرواية أنّ حذيفة بن النُّعمان كان قائداً لجيش المسلمين المُتوجّه لفتح أرمينيّة وأذربيجان، وكان جنود جيشه مؤلّفين من شاميّين وعراقيّين.

ثانياً - لاحظ حذيفة أنّ المسلمين من غير العرب يَلحنون في حفظ القرآن الكريم، فلا يحفظونه على نسق وفصاحة الحُفّاظ من العرب. يقول الرّاوي : (فأفزع حذيفةَ اختلافهم في القراءة) ولاشكّ أنّ ملاحظة هذا القائد المسلم التّقي الواعي لمسؤوليّته، كانت في محلّها.

ذلك أن العرب أنفسهم كانوا مختلفين في القراءات، تقرأ كلُّ قبيلةٍ القرآن بلهجتها، فما بالنا بالأعاجم الذين يصعُبُ عليهم إحسان النُّطق بكثير من أحرف العربيّة لاسيّما حرف الضّاد؟ وهذه الملاحظة تقتضي أن يُصبح بين مُتناول أيدي من يُريد تلاوة أو حفظ القرآن قرآنٌ منسوخ على أوراقٍ بين يديه، دفعاً لهذا الاختلاف بين القراءات.

ثالثاً - وقد عاد هذا القائد إلى القائد العام خليفة المسلمين عثمان بن عفّان (رضيَ) . وحريٌّ به أن يعود إلى خليفته فيحذّره مما حدث. وقال لعثمان فزعاً : (أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنّصارى.). وإنّها لكلماتٌ معبّرةٌ جدّاً. فاليهود والنصارى لم يُسعدهُمُ الحظّ بتوثيق تعاليم رُسُلهم في أزمنة أصحاب هذه التعاليم أنفسهم. فكان نتيجةً لذلك ماكان. وهذه الكلمات تعبّرُ عن ثقافةٍ ناضجةٍ، ووعيٍ لتاريخ الأديان.

رابعاً - ماذا كان ردّ عثمان على قائده؟ لم يُجادله، بل وَعى ملاحظته تماماً، وتقبّلها، وأرسل إلى حفصة (رضي) يطلب منها نُسخة القرآن التي جمعها أبو بكر الصّديق (رضي) في حياة خلافته وفق تلاوة الحُفّاظ. ثمّ ألّف عثمان (رضي) لُجنةً من أربعة رجالٍ ثقاتٍ. على رأسهم زيد بن ثابت الذي تمّ جُمع القرآن على يديه من قبل. إلى جانب عبد الله بن الزّبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام. وكان هؤلاء الأربعة من حُفّاظ القرآن أيضاً، كما هو ثابت من التّاريخ. بل كانوا رهطاً من قريش، يتكلّمون بلهجة قريش أيضاً، علماً بأنّ القرآن الكريم نزل بلغة قريش، كما هو معلوم، فلا مجال للخطأ في التّدوين.

ثم إنّ تأليف هذه اللّجنة من هؤلاء الرّجال أنفسهم، يدلّ على حكمة عثمان (رضي) وبُعد نظره. ويزيد رأيه هذا رفعةً وسُمُوّاً إشارته على هؤلاء الرّجال بأنّهم، إذا اختلفوا، هُم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن، أن يكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزل القرآن بلسانهم، ففعلوا. وقد نسخوا القرآن الكريم على سبعِ نُسخٍ، فأرسل عثمان إلى كُلّ قطرٍ من أقطار الدّولة الإسلاميّة نُسخةً من هذه النُّسخ، لينسخ المسلمون بموجبها، فلا يختلفون في شيءٍ من القرآن الكريم.

خامساً - والذي فعله عثمان (رضي)، بعد أن فرغت اللّجنة من أداء مهمّتها (ردّ عثمان الصّحف إلى حفصة (رضي)) سالمة دون زيادةٍ أو نُقصان، ودون أن يحرقَ منها شيئاً (وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ عنده، أو مُصحفٍ أن يحرق) أي أنّه أمر المسلمين أن يحرق كلّ واحدٍ منهم، مااستنسخَهُ من صحيفةٍ عنده أو كتبها من قبل، خشية أن يكون فيها نقصٌ أو خطأ. و لم يأمر بإحراق النسخة الأصليّة التي احتفظت بها حفصة لديها بعد موت والدها عمر بن الخطاب (رضي)، بل أعادها إليها سالمة، على حسب ماورد في الرّواية المذكورة.

وهكذا نكون قد توصّلنا بالأسلوب العلميّ، إلى نفس ماتوصّلَ إليه المستشرق وليم ميور، الباحث المُحايد المُنصف، الذّي أقرّ إقراراً جازماً أنّ القرآن الذي بين أيدينا، هو نفسه الكتاب الذي أنزله الله عز وجلّ على رسوله الأمين.

على هذه الصّورة تطمئن نفوسنا بعد الإيمان، إلى أنّ القرآن الكريم الذي نتلوه ليل نهارٍ، في كلّ مكانٍ، هو مرجعٌ تاريخيٌّ ثقةٌ، بإمكاننا الرّجوع إليه، لنتعرّف من خلال آياته الكريمة ما للذّات الإلهيّة الخالقة لهذا الكون، من

صفاتٍ وأسماءَ حُسنى. ولانكون مُغالين إذا قلنا إنّ هذا القرآن المعتمد الموثوق بـه قد وصل إلينا سالماً، وفقاً لما نصّ عليه قوله تعالى في سورة الحجر :

﴿ **إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون.**﴾. هـذا الدليـل الدّاخلي مـن ضمن القرآن نفسه الذي تأيّد بالدليل الخارجيّ الذي أوردناه.

❁❁❁

الفصل الرابع
١ ـ هل اختلق محمّد ﷺ القرآن ؟

فإذا وصلنا إلى هذا الحدّ من البيان، طرح أعداء الإسلام علينا سؤالاً هو: وماأدرانا أنّ هذا القرآن الذي وصلنا عن محمّدٍ ﷺ سالماً هو تنزيل رب العالمين؟ وليس من وضع محمد بن عبد الله نفسه؟

والذي وُلِدَ مسلماً مؤمناً برسالة محمد رسول الله ﷺ، يردّ على هذا السؤال، ويُجيب إجابةً تقليديّة. على شاكلة من سبق أن قالوا : إنّا وجدنا آباءنا على ملّة، وإنّا على آثارهم مُقْتدون.

أما نحن، وقد انتهجنا الأسلوب العلميّ أسلوباً لفهمنا وإدراكنا، فلا سبيل أمامنا إلاّ الإجابة عن هذا السؤال بالأسلوب العلمي، دون الطّريق التقليدي.

والذي أرغب فيه هو الكلام أوّلاً عن الذات البشريّة مجردةً عن أيّ أمرٍ روحي، وبمنطقٍ تاريخيٍّ أصيلٍ وثابتٍ وبالأسلوب العلمي.

فالذي يستعرض تاريخ الأفذاذ من الرّجال، هؤلاء الذين تركوا بصماتهم على صفحات تاريخ الإنسان، وبرزوا على مستوىً عالميّ، بين قائدٍ عسكريّ، وفيلسوف، وعالم، في فرعٍ من فروع العلوم. فقد لمعت أسماء الاسكندر المقدونيّ وهتلر ونابليون مثلاً قوّاداً عسكريين.

وبرقت أسماء سقراط وأفلاطون وهيجل والغزالي، مثلاً فلاسفة مفكّرين، واشتهرت أسماء نيوتن وأنشتاين وابن سينا والفارابي علماء في مختلف فروع العلوم.

فإن نحن استعرضنا هؤلاء الأفذاذ من الرّجال فرداً فرداً، لاحظنا نبوغ عبقريّتهم في اتّجاه واحد، وليس على جميع المستويات هذا ماأثبتته عشرات الكتب التي بحثت جوانب حياة هؤلاء الرّجال الأفذاذ. ولم يزعم واحدٌ منهم أنّه تلقّى مواهبه أو علومه من طرفٍ خفّيٍ وطريقٍ غيبيّ. وكانت تتجمّع عوامل مختلفة، وأسباب عديدة، تدفع إلى ظهور هذه الشّخصيات. فمن هذه العوامل،

أن يسبق ظهور هذا القائد أو ذاك مثلاً، دخوله الكُلّية العسكرية، وترقّيه في مختلف مراتبها. فهذه خلفيات القوّاد العسكريّين. كما جرى أن سبق ظهور عالم من العلماء الذين اشتُهروا ولمعت أسماؤهم، دخولهم كلّيةً علميّةً مُحدّدة، وترقّيهم في تلقّي علمهم من خلالها. وذلك بعد أن يمرّوا بمراحل دراسيّة متوالية. فهذه خلفيّات العلماء النّوابغ أمثال نيوتن وآنشتاين وسواهما من العلماء البارزين. كما جرى أن يسبق ظهور فيلسوفٍ شهيرٍ لمع إسمه في تاريخ البشرية، متابعته للعلوم الفلسفيّة، وترقيّه إثر ذلك، واشتهار مايطرحه من أفكارٍ مُضافةٍ جديدة. فهذه خلفيّات الفلاسفة في التّاريخ.

والذي يلاحظه المرء من خلال متابعته لسجلّ حياة هذه الشخصيّات اللاّمعه جميعاً، أنّه كانت لاتمرّ فترةٌ من الزّمان إلاّ وتهتزّ صورتهم من جوانب عديدة في أعين الباحثين. بل تهتزُّ كثيرٌ من آرائهم وعلومهم على مرّ الزّمان.

فهذه هي ملامح الذات البشرية المجردّة عن أيّ دعمٍ روحيّ، ولايختلف في هذا الأمر إلاّ من جانب الأسلوب العلميّ في بحوثه ودراساته.

فمن هذا المُنطلق العلميّ المُبصّر، تعالوا نتناول هذه الذّات البشرية التي طلعت علينا بهذا القرآن العظيم الذي وصلنا عنه سالماً، بلا أدنى تحريف. نتناول ذات محمد بن عبد الله بالبحث والدراسة وننظر : هل يتأتّى أن تكون هذه الذات البشرية هي التي اختلفت هذا القرآن وأبدعته، أم أنّ محمّداً ﷺ قد تلقّى وحي القرآن حقّاً من جهة خالق هذا الكون ومُبدعه، لنتمكّن بذلك من الإجابة على هؤلاء الذّين اعتادوا أن يوجّهوا، على فتراتٍ، مثل هذا السؤال؟

ولست أول من يتصدّى لهذا السؤال ولاأوّل من أجاب. فالمكتبات عامرةٌ بعشرات الكتب في هذا المجال. وإنّ جميع مَن كتبوا من الأصدقاء ومن الأعداء، أجمعوا على أنّ محمداً رسول الله ﷺ كان على رأس عباقرة تاريخ الإنسانية وأفذاذهم، وإن اختلفوا فيما طلع على الناس به من كتاب.

وأنقل بعضاً ممّا كتبه الأب حداد الذي كتب كتابه الضّخم المؤلّف من عدّة أجزاء، محاولاً تحريف الآيات القرآنية عن مواضعها، وتضليل القُرّاء بأحطّ أسلوب. ويدرّس مؤلفه هذا في معهد تخريج الخوارنه في بيروت عاصمة القطر الشقيق لبنان. وقد اضطّر الأب حداد مُكرهاً، وذلك عندما تناول شخصية النبي

العربي محمد رسول الله ﷺ، بالكلام على مزاياه. يُلاحظه القارىء يكتب وفؤاده يقطُر دماً من جرّاء تعصُّبه وعداوته. قال وهو يناقض نفسه ص١٠٦٤: (كانت شخصية محمد بن عبد الله الهاشميّ القرشيّ، النّبي العربي، مجموعة عبقريات، مكّنته من تأسيس أمّةٍ ودينٍ ودولةٍ من لاشيء. وهذا لم يجتمع لأحدٍ من عُظماء البشرية : كان محمد عبقرية دينيّة.. وكان محمد عبقرية سياسيّة.. وكان محمد عبقرية دبلوماسية.. وكان محمد عبقرية عسكرية.. وكان محمد عبقرية إدارية.. وكان محمد عبقرية تشريعية.. أخيراً كان محمد عبقرية أدبية.. فقد كان النبي العربي رجل دين ورجل دولة ورجل أدب، قلّما عرف العالم له مثيلاً.). وهل تخرج مثل هذه الأوصاف من قلم عدوٍ إلاّ كرهاً، وإقراراً لواقعٍ لاينكُره إلاّ أعمى أو مجنون؟

وأعود إلى مانحن بصدده، من دراسة هذه الذّات البشرية التي أنجبتها أرضٌ غير ذات زرع، لم تشع فيها من المعارف، اللّهم إلاّ حديث القوم عن الشّعر والتّفاخر.

وهكذا توصّلنا إلى أنّ جميع عباقرة البشر، استندت عبقرياتهم إلى خلفيّات ومعطيات علمية وفلسفية وعسكرية وسواها. ودون هذه الخلفيات والمعطيات العلمية والفلسفية والعسكريّة يستحيل أن ينمو وعي أيّ إنسان كان.

هذه حقيقة تشاهدونها يوميّاً. وهذه الحقيقة الناصّعة هي سرّ تباين مستويات بعضها عن بعض. بل إنّ هذه الحقيقة النّاصعة تشكّل ظاهرة قانونٍ طبيعيٍ أيضاً، لامجال للاختلاف فيه. إذ هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون، بل هل تستوي الظّلمات والنور، أو هل يستوي الصّيف والشتاء، أو يستوي الأخضر واليابس؟

وعلى ضوء هذه الحقيقة النّاصعة، يتناول الباحث بأسلوبٍ علميٍ، شخصيّة محمد بن عبد الله ﷺ. فإذا كان هذا الباحث مُنصفاً. يبحث أوّل مايبحث في خلفيّة شخصية هذا الرسّول ومعطياتها العسكريّة والعلمية والفلسفية، فإذا أتمّ هذا الأمر، تساءل أوّل الأمر : هل كان محمّد ﷺ يقرأ ويكتب؟ فإذا كان يقرأ ويكتب، فأين تعلّم ودرج في سُلّم العلوم؟

ولست أدّعي أنّي أوّل من يحاول تتبُّع شخصية محمد رسول الله ﷺ بهذا الأسلوب العلميّ، وبهذا التّدرج في البحث. فهذا هو الأب حدّادّ وسواه من أعداء الإسلام، قد تتبّعوا الأمر من نفس الزّاوية، وبنفس الأسلوب العلميّ، فَذُهِلوا ممّا تبيّن لهم من حقيقة ناصعة، هي أنّ محمّداً ﷺ كان أميّاً لم يقرأ و لم يكتب و لم ينتسب إلى أيّ معهدٍ علميّ. فقد أذهلهم مع ذلك أن يكون محمد بن عبد الله ﷺ عبقرياً دينيّاً.. وعبقرياً سياسياً.. وعبقرياً دبلوماسياً.. وعبقرياً عسكريّاً.. وعبقريّاً إدارياً.. وعبقرياً تشريعياً.. وعبقرياً أديبّاً.. فيشذّ بذلك عن جميع عباقرة التّاريخ، ولايكون لوعيه العظيم هذا خلفيّة علميّة ومعطيات اجتماعيّة وسواها من المُعطيات.

أي أنّ الأب حدّاد وسواه من أعداء الإسلام، قد أذهلهم مخالفة شخصيّة محمد بن عبد الله، للحقيقة الطبيعيّة المألوفة لنمو الوعي الإنساني وهذا القانون الطبيعيّ. فماذا يفعلون تجاه هذا الواقع الذي لايُنكر تاريخيّاً، ولا قرآنيّاً؟

إنّهم إن سلّموا بحقيقة كون محمد رسول الله ﷺ. أميّاً، وجب عليهم الإقرار بأنّ معجزة القرآن هي معجزة سماويّة، ليست هي من صُنع أو عطاء أو إفتراء محمّدٍ نفسه. أمّا إذا أرادوا أن يضلّلوا الناس، ويوهموهم أنّهم درسوا شخصيّة محمّد ﷺ دراسة علميّة موضوعيّة، وثبتت لهم عبقريّته على جميع الصُّعد، فلن يجدوا إلى ذلك سبيلاً. إلاّ قلب الحقائق التّاريخيّة والقرآنيّة، لتضليل الناس، وإقرار مافي قلوبهم من زيغ..

٢ ـ أعداء الإسلام اعتبروا محمّداً ﷺ عبقرياً:

أعود أقول : إنّ الأب حدّاد وسواه من أعداء محمّدٍ قد أذهلهم مخالفة شخصيّة محمّد للحقيقة الطبيعيّة المألوفة والمتعلّقة بنموّ الوعي الإنساني وهم ممّن تناولوا دراسة شخصيّة محمد ﷺ بالأسلوب العلمي. وقد لاحظ القارىء من خلال ماقتبسته من كتاب الأب حدّاد، اعترافه بعبقرية محمّد ﷺ على جميع

الصّعد. وهذه ظاهرة إعجاز لاتتأتّى بطريق طبيعيّ. فهل يعترف الأب حدّاد بهذه المعجزة الإنسانيّة المنسوب إيتاؤها إلى الله الخالق، ويُلزم بالتّالي الإيمان بنبّوة محمّد بن عبد الله ورسالته. أم يقوم بحركة التفافٍ حول هذه الحقيقة إنقاذاً لسمعته كباحث بالأسلوب العلميّ، فيرضي من حوله من أتباعه وإن تسبّب ذلك في إغضاب الله في عليائه؟ أي أنّه وقع في مأزق من يرفض قطعة النّقود التي أضحت بين يديه أملاً في مبلغٍ كبيرٍ بعيد التّناول منه.

وأقول والأسف يعتصر فؤادي هو أنّ الأب حدّاد حاول الإلتفاف على هذه الحقيقة الطبيعية المألوفة، تضليلاً للنّاس، وتشويهاً للحقائق التاريخ، وساءت عاقبته، وإليكم البرهان على ماقلته وادّعيته :

ذلك أنّ الأب حدّاد هذا، قبل اعترافه بعبقريّات محمد بن عبد الله على الصفحة (١٠٦٤). أي قبل ذلك بصفَحَات، قام، وهو الرّجل المسيحيّ الدّين، الذي يُفترض فيه خشية الله خالقه، والصّدق فيما يكتب ويقول. قام بمحاولة الإلتفاف على موضوع حقيقة كون محمد عبد الله ﷺ أميّاً. محاولاً طرح هذه العَثَرة، والصخرة الرّاسية جانباً، والقيام بحركة التفافٍ من حولها ليُكمل طريقه في التّضليل. وكتب على الصفحة (١٠٥٨) وبالحرف الواحد، وتحت شعار (فهل كان محمّدٌ أميّاً؟)، مع ملاحظة أنّ كلمات هذا الشّعار الذي طرحه، يثبت منه تلقائياً أنّ كون محمّد أميّاً لايقرأ ولايكتب، سيكون عقبةً كأداء في طريق بحث الأب حدّاد نفسه.

قال : (وقد آن لنا أن نتخلّص نهائياً من الأسطورة الرّائجة والخُرافة الشّائعة عن أميّة محمّد.) فهو اعتبر هذه الحقيقة التاريخيّة والقرآنية أسطورة رائجة، وخُرافة شائعه. وأضاف يقول : (درج القوم على اسناد تلك الأميّة المزعومة إلى أساسٍ من القرآن مغلوط. حيث يُسمّى محمّداً ـ النّبي الأمّي ـ أعراف ١٥٦).

وأيّ قوم أراد الحدّاد، إلا جميع المسلمين؟ فلم يصّرح بذلك، كي يتجاوز من الناحية النفسيّة، جرح مشاعر المسلمين بصورة مباشرة، وأضاف يقول : (وقد فاتهم ـ أي فات المسلمين أجمعين ومؤرخيهم وعلماءهم ـ أنّ القرآن يأخذ هذه الصّفة هنا، لابمعناها اللغويّ، بل بمعناها الإصطلاحي الذي

أشاعه اليهود في مهاجرهم والحجاز. فكلّ ماعداهم من النّاس "أميّون" أي من "الأمم" الذّين لاكتاب منزّل لهم، فالعرب كتابيّون وأميّون :

﴿**وقل للذين أوتوا الكتاب والأميّين : أأسلمتم.**﴾. آل عمران ٢٠.

لذلك فمحمّد نبيٌّ "أميّ" أي العربي. ويشهد القرآن على سعة ثقافة محمّد واطّلاعه على سائر معارف بيئته. وأسطورة الأميّة روّجها كُتّاب (إعجاز القرآن) ليسندوا إليه معجزة الإعجاز. كأنّ الثقافة والنّبوة لاتجتمعان. وأكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا على ثقافة عالية، وسيّدهم موسى الكليم قد تثقّف قبل بعثته في قصر فرعون بكلّ ثقافة المصريّين. وكذلك محمّد فقد تثقّف بكلّ ثقافة الأرستقراطية القرشيّة، مثل ابن عمّه علي بن أبي طالب تِرْبُهُ في نشأته. والسّيرة النبويّة تشهد بأنّ محمداً قبل بعثته كان تاجراً دوليّاً مابين اليمن والشّام، وتاجراً ناجحاً، ممّا حمل السيّدة الثريّة خديجة على الزّواج منه. وقيادة تجارة كبيرة دوليّة ناجحة زمناً طويلاً تقتضي من صاحبها ثقافةً وافرة. والسّيرة تشهد أيضاً بأنّ محمّداً قبل بعثته كان حنيفاً كبيراً يستطلع أخبار الدّين والتّوحيد، ويطلبها عند أهلها في حلّه وترحاله، ويتحنّف مثل الحُنفَاء والرُّهبان، يتأمّل في الوجود درب الوجود. وليست هذه حال الأميّين، بل حال أهل الثّقافة والصّوفية. فقد كان النّبي بحّاثة دينيّاً، واسع الإطلاع شامل الإطلاع.).

لابدّ أن يعلم كلّ ضليع في لغة الضّاد، أنّه لايجوز الانتقال باللّفظ من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي أو الإصطلاحي إلاّ بتوفّر قرينة تبرّر ذلك. و لم يأت الأب حداد بأيّة قرينه هنا تنقل لفظ "الأمّي" من معنى لايقرأ ولايكتب، إلى المعنى الاصطلاحي المزعوم. أضف إلى ذلك أنّ كلّ مؤرّخ يعلم بأنّ العرب كانوا "أميّين" بمعنى لايقرؤون ولايكتبون، ولذلك اعتمدوا ذاكرة أبنائهم لحفظ تراثهم الشّعري. ومحمّدٌ ﷺ هو من هؤلاء الأميّين الذي لم يكن يقرأ ويكتب، وإلى هذا أشار قوله تعالى : ﴿ **هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم..**﴾.

على هذه الصّورة تكون قد أدركنا حركة الالتفاف التي قام بها الأب حداد، حول حقيقة كون محمد بن عبد الله أمياً لايعرف القراءة ولا الكتابة، ولا انتسب إلى أيّ معهدٍ علميّ، زاعماً : (أنّ القرآن يأخذ هذه الصّفة هنا، لابمعناها

اللّغوي، بل بمعناها الاصطلاحيّ الذي أشاعه اليهود في مهاجرهم والحجاز.. فمحمّدٌ نبيٌّ "أميّ"، أي من الأميّين العرب..).

هذه النقطة التي أثارها هذا الأب المسيحيّ الرّوحي، تؤلّف عمليّة التفافٍ ومجرّد ادّعاء، ولاينجح الإلتفاف علميّاً إلا بعد تقديم الدليل القاطع والبرهان الساطع على صحّة الإدعاء. وإلاّ باءت عمليّة الالتفاف هذه بالفشل الذّريع.

والدّليل المطلوب تقديمه هنا، هو تِبيان :

أولاً ـ أنّ كلمة أمّي تعني لُغةً عدم القراءة والكتابة.

ثانياً ـ وأنّ لكلمة أمّي اصطلاحاً لغوياً، أتى على بيانه أصحاب معاجم اللّغة.

ثالثاً ـ وتقديم قرينةٍ لُغويةٍ تنقل لفظ الأمّي في الآية القرآنية من معناه اللّغوي، إلى معناه الإصطلاحي، خصوصاً وأنّ الله الذي أنزل القرآن قال : ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون.**﴾ يوسف ٢ ـ وقد سبق أن شرحت معنى العربيّ أيضاً.

نسأل : هل تنقّل هذا الأب الروحي المسيحيّ خلال هذه الخطوات الثلاثة في بحثه العلمي، أم أنّه تجاوزها، مُفسحاً لنا مجال اتّهامه بالتّضليل، ومحاولة الالتفاف على كلمة "أمّي"، بأسلوبٍ فاشلٍ ودنيء؟

وأقول، والإمتعاض يعتصر فؤادي من هذا الأب حدّاد الذي يواجه الآن في عالم البزرخ ماقدّمت يداه. أقول : إنّه لم يلتزم بهذه الأمور الثلاث المذكورة، بل تجاوزها. وأثبت بتجاوزه فشله الذريع فيما زعمه وادعاه. وهكذا باءت عمليّة التفافه المذكورة بالفشل الذريع المُشين يقيناً. وثبت من خلال ذلك أنّه كان لايحسب لآخرته أيّ حساب. وأنّه كان جُلّ همّه أن يُخاطب بالأب حداد.

وهاقد مضى على طبع مؤلّف الأب حدّاد أكثر من نصف قرن من الزّمان، فلم يأبه له أيّ مفكّرٍ عربيّ مُحايد. حتى طلع علينا صاحب القراءة المعاصرة، ينهج نهجه، بل يُزايد عليه أيضاً. وقد كشفت عن حقيقة ماذهب إليه في الجزء الثاني الذي رددت به عليه.

أقول نهج صاحب القراءة المعاصرة نهج الأب المسيحي في دعواه، دون تقديم دليل قاطع وبُرهان ساطع. ولاندري هل أراد هذا أن يرتدي لباس الإسلام

وحسب، فيكتب ماكتب لغرضٍ في نفسه، فانتحل صفةً ليست له، وخاص غمار مُعترَكٍ لاقِبل له فيه؟

ألا وإنّ الأب حدّاد، قد أقرّ من حيث لايريد، بأنّ كلمة أمّي تعني في اللغة العربية عدم القراءة والكتاب، حين قال : (.. هذه الصّفة هنا، لابمعناها اللّغوي، بل بمعناها الإصطلاحي..) فكأنه قال بألفاظٍ أخرى : إنّ الأمّي لغةً هو الشخص الذي على فطرة أمّه لايقرأ ولايحسب على حسب ماذكر اللغويّون. ولاندري كيف نقل المعنى اللّغوي إلى المعنى الإصطلاحي بلا مبرّرٍ يبرّره؟

والمهمّ من جميع ماذكرناه، هو أنّ الذي أوصل إلينا هذا الكتاب المُنزّل وهو القرآن الكريم، كان رجلاً أميّاً لايقرأ ولايحسب، ومن أمّةٍ أميّةٍ أيضاً، اعتمدت ذاكرة أبنائها لحفظ أنسابها وأشعار أبنائها ورواياتهم، بسبب عدم انتشار القراءة والكتابة بين أبنائها. هذا الأمر الذي أضحى بديهيّةً من المُسلّمات لدى المسلمين، بدليل ماأورده المؤرخون، وماعرفه مَن عايش سُكّان شبه جزيرة العرب من الشعوب المجاورة لهم.

ومادام أصدقاء محمد بن عبد الله وأعداؤه، قد شهدوا بتعدّد عبقرياته، خلافاً لجميع من برز في تاريخ البشر من العباقرة. وأنّ عبقريات محمّد هذه لم تستند إلى خلفيّاتٍ دراسية ومُعطيات علمية، فقد دانتهم شهادتهم هذه الفريدة، فالزمتهم الإقرار بما صرّح به محمد نفسه من أنّ هذا القرآن قد كان يُوحى به إليه من قِبل خالقه، وليس هو من افترائه وإبداعه. إذ لايقبل العلم ولا العقل ولا المنطق أن يبدو محمدٌ ﷺ عبقريّاً في جميع نواحي حياته وعطاءاته، ولاتكون له خلفيّةٌ دراسيّة ومعطياتٌ علميّة قد أكسبتْهُ هذا العلم بل هذا الإدراك الواسع الذي لامثيل له في تاريخ البشر قاطبةً، فمن عَمِيَ أو تعامى عن هذه الحقيقة، لايُسمع له قول، فقد ضلّ في نظر العلماء والباحثين، عن هذه الحقيقة العلمية ذات الشُّعب والأُصول.

وبناءً على ماذكرناه نقول : لم يكن محمد بن عبد الله عبقرياً دينيّاً، ولاكان عبقرياً سياسياً، أو كان عبقرياً دبلوماسياً، وهو لم يكن عبقرياً عسكرياً أو عبقرياً إدارياً أو عبقرياً تشريعياً، أو كان عبقرياً أدبيّاً، بل كان يتيماً، أميّاً، رسول ربّ العالمين. فإذا تجلّت مظاهر هذه العبقريّات على يديه، فبتفضّلٍ من ربّه

عليه، الذي اصطفاه لرسالته، وبتعليم من ربّه الذي أنزل عليه آي الذّكر الحكيم على قلبه. ولاينتقص من ذلك كون محمّد بن عبد الله شُعلةً من الذّكاء، ناضج الرأي، بعيد الغور، كريم الخلق والشمائل، وأنّه القدوة في المروءة.

ونحن لو سلّمنا مع الأب حداد، بسعة اطّلاع محمد على معارف بيئته، وأنّه تثقّف بثقافة بيئته الأرستقراطية القرشيّة، وأنّه تاجَر مابين اليمن والشّام، وكان تاجراً ناجحاً خبيراً، وأنّه كان قبل بعثته حنيفاً متقدّماً، يستطلع أخبار الدّين والتّوحيد ويطلبها عند أهلها، في حِلّهِ وترحاله، ويتحنّف كما يتحنّف الحُنفاء والرّهبان، ويتأمّل الوجود وربّ الوجود. فجميع هذه الأمور التي ذكرها الأب حدّاد، يستحيل أن تَرْقى بيتيم أمّي إلى مُستوى يكون فيه عبقرياً دينيّاً وسياسياً ودبلوماسياً وعسكرياً وإدارياً وتشريعياً وأديباً، أهلاً لأن يأتي بمثل هذا الكتاب المسمّى لقرآن الكريم.

ولاأسوق كلامي هذا دعوى بلا دليل، فلديّ أكثر من دليل قاطع، سآتي به من القرآن نفسه، فلقد احتوى هذا القرآن العظيم على أمورٍ يستحيل أن يأتي بها محمد بن عبد الله ﷺ ولو اتّصف بجميع ماوصفه به الأب حداد وسواه من صفات، ونسب إليه من مؤهّلات.

وقبل تقديم هذه الأدلّة، لابدّ لنا من الرجّوع إلى معاجم اللغويين.

٣ ـ مامعنى "عبقريّ"؟

فما معنى عبقريّ؟ قال في الكليات كلّ جليلٍ فاخرٍ من الرّجال والنّساء وغيرهم عند العرب عبقريّ. وقال صاحب محيط المحيط : عبقر موضعٌ زعموا أنّه كثير الجنّ، ونسبوا إليه كلّ شيءٍ تعجّبوا من حذقه أو جودة صنعته وقوّته، فقالوا عبقري، والأنثى عبقرية.

وعليه فالعبقريّ في اللّغة، هو من بلغ حِذقُه وجَودة صَنعته وقوّته حدّ السّيادة والكمال. هذا وإنّ الأب حداد ومن كان على شاكلته، وقد تملكّتهم الدهشة ممّا تحقّق على أيدي محمد بن عبد الله ﷺ بعد الأربعين من عُمره، ممّا لم يتحقّق على أيديّ أيّ إنسانٍ أو نبّيٍ قبله، وضعهم هذا الواقع أمام خيارين

لاثالث لهما : إما الاعتراف بنبّوة هذا اليتيم الأمّي، وإما الذهاب بعيداً عنها بالالتفاف حولها، بدافع من تعصُّبهم المقيت وزيغ قلوبهم عن الحق.

وقد اختار هؤلاء الخَيار الثاني، وصرّح الأب حداد بما خطّت يداه، وماسبق أن نقلته للقُرّاء : أنّ محمداً كان عبقرياً على جميع الصُّعد، وأنّ هذا (النّبي العربي رجل دين ورجل دولة ورجل أدب، قلّما عرب العالم له مثيلاً.). وهو لم يقصد بأوصافه هذه التي وصف بها محمداً، أنّه يؤمن بنبوّته. بل قصد شيئاً آخر وهو أنّ محمداً كان يقرأ ويكتب ويصوغ تعاليم التوراة والإنجيل بلسانٍ عربيّ مبين، وهو نبيٌّ للعرب وحسب.

ويؤيّد قوله على الصفحة (١٠٦٩) من مؤلّفه : (يشهد القرآن العربيّ عن نفسه أنّه نسخةٌ عربيّةٌ عن التّوحيد الكتابي. فالقرآن يقول ﴿**وإنّه لفي زُبُر الأولين.**﴾ شعراء ١٩٦ - أي كُتُبهم كالتوراة والإنجيل.) وقد قصد من قوله هذا أنّ محمداً ﷺ عرض عقيدة التوحيد التوراتية بلسان عربّي، فلم يأت بشيءٍ جديد. بينما لاتفيد الآية ماذهب إليه (الحدّاد) من قريبٍ أو بعيد. بل الذي تفيده هو الأنْبَاء عن أنّ زبر الأولين كانت قد أنبأت عن نزول هذا القرآن وحسب. بدليل قوله جل شأنه بعد هذه الآية مباشرة : ﴿ **أوَلَمْ يكُن لهم آيةً أن يعلمَهُ علماء بني اسرائيل.**﴾. فالعلم في تعريفات الجرجاني : صفةٌ راسخةٌ ندرك بها الكليّات والجزئيات خلافاً للمعرفة. فأنت تقول : عرفت الله، ولاتقول علمت الله. فالعلم ضدّ الجهل. وربّما أُطلق العلم مجازاً على مجموع مسائل وأصول كليّة متعلّقة بموضوعٍ ما، مُرتّبةً على نظام مخصوص : كعلم الكلام والنحو وغيرها. فالآية الكريمة : ﴿ **أَوَلَمْ يَكنْ لهم آيةً أن يعلمه علماء بني إسرائيل.**﴾، تفيد أنّ علم علماء بني إسرائيل راسخٌ بنبوءات، كتبهم المتعلّقة بنزول القرآن الكريم، وهو دليلٌ على صدق القرآن من أنّه موحى به من الله الذي سبق أن أنزل التوراة والإنجيل.

فأين مازعمه (الحدّاد)، وأين دلالة الآية الكريمة التي استدلّ بها خطأ؟ لذلك تُعتبر خطوة الحدّاد هذه، محاولة التفاف مكشوفة حول نبوّة خاتم النبيّين ﷺ، ذلك أنّ الإنسان العبقريّ، مهما بلغ من الحذق والقوة وجودة الصنعة، سيادة وكمالاً، فإنّه يستحيل عليه أن يأتي بمثل مااحتواه القرآن الكريم من أمور. فإلى أدلّة مصداقية القرآن الكريم :

٤ ـ أدلة مصداقية القرآن الكريم

١ ـ دليل المصداقية الأول :

سبق لي أن بيّنت أن القرآن الكريم امتاز بلسانه العربيّ المبين، لكنّ هذه المزيّة اقترنت بتحدٍ عظيم يستحيل أن يتحدّاه أيّ عبقري مهما بلغ من السيادة والكمال. اقترن بتحديّ محمد بن عبد الله ﷺ الأنس والجنّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً. فهل يستسيغ عقلنا أن يتفرّد محمد ﷺ بعبقريةٍ لُغويّة يتحدّى بها البشر إلى يوم الدّين؟ ولايكون هذا التحدّي في اللّغة وحدها، بل يشمل المضمون أيضاً وفي آنٍ واحد.

أجل، لربّما يستسيغ عقلنا أن سيتحدى محمد ﷺ أهل عصره. أمّا أن يتحدى اللاّحقين بهم إلى يوم الدين أيضاً، فإنّ مثل خطوته هذه، لايمكن أن تتأتّى إلاّ ممّن اطّلع على غيب المستقبل. ولايتحدّى بمثل هذا التحدّي من قال : ﴿ **إنّما أنا بشرٌ مثلكم..**﴾. وهذا التحدّي قد ضمّ اللّغة والمضمون معاً، وهو مانصّت عليه الآية (٨٨) من سورة الإسراء : ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً. ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مَثَلٍ فأبى أكثر الناس إلاّ كفُوراً.**﴾. فقد شمل التحدّي أن يأتوا ﴿.. **بمثل هذا القرآن..**﴾ فصاحة وبلاغة ومعاني. لخُلُوّ النّص وسباقه وسياقه من أيّ قيدٍ يقصرُه على اللّغة وحدها.

والمعلوم هو أنّ القرآن الكريم بحث المعتقدات وأسماء الله الحُسنى وتجليّاتها والعبادات والأخلاق والمعاملات وفلسفاتها جميعاً. كما تطرّق إلى بحث القوانين المدنية والاقتصادية والسياسية وماوراء الطبيعة والحياة الآخرة وماشابه ذلك من معارف وعلوم. وقد شرحها القرآن جميعها شرحاً مستفيضاً، وجاء منها بما يصلح لكلّ زمان ومكان. مع بيان الفوائد المرجوة منها. فمن أراد التّصدي للتحدّي القرآني، وجب عليه الجميع بين فصاحة اللّغة وبلاغتها، وتقصّي العلم وكمال المعرفة.

فكيف استساغ عقل الحداد ومن على شاكلته، والحال هذه، أن ينتحلوا لمحمّد اليتيم الأمّي صفة العبقريّ، وهم يعلمون أنّ العبقري هو من كان حاذقاً في

صنعته، مجيداً لها إلى حدّ الكمال. وقد عاش محمد بن عبد الله ﷺ لايعرف القراءة والكتابة، و لم تكن تعاليم التّوراة والإنجيل صالحة لكل زمان ومكان، حتى يصوغها صياغةً عربيّةً ويعرضها بمثل هذا الحذق؟ إلاّ أن يكون الأب حدّاد ومن على شاكلته قد حاول بهذا الوصف الذي وصف به محمداً ﷺ، أن يقوم بمحاولة التفافٍ حول معجزة القرآن نفسها، قاصداً إجهاضها أيضاً.؟

ومن المؤسف أن تعمى أبصار هؤلاء الأعداء عن كلمة (قل) التي استُهلّت بها آية التّحدي التي أوردناها. فكلمة (قل) استُعملت هنا بمعنى تلفّظْ. أي أنّ (قل) نبّهت أذهاننا إلى أنّ مايتلّفظه محمد رسول الله ﷺ، ليس من إبداعه وصياغته، على حسب ماوضّح ذلك صاحب معجم محيط المحيط. أي أنّ التحدّي الذي تضمّنته آية سورة الإسراء، لم ينسب إلى محمّدٍ نفسه، بل نُسب إلى سواه. وهل ينسبُ عبقريٌّ مأأنجبته عبقريّته إلى سواه؟ وماجدواه من مثل هذه الخطوة، إلاّ أن يحصد نقمة الله ونقمة العباد؟ وهل تتفّق مثل هذه الخطوة، وحذقَ الإنسان لصنعته؟

وعليه، فما دامت مزيّة القرآن الكريم أنّه مصوغٌ بلسان عربي مبين. ومادامت هذه المزيّة قد قُرنت بهذا التحدّي : اللّغة إلى المضمون، فذلك في حدّ ذاته دليلٌ قاطعٌ على أنّ القرآن الكريم لم يكن من افتراء محمد ﷺ نفسه، بل كان تنزيلاً من ربّ العالمين، الذي بعث محمداً رسول الله داعياً بإذنه وسراجاً منيراً. وليس القرآن الكريم دليل عبقريّة هذا الرّسول العظيم.

٢ ـ دليل المصداقية الثاني :

وسبق أن بيّنت أنّ القرآن الكريم امتاز بكونه وصل إلينا سالماً من كلّ تحريفٍ وتبديل. فلو فرضنا والعياذ بالله أنّه من اختلاق محمد ﷺ نفسه، وهو العبقريّ لوقعنا في تناقُضٍ رهيب. فأنّى لعبقريّ اختلق كتاباً مثل القرآن الكريم وتحدّى به الإنس والجّان، أنّى له أن يقول بلسان ربّه : ﴿ **إنّ علينا جمعه وقرآنه..**﴾ ثم يترك هذا الكتاب مُوزّعاً على رقاعٍ من صحف النّخيل ورقيق الحجارة؟ فكيف يكون عبقريّاً، ويترك هذه الثّلمة في أمر جمع الرّقاع في كتابٍ

منسوخ عنها؟ هذا الأمر الذي أنجزه عثمان بن عفان؟ خصوصاً وأنّه واثَقَ أصحابه على ألاّ يقدموا على أمر لم يفعله رسولهم الكريم؟

أَوَلَمْ يخطر على بال هذا "العبقري" إمكان أن يضيع القرآن من بعده، إذا هو أهمل القيام بجمعه وقرآنه؟

أقول : مادام هذا الرسول العظيم قد ترك رقاع القرآن الكريم دون استنساخ لها رضوخاً لقول ربّه ﴿**وماعلى الرسول إلاّ البلاغ**﴾ وقول ربّه أيضاً : ﴿**إنّ علينا جمعه وقرآنه..**﴾ إنّ خطوة محمّد ﷺ هذه فيها كلّ الدّلاله القاطعة على أنّه ﷺ لم يختلق القرآن و لم يبتدعه من عند نفسه، بل كان يتلقّاه عن طريق وحي ربه عز وجل، وأنه ﷺ كان من اليقين بوحي ربّه بحيث قعد عن استنساخ القرآن الكريم على شكل كتابٍ، يستنسخ عنه جميع المسلمين. ويُعدُّ موقفه ﷺ هذا في حدّ ذاته دليلاً قاطعاً على أنّ القرآن لم تبتدعه عبقريّة محمد بن عبد الله إطلاقاً.

٣ ـ دليل المصداقية الثالث :

ثم تعالوا إلى هذا القرآن الكريم الذي طلع به علينا محمد اليتيم الأمّي، فإذا كانت جميع بحوثه ومضامينه لاتتجاوز علوم ومعارف عصره ﷺ، فلابدّ لعلوم عصرنا، وقد تقدّمت تقدُّماً ملحوظاً، أن تُناقض وأن تخالف معطياتها، مُعطيات القرآن، فيبدو هذا القرآن باهتاً، لاحياة فيه. ويميل إنسان عصرنا حينئذٍ إلى اعتقاد أنّ القرآن قد يكون من نسج محمد ﷺ نفسه.

ونحن لوعُدنا إلى سنوات عصر النّبوة المحمديّة، أي إلى ماقبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وسألْنا ورقة بن نوفل الذي ترجم بعض صحف الكتاب المقدّس المؤلّف من التوراة والإنجيل. كما سألنا بُحيرا الرّاهب الذي يزعمون أنّ محمّداً استقى منه كثيراً من علوم القرآن الكريم. أقول: لو أننا عُدنا فسألناهما سؤالاً مُحدّداً، وهو بيان ماذكَرَته التوراة حول خلق هذا العالم؟

فسيتناول أحدهُما أو كلاهما أوّل سفرٍ من التّوراة، وهو سفر التكّوين، ليَجدا فيه، ومن أوّله الجواب، فيتلوانه بكل وقارٍ وجلال لتقديسهما إيّاه، ليجدا فيه : (في البِدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربةً وخاليةً،

وعلى وجه الغَمْر ظُلمةٌ، وروح الله يرفّ على وجه الماء. وقال الله ليكن نورٌ فكان نور. ورآى الله النّور أنّه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظّلمة دعاها ليلاً. وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً واحداً.).

وهُنا يتذكّر كل واحدٍ من النّاس أنّ ألفاظ هذا النصّ التوراتي قد أتت في الكتاب المقدّس المطبوع في عصرنا. هذا النّص الذي يُغاير ماكشف عنه العلم، بل وسخر منه العلماء المعاصرون، بما حققّوه من اكتشافاتٍ معاصرة. فلا يُفيدنا هذا النّص التوراتي في شيءٍ عن كيفيّة خلق الله لهذا العالم الذي نعيش في ظلاله، إذ ورد هذا النصّ مُجملاً ومغايراً للعلم أيضاً.

ويستوقفنا قوله : ﴿ **وروح الله يرفّ على وجه الماء..**﴾، فقد فصل هذا النّص بين ذات الله وروحه بلا مبرّر. كما يُذكّرنا هذا النص بما أورده بعض المفسّرين عند تفسيرهم لقوله تعالى : (كُن فيكون). فما فسّروه بسذاجة، كانت أوحت لهم به التوراة إذن. فهذا النصّ يقول : (وقال الله ليكُن نورٌ فكان نور). فمن جهةٍ كانت (روح الله ترفّ على وجه الماء). ومن جهة أخرى أبرز النصّ التّوراتي الله بذاته وروحه فجأة، ودون مقدّمات ليقول : (ليكن نورٌ فكان نور.).

فالإله التّوراتي تلفّظ من جهته بأمر، فتحقّق هذا الأمر مرّةً واحدة ودون توسّط قوانين ناظمة، وفي غفلةٍ من ملائكة الله، ودون خلق شمس يصدُر عنها هذا النّور : (وفصل الله بين النّور والظُّلمة) أي أنّ النور الذي وُجد بأمره، اختلط بالظُّلمة التي كانت (على وجه الغَمر)، فعمد الإله التّوراتي إلى الفصل بين النّور والظّلمة هاتين. أمّا كيف قام بعمليّة الفصل هذه بين النّور والظّلمة، فلا شأن ـ كما يبدو ـ للتوراة ببيان ذلك من قريب أو بعيد. (ودعا الله النّور نهاراً، والظُّلمة دعاها ليلاً).

فنور النّهار اليوم إذاً ليس هو من عطاء ضوء الشّمس التي نشاهدها في كبد السّماء. هذا النّور الذي يطلع مع طلوعها ويغرب مع غروبها، بل إن هذا النّور على حدّ زعم سفر التكوين، هو كما أورده لنا حرفيّاً، هو النّور الذي صدر عن أمر الإله التّوراتي وهذا يُناقض ماأثبته العلم.

ونستزيد الرّاهب بحيرا وورقة بن نوفل علماً عن خلق العالم. فلا يحيران جواباً، بل يميلان لتكفيرنا أيضاً، إن نحن ناقشناهما فيما أسمعانا إيّاه من سفر التكوين.

فإذا كان محمد بن عبد الله اليتيم الأمّي قد صاحب الرُّهبان قبل بعثته، فأنّى لهؤلاء الرُّهبان أن يزيدوه علماً عمّا ذكرناه؟ وحتىَ إذا سألنا رأس الكنيسة (البابا) اليوم في روما، فأنّى لهذا البابا أن يزيد على هذا النّص التوراتي شيئاً من عنده؟

فإذا قام محمد ﷺ اليتيم الأمّي يصوغ القرآن من عند نفسه، في ذاك التاريخ، على أساس ماسمعه من بحيرا ونوفل وغيرهما، فلن يزيد النّاس علماً، فوق ماأتت به التّوراة، ممّا ذكرناه.

وَهَبْ أننّا كُنّا في أزقّة مكّة، نسمع من يتلو بعضاً من آيات سورة الأنبياء التي نزلت في مكّة (٣٠ ـ ٣١) : ﴿**أوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً، ففتقناهما، وجعلنا من الماء كُلّ شيء حيّ، أفلا يؤمنون وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم، وجعلنا فيها فجاجاً سُبُلاً لعلّهم يهتدون. وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها مُعرضون.**﴾. ورحنا نتدبّر ألفاظ هذه الآيات الكريمة، فبدا لنا أنّ الفَتْق ضدّ الرّتق، أيّ أنّ السماوات والأرض لم تُخلق على ماهي عليه الآن، بل كانت كُتلةً واحدةً ماديّة. و لم تذكُر الآيات جميعها وزنها أو شكل كُتلتها. فتكون هذه الآيات قد زادتنا معلومة جديدةً هامة لم يأت بها النّص التوراتي المذكور فنتساءل بالبداهة : من أين استقى محمد اليتيم الأمّي هذه المعلومة العلمية الهامّة التي تتفق مع نظرية الانفجار العظيم؟

ونلاحظ أيضاً قوله: ﴿**وجعلنا من الماء كلّ شيء حي**﴾ وهذه معلومة أخرى لانجد لها أصلاً في التّوراة. ثم إنّ الدّواب التي تدبّ على وجه الأرض وتحت الماء، لايبدو لنا من ظاهرها المادّي أنّها من أصلٍ مائي، بل من أصل ماتأكله من النباتات واللّحوم.

فما هي حقيقة هذه المعلومة الثانية التي نصّت عليها هذه الآيات ﴿**وجعلنا من الماء كلّ شيء حي، أفلا يؤمنون.**﴾. وهذه المعلومة الثانية ـ كما

يبدو من ألفاظ الآية ـ قد كشف عنها قائلها، ليجذب النّاس للإيمان، فهذا مادلّ عليه قوله (أفلا يؤمنون؟).

ونلاحظ من خلال تدبُّرنا لهذه الآيات معلومة ثالثة يفيدها قوله : ﴿**وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم..**﴾.

أي أنّ الأرض كان مُنبسطةً قبل ظهور الجبال الرّواسي فوقها، والتي كان المقصود من إحداثها، منع الأرض أن تميد بالنّاس، أي التّخفيف من تعرُّضها للزلزال نتيجة ثوران الكتلة اللاّهبة الكبيرة في بطن الأرض.

والمعلومة الرابعة التي نلاحظها من خلال تدبّرنا قوله : ﴿**وجعلنا فيها فجاجاً سُبُلاً لعلّهم يهتدون.**﴾ هو أنّ توزيع الجبال الرّاسيات، وتقسيم الأرض إلى قارات وإلى مشارق ومغارب، وترك فجاجٍ وأوديةٍ وممّرات جبليةٍ بينها ليفسح المجال للنّاس للتنقُّل بينها من مكان إلى آخر ومن أقطارٍ إلى أخرى، كانت نابعةً من مشيئة الله وإرادته وتخطيطه شأناً في ذلك كلّه.

والمعلومة الخامسة التي نلاحظها من خلال تدبُّرنا قوله : ﴿**وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها مُعرضون.**﴾ هي معلومة جديدة وهامّةٌ جدّاً. فالذي خلق هذه الكرة الأرضية جعل من حولها سقفاً محفوظاً من قبله لتأدية مُهمّةٍ مُحدّدة. كما يُعتبر هذا السّقف المحفوظ في حدّ ذاته آيةً ودليلاً على عظمة من أنشأه. وأنّ النّاس في غفلةٍ يومئذٍ عن عظمة وشأن وتبيُّن هذا السّقف المحفوظ. وها أن علماء عصرنا قد اكتشفوا وجود هذا السقف المحفوظ، وهو طبقة الأوزون التي تصون سكان الأرض من خطر أشعّة الشّمس فوق البنفسجيّة. وهو السّقف الذي أشار إليه حديث رسول الله ﷺ والوارد في تفسير ابن كثير تحت هذه الآية بالذات وهو قوله : (موجٌ يكُفَكَفُ عنكم).

فهذه المعلومات القيّمة أفادتنا بها هذه الآيات من سورة الأنبياء، والتي استمعنا إليها تُتلى في أزقّة مكّة المُكرّمة على ألسنة أُناسٍ ملأ قلوبهم الإيمانُ بكون هذه الآيات وحي الله وليس من افتراء محمد اليتيم الأمّي ﷺ، وقد شعّ الهُدى من أعين هؤلاء وبَرَق، وكأنّه مصابيح تُنير الطّريق. فمن أين استقى محمد اليتيم الأمّي هذه المعلومات ياأصحاب العقول إن كُنتم من المُتفكّرين؟

وإذا عُدنا إلى الرّاهب بُحيرا، نستوضحه أمر هذه المعلومات، فلن يجد لها أساساً في التوراة التي بين يديه، فإذا قرأ على مسامعنا الاصحاح الأوّل من سفر التكوين بأكمله، لم نلحظ فيه شيئاً ممّا سمعناه من آيات هذا القرآن وعلمناه في أزقّة مكّة.

ثم إذا عمد الرّاهب بحيرا إلى الاصحاح الثاني، يقرأ لنا ماجاء فيه، لتلا علينا : (فأُكْمِلَتِ السّماوات والأرض وكُلّ جُندها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عَمِل. فاستراح في اليوم السّابع من جميع عمله الذي عَمِل. وبارك الله اليوم السّابع وقدّسه. لأنّه فيه استراح من جميع عمله الذي عَمِلَ الله خالقاً. هذه مبادىء السّماوات والأرض حين خُلِقَتْ. يوم عَمِلَ الرّب الإله الأرض والسماوات، كُلُّ شجر البريّة لم يكن بعد في الأرض، وكلّ عُشب البريّة لم يُنبت بعد..).

ونكتفي هنا بما تلاه وماطّلعنا عليه ممّا أوردته التوراة عن خلق العالم. ويُراودنا في ذلك سؤالٌ هامٌ، هو : مادام قد جاء في التّوراة : (قال الله ليكُن نورٌ فكان نور) أي أنّ الله لايحتاج إلى بذل جهدٍ من نوعٍ ما، لإيجاد أو خلق شيءٍ من الأشياء، حتى ولا إلى مساعدة ملائكته، ولا إلى أيّ شيءٍ آخر، فكيف تنصُّ التوراة نفسها فتقول : (فاستراح في اليوم السّابع) وبين القولين تناقضٌ رهيب؟

فإذا عُدنا من فورنا إلى أزقّة مكّة، نُنصت إلى مايُتلى فيها من آياتٍ قرآنية، سمعنا من يتلو علينا آيةً من سورة ق (٣٨)، فنعلم أنّ (ق) مختزلةٌ من قادر، ثم نستمع إلى قوله تعالى ﴿**ولقد خلقنا السّماوات والأرض ومابينهما في ستّة أيّام ومامسّنا من لُغوب فاصبر على مايقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشّمس وقبل الغروب ۞ ومن اللّيل فسبّحه وأدبار الغروب.**﴾. وإذا تبيّنا معنى كلمة (لُغوب) وجدنا أنّ لغَبَ الرّجل لُغوباً، بمعنى تَعب وأعيا أشدّ الإعياء. فادهشنا أن ينفي القرآن الكريم ماأوردته التّوراة من أنّ الله استراح في اليوم السّابع. فكيف خالف محمد اليتيم الأمّي مااستقاه من توراة على يد الرّاهب بحيرا وسواه، إذا كان قد افترى هذا القرآن الكريم؟ أوليس المعقول أن يكون التّنزيل العزيز، قد جاء يصحّح ماعبثت به الأيدي في نُصوص التوراة؟

وهنا نتمنّى على الله أن يُصلح المُسلمين، فكيف قصرّوا في تدبّر القرآن، وتركوا لمسيحيّي أوربة وأمريكة أن تزدهر على أيديهم مختلف العلوم؟

ولْنَقُم برحلةٍ إلى بلاد الغرب، نستطلع ماتوصّل إليه علماؤهم من معلومات في زماننا، خلافاً لتعاليم التوراة التي هي لاتزال بين أيديهم، والتّي يدّعون أنّها كانت هي نفسها بين أيدي ورقة بن نوفل والرّاهب بحيرا وسواه، في عصر نبوّة محمّد وأيّام ظهور دعوة الإسلام، فماذا نجد؟ نجد أنّ العالم الفيزيائي جورج غاموف طَلَع عليهم بنظريّة الانفجار العظيم، فوضّح لهم عن طريق الفيزياء النووية أنّ الكون بأجمعه كان قد نشأ عن تمدُّد مادّةٍ أوليّةٍ مضغوطةٍ، حدث لها ماسمّاه بالانفجار العظيم. وأنّ عالمنا هذا قد تولّد في أعقاب تمدُّدٍ هائلٍ في المادّة، منذ حُقبة تُراوح بين (١٢ ـ ٢٠) مليار عام. وأنّ مادّة هذا الكون كانت مُخبّأةً آنذاك في مساحةٍ أصغر كثيراً، من الحيّز الذي يُشغله بروتون واحد. وأنّ كثافة مادة العالم كانت في تلك المرحلة تهول الخيال. فتمدّدت تلك المادّة بالانفجار العظيم الذي حدث لها. وقد ثبت لدى بعض العلماء ومن خلال رصدهم الكواكب والسّيارات أنّها لاتزال تتمدّد. فتتباعد النجوم بعضها عن بعض بما لايتصوّره خيال الإنسان. فيدهشنا هنا أن نسمع تفسيراً علميّاً مُعاصراً، لِما سمعناه من آي القرآن في أزقّة مكة : ﴿ **أوَلَم يَرَ الذين كفروا أنّ السّماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما..**﴾. فما الانفجار العظيم إلاّ عمليّة فتق لمادة السّماوات والأرض التي كان الله تعالى قد خلقها مضغوطةً هذا الضّغط الذّي يفوق الخيال. أمّا كيف جعلها تنفجر، فتتكوّن منها السماوات والأرض؟ فهذه أسئلة، جاء في القرآن الكريم بشأنها قوله تعالى في سورة الكهف (٥١) : ﴿**ماأشهدتهم خَلْقَ السماوات والأرض ولاخَلْقَ أنفسهم، وماكُنت مُتّخِذَ المُضلّين عَضُداً.**﴾.

وقد تبيّن لنا أن العلماء في أوربة اكتشفوا غلافاً غازياً يُحيط بالأرض غير سميك. وهو يتألّف من ذرّات غاز الأوزون.

وأنّ هذه الطبقة الغازية المُحيطة بالأرض، تحمي سُكّانها من أشّعة الشمس فوق البنفسجيّة، هذه الأشعّة المؤذية لأنسجة أجسامهم. ولم يستطع أي عالم من هؤلاء حتى الآن أن يهتديَ إلى طريقة تكوّن هذه الطبّقة الأوزونيّة حول جوّ الأرض، وأصلها ومنشئها. ولا لاحظوا وجود مثلها حول جوّ أي من أجواء الكواكب الأخرى التي اكتشفوا وجودها. وقد أضحى وجود هذا الغلاف

الأوزونيّ آيةً كونيّةً مدهشةً لعقولهم، ولِما توصّلوا إليه من علوم. ووجدنا فيما قرأناه في أوربة تفسيراً لِما كان يُتلى من آي القرآن الكريم في أزقّة مكّة المكرّمة، وهو قوله تعالى :

﴿**وجعلنا سقفاً محفوظاً، وهم عن آياتها مُعرضون.**﴾. فانظر ياقارئي العزيز إلى الذين كفروا بهذا القرآن وزعموا أنّه من افتراء محمد اليتيم الأمّي، كيف أيّدت كشوفهم العلمية ماأتى به محمد رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، ممّا لاأساس له في جميع صُحُفهم المقدّسة وغير المقدسة ماضياً وحاضراً، والتي كان يتداولها الرّاهب بحيرا وأمثاله من الرُّهبان.

فهاهم أولاء الذين كفروا يَرَوْن نفس مابيّنه القرآن المُبين، ومع ذلك يزعم هؤلاء أنّ عبقريّة محمّد الدينيّة قد افترت هذا القرآن وأبدعته. وهل يصحّ في اللّغة أن يُسمّي من أوتي مثل هذه المعارف قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، أن يُسمّى "عبقريّاً".

والعبقرية تعجز عن أن تتنبّأ، فتصدق نُبوءاتها، كما تصدق نبوءات الرسّالة السماوية. وهي تعجز عن أن تفسّر كلّ ماضمنّه الرّسالة من معارف. وإذا لم تؤدّ العبقرية ماأدّته الرسالة، فقد بطلت تسميتّه محمّد ﷺ بالعبقريّ، و لم يبق إلاّ أن يكون الرّسول المُوحى إليه.

ولنُعد إلى ماأوردته الآية (٥٣) من سورة السّجدة، قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند غير الله، ثم كفرتم به، من أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد. سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ، وأولَمْ يكفِ بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد.**﴾. فالخطاب هنا في هذه الآية الكريم موجّهٌ إلى الذّين يكذّبون برسالةً محمد اليتيم الأمي وبنبّوته وبرسالته، وزعموا أنّ القرآن الكريم الذي طلع به محمد ﷺ على العالم، افتراءً من عند نفسه، وسرقةً من تعاليم التوراة والإنجيل، وليس من عند الله عزوجلّ.

والخطاب في هذه الآية الكريمة ينبيء أيضاً عن أنّ التطورّ العلميّ الذي سيبلغُه علم هؤلاء المكذبين، سيكشف لهم عن صدق آيات القرآن المبين، وإعجاز قوله تعالى وصُنعه في الآفاق وفي أنفسهم يوماً بعد يوم، وسنةً بعد سنة،

حتى يتبيّن لهم أنّه الحقّ. ليثبت لهم أيضاً أن الله جل شأنه على كل شيءٍ شهيد. صدق الله العظيم.

فهذا هو دليلنا القاطع من آي القرآن المبين نفسه، نردّ على الذين يسألوننا أوليس القرآن من افتراء محمد ﷺ نفسه.

٤ً ـ دليل المصداقية الرّابع :

ومادامت التوراة المُتداولة في عصرنا، هي نفسها التي كان يتداولها الرّاهب بحيرا وسواه من قبل، فلا حاجة بنا إلى أكثر من أن نتصفّح ماأتت به هذه التوراة عن قصّة آدم التي تحدثّ عنها القرآن الكريم، ثمّ نحكم بعد ذلك : هل صاغ محمّد اليتيم الأمّي ماحتوته التوراة حول موضوع آدم بلسانٍ عربيّ مبين؟

ففي السّفر الأول التكوين، الإصحاح الثاني ورد : (وجبلَ الرّب الإله آدم تُراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حيّة. وغرس الإله جنّةً في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الربّ الإله من الأرض كلّ شجرةٍ شهيّةٍ للنّظر وجيّدةٍ للأكل. وشجرةَ الحياة في وسط الجنّة وشجرةَ معرفة الخير والشرّ.. وأخذ الرّب الإله آدم ووضعه في جنّة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الربّ الإله آدم قائلاً : من جميع شجر الجنّة تأكل أكلاً.. وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها. لأنّك يوم تأكل منها موتاً تموت. وقال الرّب الإله ليس جيّداً أن يكون آدم وحده. فأصنع له مُعيناً نظيره.. فأوقع الرّب الإله سُباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدةً من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً. وبنى الرّب الإله الضّلع التي أخذها من آدم امرأةً واحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي.. وكانا كلاهما عُريانين آدم وامرأته وهما يخجلان.).

ولابدّ أن تأخذنا الدّهشة ممزوجةً بالأسى حين نرى ماستُهلت به التوراة المعاصرة من التناقضات. فكيف يُقال إنّ الله جبل آدم تُراباً من الأرض؟ فهل كان إله التّوراة فنّاناً نحّاتاً، يجبل التراب طيناً، وينحت من الطّين كهيئة إنسان، ثم ينفخ فيه نسمة حياة؟ وإذا كان الإله قد نحت آدم فجعله أبيض اللّون، فمن نحت

العرق الأصفر والأحمر والأسود من البشر؟ فهل يستسيغ العلم أن تأتي هذه العُروق المُختلفة من عرق أبيض بذاته؟

ثم هل من المنطّق أن يخلق الله آدم قبل أن يُهيّىء له مسكناً يؤويه، ومزرعة يأكل منها؟ فالنصّ التّوراتي يعكس هذه المعادلة : جَبَلَ آدم ثم غرس له جنّة. وأين قُدرة الله التي تجلّت من خلال قوله (ليكُن نورٌ فكان نور.)؟ فلِمَ لم يقل هنا "ليكن آدم ومزرعته، فيكون آدم ومزرعته، دون كدّ من الإله التّوراتي أو عناء؟

وأغرب من هذا وذاك أن يزرع إله التّوراة شجرة معرفة الخير والشّر، وينهي آدم وحواء عن الاقتراب منها والأكل من ثمرها، ثم يمضي فيهدّدهما بقوله : (لأنّك - ياآدم - يوم تأكل منها موتاً تموت).

ولايأبه آدم لوصية ربّه، ولاحوّاء ويأكلان من هذه الشّجرة، فيتبيّن لهما أنّهما عريانان كما خلقهما ربّهما (فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر.) هذا هو ماروته التوراة. بل أضافت التوراة أنّه بعد زوال العمليّة الإلهيّة المزعومة، عاد الرّب الإله فصنع لآدم وامرأته (أقمصةً من جلدٍ وألبسهما) ٣/٢٠. فهل كان إله التّوراة مَعْنيّاً بأن يظلّ آدم وحوّاء عريانين أصلاً، فمنعهما من أن يأكُلا من ثمر شجرة معرفة الخير والشرّ؟ ولو إلى حين.

والتّوراة هذه تصوّر لنا الإله الرب عاجزاً عن خلق حوّاء، حتّى اضطر لتخدير آدم، واستئصال أحد أضلاعه، ولاندري كيف صاغ حوّاء من هذا الضّلع الذي لايزيد عن سنتيمترات؟ فهل يستسيغ عقلنا وعلمُنا أن تُصنع حوّاء من ضلع آدم، وأضلاع آدم تُرى كاملةً على مرّ العصور؟

ونحن إذ نكتفي بما كشفنا عنه من قصّة آدم وحوّاء التوراتيّة، وعن مجموعة التناقضات التي انطوت عليها هذه القصّة بل الأسطورة، التي لاترقى إلى منطق أو علم. هذه القصّة التي زعم الأب حداد ومن على شاكلته أنّ عبقريّة محمدٍ اليتيم الأميّ الدينيّة صاغتها في القرآن المبين بلسان عربيّ مبين.

ونحن إذ نكتفي بما أوردناه منها، ننتقل إلى آيات القرآن الكريم نتدبّرها وننظر : هل ثمّة وجهٌ لما يزعمون، أم أنهمّ يهرفون بما لايعرفون؟

ولنبدأ بالآية (٣٣) من سورة آل عمران. قال تعالى : ﴿ **إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين.**﴾ فمنطوق هذه

الآية الكريمة يُناقض القصّة التّوراتية التي تُصوّر آدم أنّه أوّل مخلوق من بني البشـر. ذلك أنّ فعل اصطفى واستصفى إصفاءً واستصفاء ، معناه أخذه صفوةً واختاره، على حسب ماأورد صاحب معجم محيط المحيط. ثم إنّ هذه الآية لاتفرّق بين آدم وبين نوحٍ وآل ابراهيم وآل عمران من حيث اصطفاء الله تعـالى هـؤلاء جميعهـم أي أنّ القرآن المبين يعتبر آدم نبيّاً من أنبياء الله الكرام، وليس أوّل إنسانٍ مخلوق. بل ويعتبره أوّل نبيٍ من حيث ترتيب ذكره في الآية القرآنية.

فشتّان مابين ماأوردته التّوراة عن آدم، وبين مابيّنه القرآن الكريم؟ فهذه أوّل معلومةٍ أساسيّةٍ يختلف القرآن بها عن بيان التوراة.

ونأتي إلى الآية (٣٠) من سورة البقرة : ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة ، قالوا أتجعلُ فيهـا مـن يُفسـد فيهـا ويسـفك الدّمـاء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك، قال إنّي أعلم مالا تعلمون.**﴾.

وقد استعمل القـرآن في هـذه الآيـة لفـظ (خليفـة). ولايكـون الإنسـان خليفة إلاّ إذا وُجد بين الذين يُستخلف فيهم، أي كان هناك بشرٌ واستخلف آدم من بينهم. ثم إنّ قوله : ﴿**إنّي جاعل**﴾ لايفيد خلـق آدم مـن حيـث دلالتـه، بـل جعله خليفةً على البشر الذّين اصطفاه الله منهم. وهكذا تكون الآية قد أتـت بمـا يغاير ماأفادته التوراة من معلومات.

أضف إلى ذلك أن هذه المعلومة القرآنية اقترن بها ذكر الملائكـة للدلالـة على وجود المملكة السّماوية، على حين لم تأت القصّـة التوراتيّـة علـى أيّ ذكـر لملائكة الله عز وجلّ. وكأن الله خلق آدم بمعزلٍ عن علم ملائكته.

والأمر اللاّفت لنظرنا، هو أنّ القرآن الكريم لم يـأت علـى ذكـر كلمـة حـوّاء في جميـع آياتـه، وكـلّ مـاأورده هـو : ﴿ **يـاآدم اسـكن أ نـت وزوجـك الجنّة..**﴾ دون الكلام عن خلق زوجة آدم أو اصطفاء الله إيّاها من بـين النّسـاء. الأمر الذي يعني أنّ المقصود هو أمر الله تعـالى إيّـاه أن يتّخـذ مسـكناً، وأن يبـدأ تأسيس نظام أسرويّ. أي أنّ البشر قبل آدم، ماكانوا يعلمون عن هذين الأمريـن شيئاً. والأغلب أنهم كانوا يقطنون الكهوف قبل بعثة آدم عليه السّلام.

ونحن إذ تدبّرنا هذا القرآن، وأدركنا أنّه اعتبر آدم أوّل نـبيٍ، وليس أوّل بشر. كما أدركنا أنّه أتى بمعالم نظامٍ له معالمه وحدوده.

نتوقّف عن الاستمرار في بحثنا هذا، وتكفينا هذه الفروق الجوهريّة التي تبيّناها، هذه الفروق الجذريّة التي يخالف بها القرآن الكريم هذه التّوراة المعاصرة، والتي كانت بين يديّ الرّاهب بحيرا وسواه زمن بعثة محمد رسول الله ﷺ.

ونكون بذلك قد أثبتنا أنّ محمّداً لم يعمد إلى المعلومات التوراتية فيصيغها بلسان عربي مبين، على حسب مازعم الأب حدّاد وسواه من القساوسة المُتعصبيّن، بل أتى محمد اليتيم الأمّي بما لم يأت به الأوّلون، وبوحي من الله ربّ العالمين، الله الذي سبق أن بعث آدم وأنزل عليه هذه التّعاليم التي تطابق المُعطيات العلمية التي كشفت عنها آثار تاريخ البشر الحضاريّ في هذه المنطقة من العالم بالذات.

٥ً ـ دليل المصداقية الخامس :

ولنتناول موضوع الذّات الإلهية وصفاتها، على حسب ماتناولته التوراة. ولنقتطف بعضاً من نصوصها بهذا الخصوص. فقد ورد في سفر التكوين ١/٢:

(قال : الله ليكن نورٌ فكان نور.). كما ورد : (وقال الله لتجتمع المياه تحت السّماء إلى مكان واحدٍ لتظهر اليابسة، وكان كذلك.) ١/٩ وقال (وقال الله لتُنبت الأرض عُشباً وبقلاً يبذر بذراً وشجراً ذا ثمر، يعمل ثمراً كجنسه، بذره فيه على الأرض، وكان كذلك.). ١/١١.

يُستفاد من هذه المقتطفات الأمور التّالية:

أولاً ـ أنّ لله قُدرةً سحريّةً فوق تصور الخيال.

ثانياً ـ أنّ ماأقدم الله على فعله، يُنافي ماكشف عنه العلم المعاصر، من أنّ هذا الكون لم يُخلق و لم يتبلور على شكله الحالي، إلاّ بعد مرور مليارات الأعوام.

ثالثاً ـ وأن خلق الله لجميع الأشياء لايحتاج منه إلى جهدٍ وقوانين.

وتبدأ التناقضات التّوراتية من خلال هذه المقتطفات، وماتلاها. إذ جاء في التّوراة بعد ذلك : (وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا.. فخلق الله الإنسان على صورته.. ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله، وقال لهم، أثمروا وأكثروا واملؤوا الأرض وأخضعوها.) تكوين ١/٢٦ (فأكملت السّماوات

والأرض وكلُّ جُندها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السّابع من جميع عمله الذي عمل.) تكوين ٢/١/٣.

ويُستفاد من هذه النّصوص الأمور التالية:

أولاً ـ أنّ الله يستعمل قدرته السّحرية تارة، ويجهد نفسه تارة أخرى.

ثانياً ـ وأنّ الله قد يجهد نفسه في عمله، ويتجنّب قدرته السّحرية، فيحتاج بعدها للرّاحة.

ثالثاً ـ وأنّ صورة الإنسان شبيهة بصورة الله خالقه، مع اختلافهما في القُوى.

ونلاحظ كيف تصوّر لنا التوراة الله مُتخلّياً عن قدرته السحرية، ويعمل بيديه: (وجبل الرّب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمةَ حياة، فصار آدم نفساً حيّة..) تكوين ٢/٧.

وهذا النصّ يستفاد منه أنّ الله في التّوراة "فنّان" قد حذَقَ النّحت، كما يحذقه الفنّانون. ويزيد عليهم قدرته على نفخ نسمةِ حياةٍ في أنف ماينحته من طين.

وقد ورد في التوراة قبل قليل : (فخلق الله الإنسان على صورته.. فأكملت السّماوات والأرض وكلّ جُندها. وفرغ الله في اليوم السّابع من عمله الذي عمل. فاستراح..). فعمد النّص الجديد إلى الدّخول في تفاصيل خلق الإنسان، فهل حدث هذا قبل اكتمال خلق السّماوات والأرض، واستراحة الله من عمله، أم أنّ عمليّة خلق آدم حدثت بعد فترة راحة الله واستجمامه؟ فالأمر هنا مُهم ومُتداخل.

المهمّ هو أنّ التوراة قد صوّرت للقارىء أنّ الله خلق الإنسان على شبهه. وآدم هو إنسان، فهو على شَبَه الله إذاً. فلم يقل الله ليكن آدم وحوّاء، بل نحت آدم وعمل من ضلعه حوّاء (وأنبت الرّب الإله من الأرض كلّ شجرة شهيّة للنّظر وجيّدةٍ للأكل. كما أنبت شجرة الحياة في وسط الجنّة وأنبت شجرة معرفة الخير والشرّ.) تكوين ٢/٩ ويتساءل أحدنا بعد أن يُطالع هذا النّص:

أولاً ـ مادامت الجنّة أرضية، فأين شجرة معرفة الخير والشرّ وأين شجرة الحياة؟

ثانياً ـ هل أنبت إله التوراة هاتين الشّجرتين عبثاً ولهواً ليستدرج آدم وحوّاء لفّخ نصبه لإيقاعهما في المعصية، أم لمقصدٍ أسمى من ذلك؟

وتمضي التوراة فتصوّر لنا الحيّة تُغوي حوّاء. وحوّاء تُغوي آدم. ويأكلان من شجرة معرفة الخير والشرّ. ويعصيان الله ولايلبثان أن يريا نفسيهما عريانين. وتروي التوراة عن آدم وحوّاء، في حديثها عنهما فتقول : (وسمعا صوت الرّب الإله ماشياً في الجنّة عند هبوب ريح النّهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرّب الإله في وسط شجر الجنّة. فنادى الرّب الإله آدم وقال له : أين أنت؟ فقال : سمعت صوتك في الجنّة، فخشيت لأنّي عُريان، فاختبأت. فقال الرّب الإله : من أعلمك أنّك عُريان؟ هل أكلت من الشّجرة التي أوصيتُك ألاّ تأكلُ منها؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرّب الإله للمرأة : ماهذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة : الحيّة غرّتني فأكلت. فقال الرب الإله للحيّة : لأنّك فعلت هذا، ملعونةٌ أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البريّة. على بطنك تسعين وتُراباً تأكُلين كلّ أيّام حياتك. وأضع عداوةً بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها..) تكوين ٣/٨ـ١٥.

ويُستفاد من هذا النّص الأمور التالية :

أولاً ـ أنّ مايؤكد شَبَه الإنسان بإله التّوراة المعاصرة، هو أنّه كان يمشي ويسمع آدم وقع أقدامه.

ثانياً ـ وأنّ الإله التّوراتي لايعلم الغيب، ولاتخترق رؤيته الحُجُبَ، بدليل أنّه لم يستطع رؤية آدم وحوّاء وهما مختبئان.

ثالثاً ـ وأنّ صوت الله يختلف عن صوت آدم، لكنّ لغته لاتختلف عن لُغته.

رابعاً ـ وأنّ إله التّوراة المعاصرة كان يؤثر أن يرى آدم وحوّاء وهما عريانان. وأنّه كان يأمل أن يظلّ الإنسان عُريانا طوال حياته، بدليل غضبه على آدم وحوّاء أنّهما أكلا من شجرة معرفة الخير والشرّ، وأدركا أنّهما عُريانان. وقد خاطا أُزراً من ورق التّين ليستترا عن أعين الإله الذي عملهما من تراب. وبدليل غضب إله التوراة أيضاً على الحيّة التي أغوت حوّاء بذلك.

خامساً ـ وأنّ الحيّة ماكانت تمشي على بطنها، قبل أن يلعنها الذي صنعها أيضاً.

سادساً ـ وأنّ هناك عداوة بين الحيّة ونسلها والمرأة ونسلها، لانتبيّن معالمها في عصرنا الحاضر.

وأغرب ممّا ذكرناه جميعاً، هو أنّ التّوراة قائلةً على لسان الإله الرّب الذي عرضته لأنظارنا، وعلى حسب ماعرضته لأنظارنا، كما عرضته على مسامع محمد بن ا لله اليتيم الأمّي بوساطة بحيرا الرّاهب وسواه، حسب مزاعمهم تضيف قائلة : (هو ذا الإنسان قد صار كواحدٍ منّا عارفاً الخير والشرّ. والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرّب الإله من جنّة عَدْن ليعمل الأرض التي أُخذ منها..) تكوين ٣/٢٣.

ويُستفاد من هذا النّص الأمور التالية أيضاً :

أوّلاً ـ أنّ إله التوراة كان عنده سرّ شجرة الحياة الأبديّة التي كان غرسها في جنّة عَدْن. وأنّه لم يغرس تلك الشجرة، إلاّ بقصد أن يأكل هو منها وحده، ليحيا حياةً أبدية. وضنّ بذلك على آدم وحوّاء.

ثانياً ـ وأنّ إله التّوراة ماكان باستطاعته إيجاد سورٍ يحمي به شجرة الخُلد المزعومة. لذلك طرد آدم من جنّة عَدْن التي هي على سطح الأرض. بدليل ماسبق أن ذكرت التوراة بقولها : (وكان نهرٌ يخرجُ من عدن ليسقي الجنّة. ومن هناك ينقسم إلى أربعة رؤوس : اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحُويلة حيث الذّهب. وذهبُ تلك الأرض جيّد. هناك المُقل وحجر الجَزعْ. واسم النّهر الثاني جيحون. وهو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النّهر الثالث حِدّاقَل، وهو الجارّي شرقيّ أشور. والنهر الرابع الفرات.) تكوين ٢/١٠.

ثالثاً ـ وأن جميع ماتضمّنه هذا النّص يُخالفُ معطيات العلم وواقع عصرنا. فلاأثر هناك على سطح الأرض لجنّة الخُلد وعند منبع نهر الفرات. ولاأثر أيضاً لشجرتي الخُلد ومعرفة الخير والشر. ولادليل لدينا على العداوة بين الحيّة والمرأة، وماجاء من نسلهما.

رابعاً ـ وأن التوراة المعاصرة تزعم أنّ الإنسان الذي يموت دون أن يأكل من ثمر شجرة الخُلد، يموت ويفنى ويعود إلى أصله الترابي : فلا حياة ثانية، ولاحياة خلود.

خامساً ـ ولربّما رسخ هذا الفهم أو الاعتقاد عند بولس الرّسول، فاندفع يبتدع عقيدة فداء المسيح والخلاص وحكاية قيامة المسيح من بين الأموات.

هذه العقيدة التي تُنافي أبسط مُستلزمات العدالة. فهل تستسيغ العدالة أن تقوم حوّاء بالإقدام على جريمة معصية الإله الرّب. فلا يعاقبها الإله الرّب، بل يُرسل ابنه الوحيد ليُعذّب بدلاً عنها، فيكون ذلك منه كفّارة عن خطيئتها وخطايا جميع من توالد من نسلها من العباد؟

وخلاصة القول، فيما استخلصناه حتى الآن ممّا اقتبسناه من النّصوص التّوراتية، والتي يزعمون أنّ محمّداً اليتيم الأمّي اطّلع عليها في زمنه، هو أنّها أقوالٌ متضاربة مع بعضها، ومع مُعطيات العلوم، تصوّر لنا الإله تارةً قادراً على كل شيء. وتارة أخرى عاجزاً عن كلّ شيء. وتارة ثالثة أنّه بحجم الإنسان وشَبَهُهُ، ويمشي على سطح هذه الأرض، وأنّ لأقدامه وقعاً عليها أيضاً.

والآن فلننظُر : ماالذي أتى به محمد اليتيم الأمّي : أصاغت عبقريّته المعلومات المُتناقضة المذكورة بلسان عربي مبين، أم عمد هو إلى هذه المعلومات فصّححها بوحي من ربّ العالمين، وأتى بما لم يأت به موسى أو سواه من أنبياء بني اسرائيل من قبل؟ وهل جاء ماصاغه من معلومات مُتفقاً مع العلم ومع واقع عصرنا بالذات، أم جاء يُنافيه ويُضادّه؟

ولنعمد الآن إلى الرّبع الأخير من سورة البقرة، الآية (٢٥٥) وهي أوّل سُور القرآن ترتيب تلاوة وأطولُها وأكثرها آيات، في مقابلة سفر التكوين الذي هو أول أسفار التوراة. ولنتدبّر معاً، مانتلوه ونقرؤه فيما يتعلّق بذات الله وصفاته عز وجل. قال تعالى: ﴿**ياأيّها الذين آمنوا أنفقوا مِمّا رزقناكم من قبل أن يأتي يومٌ لابيع فيه ولاخُلّةٌ ولاشفاعة ، والكافرون هم الظّالمون. الله لاإله إلاّ هو الحيُّ القيّوم لاتأخذه سِنَةٌ ولانومٌ له مافي السّماوات ومافي الأرض، مَنْ ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه، يعلمُ مابين أيديهم وماخلفهم، ولايُحيطون بشيءٍ**

من علمه إلاّ بماشاء، وَسِعَ كرسيُّه السماوات والأرض، ولايؤُدُه حفظهُما وهو العلّي العظيم.﴾.

ولنلاحظ كمال وصف الله تعالى لنفسه في هذه الآيات الكريمة، وتسلْسُل كلامه المنطقيّ والموضوعيّ، فسنصل في نهاية تدبُّرنا وملاحظتنا هذه إلى أنّ الطّرح القرآني يختلف اختلافاً جذريّاً عمّا طرحته التّوراة التي زعموا أنّ الرّاهب بحيرا قد تلاها على مسمع من محمد رسول الله اليتيم الأمّي ﷺ.

ذلك أنّ الله تعالى نبّه في سورة البقرة، إلى نبوءة موسى والأنبياء من بعده وعن بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن الكريم. ووضح للناس نهج التّقوى الذي أتى به هذا القرآن. وأكّد، بعد أن استعرض تاريخ البشر، على أهميّة الدّعاء الإبراهيمي المُستجاب. هذا كلّه في سورة البقرة. ومن ثمّ توجه بخطابه في الآية (٢٥٤) إلى الذين آمنوا، فحثّهم على الإنفاق ممّا رزقهم من مال وحسن التصرّف بما أنعم الله عليهم من قوة، وزودهم به من علم، مذكّراً النّاس أنّ عالمهم هو عالم ابتلاء وامتحان، وأنّه سيأتي عليهم **﴿يومٌ لابيع فيه ولاخُلّة ولاشفاعة﴾** محذّراً كلّ من ينكر هذا من الإساءة إلى نفسه وظُلمها، لكفرانه بهذه الحقيقة الكونية قائلاً : **﴿والكافرون هم الظّالمون.﴾**.

ثم يكشف الله للنّاس عن وجوده وعن صفاته، ويجلّي ذلك بتعابير مُبيّنة وبتسلسل منطقي ونهج علمي موضوعي ويقول :

أولاً ـ ﴿الله لاإله إلاّ هو﴾ أي الله لاسواه، فهو وحده صاحب السُّلطان، لاشريك له في ألوهيّته وسلطانه.

ثانياً ـ ويُضيف أنّ الدّليل على ذلك مُضمرٌ في كونه **﴿الحيّ﴾**. والحيُّ مُعرّفاً بالألف واللاّم يعني الدّائم الوجود والذي لايفنى وكامل الحياة، فلا بداية له ولا نهاية. وهو واهب الحياة ومُحيي النفوس.

ثالثاً ـ والدليل الثاني على ذلك مُضمرٌ في كونه **﴿القيّوم﴾**. والقيّوم مُعرّفاً بالألف واللاّم هو القائم الدائم بذاته والقيّم على كلّ شيء، فلا ابتداء له (اقرب). فهو الحافظ لجميع أشياء هذا الكون، وهو الواهب مالها من قوام (مفردات الرّاغب).

ثم إنّ دلالة القيّوم، من الوجهة العلمية على الله الذي وهب جميع الأشياء قواها. هذه القوى التي تجمع بين ذرّاتها وأجزائها مايساعد على

تحقيق المقصد المرجوّ من إيجادها. إشارة إلى قوى الذرة وقوانين الجاذبية وما إليها، وهو جلّ شأنه إذ قدّم هذين الدليلين (الحيّ القيوم) بقوله تعالى : ﴿**لاتأخذه سِنَةٌ ولانوم**﴾. فالسِنة من الوَسَن أي النّوم الثّقيل. والنّصب والتّعب هو الذي يتسبب بضرورة النوم. فهو تعالى لفت أذهاننا إلى أنّه لايشبه حاله حال الإنسان، فهو لايمسّه نصبٌ ولا لُغوب وهو ليس كمثله شيء. فهيهات أن ينقطع رجاء المؤمن منه أو يفقد تأييده في لحظةً من اللّحظات. فالله هو الحافظ الرّقيب الذي لايغيب عمّا يحفظه، فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين.

خامساً ـ فإن تصوّر امرؤ أنّ عبادته لغير الله قد تُقرّبه زُلفى من الله تعالى. فقد حاد عن جادّة الصّواب. فهو تعالى أضاف قوله : ﴿**له مافي السّماوات ومافي الأرض.**﴾ أي أنّ ملكيّته وسعت كلّ شيء، فلا سبيل لأحدٍ أن يزعم السّيادة والألوهيّه من دونه عز وجلّ.

سادساً ـ فإن مال امرؤ لتصوّر وجود من يشفع له بين يديّ الله تعالى، يسمع قوله تعالى: ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه**﴾ أي لايملك الشّفاعة من دونه إلاّ من يأذن الله له بها في حينه.

سابعاً ـ فإن تساءل أحد عن سبب ذلك، يجد الجواب في قوله تعالى : ﴿**يعلم مابين أيديهم وماخلفهم**﴾ أي لايخفى على الله حال إنسان، وكُلٌّ يُجزى الجزاء الذي يستحقّه.

ثامناً ـ ويربط الله عزّ وجلّ التّطور العلمي بمشيئة ويقول : ﴿**ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء.**﴾.

تاسعاً ـ فإذا تساءل أحد عن حدود علم الله وحدود قُدُراته، يجيبه الله عز وجل بقوله: ﴿**وسع كرسيّه السماوات والأرض**﴾ أي لايغرب عن علمه وقدراته، ولايُعجزه شيء في السماوات ولافي الأرض.

عاشراً ـ فإن تساءل أحد أخيراً : أأ لله هو المُهيمن القابض الباسط المستغني عن الخلق بقدرته؟ ويجيبه الله عز وجلّ بقوله : ﴿**ولايؤُدُه حفظهُما**﴾ أي أنّ إدارة السّماوات والأرض لاتُعجز علم الله وقدراته كيف لا ﴿**وهو العليُّ العظيم**﴾ فهو تعالى من السمّو والعلاء والعظمة بما لايطاله خيال الإنسان، ولاتحدّه حدود.

ولنقارن الآن بين ماأتت به "آية الكرسي" هذه وأفادتنا به عن وجود الله وصفاته. وبين ماقدّمته التّوراة في سفر التكوين من معلومات في هذا الصّدد. يتّضح لنا جليّاً أنّ محمداً رسول الله اليتيم الأمّي مااستقى معلوماته هذه عن الرّاهب بحيرا أو سواه، حتى يصوغها بلسان عربّي مبين. فلو كان قد فعل ذلك، لاستحال عليه أن يأتي بما انطوت عليه آية الكرسي هذه، ومافيها من إحكام بيان ووصف لذات الله وصفاته من علوم.

ولابدّ أن لاحظ القارىء العزيز أنّي لم أبالغ في استنباط مااستنبطه من دلالات هذه الآية الكريمة. علماً بأن سورة الحشر عمدت إلى بيان هذه المعاني مفصّلة. حيث أوردت آخر آياتها قوله تعالى : ﴿**هو الله الذي لاإله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لاإله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عمّا يُشركون. هو الله الخالق البارىء المصوّر، له الأسماء الحُسنى، يسبّح له مافي السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.**﴾.

وهكذا يكون قد ثبت أن القرآن الكريم ليس هو من إبداع محمّد ﷺ اليتيم الأمّي أو من تأليفه وافترائه، ولامن نتاج عبقريّته الدينيّة المزعومة. بل هو كلام الله الذي بعث محمداً بالحقّ، وهو رب العالمين.

٦ ـ دليل المصداقيّة السّادس :

وأتناول الأحكام الشرعيّة التي أتت بها التوراة والإنجيل، وماأتى به القرآن الكريم من أحكام. لنرى أبَدَت مُتطابقةً مُتقاربةً، أم أتت مُختلفةً مُتباعدة؟

لنأخذ فاحشة الزّنا والخيانة الزوجيّة في التوراة على سبيل المثال، ففي سفر العدد ٥/١١ : (وكلّم الرّب موسى قائلاً : كلّمْ بني إسرائيل وقل لهم : إذا زاغت امرأةُ رجلٍ وخانته خيانةً، واضطجع معها رجلٌ اضجاع زرعٍ، وأُخفي ذلك عن عيني رجُلها واستترت وهي بخسه، وليس شاهدٌ عليها، وهي لم تؤخذ. فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي ليست بخسه.

يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن، ويأتي بقُربانها معها، عُشْرِ الإيفة من طحين شعير لايَصُبُّ عليه زيتاً، ولايجعل عليه لُبانا، لأنّه تقدمَةُ غَيرةٍ، تقدمة تذكارٍ ذنباً. فيقدّمها الكاهن ويُوقف أمام الرّب. ويأخذ الكاهن ماءً مقدّساً في

إناء خزفٍ، ويأخذ الكاهن من الغُبار الذي في أرض المسكن ويجعل في الماء، ويوقف الكاهن المرأة أمام الربّ، ويكشف رأس المرأة ويجعل في يديها تقدمة التّذكار التي هي تقدمة الغيرة، وفي يد الكاهن يكون ماءُ اللّعنة المُرّ. ويحلف الكاهن المرأة ويقول لها: إن كان لم يضطجع معك رجلٌ، وإن كنت لم تزيغي إلى نجاسةٍ من تحت رَجُلِك، فكوني بريئةً من ماء اللّعنة هذا المُرّ. ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجُلك وتنجسّت وجَعَلَ معك رجلٌ غير رجلك مضجعه، يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللّعنة ويقول الكاهن للمرأة : يجعلك الرّب لعنةً وحَلْفاً بين شعبك بأن يجعل الرّب فخذك ساقطةً وبطنك وارماً. ويدخُلُ ماء اللّعنة هذا في أحشائكِ لِوَرَمِ البطن ولإسقاط الفخذ، فتقول المرأة آمين آمين. ويكتب الكاهن هذه اللّعنات في الكتاب، ثم يمحوها في الماء المُرّ. ويسقى المرأة ماء اللّعنة المُرّ، فيدخُلُ فيها ماء اللّعنة للمرارة. ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمَةَ الغيرة، ويُردّدّ التّقدمة أمام الرّب ويقدِمّها إلى المذبح، ويقبض الكاهن من التّقدمة تذكارها، ويوقده على المذبح، وبعد ذلك يسقي المرأة الماء. ومتى سقاها الماء، فإن كانت قد تنجسّت وخانت رجُلها، يدخل فيها ماء اللّعنة للمرارة، فيرمُ بطنُها، وتسقط فخذها فتصير المرأة لعنةً في وسط شعبها. وإن لم تكن المرأة قد تنجسّت بل كانت طاهرة تتبرّأُ وتحبَلُ بزرع. هذه شريعة الغيرة.).

ونحن نستخلص من هذا النصّ الأمور التّالية :

أولاً - يبدو لنا حكم الزّنا في التوراة عشائرياً وبدائياً، وليس حضارياً، فهو لايصلح ليكون أساساً لنظامٍ عالمي.

ثانياً – والحكم التوراتي هذا يمتهن المرأة، ولايحسب لكرامتها أيّ حساب. ولايُسوّي بين الرّجل والمرأة على صعيد الزّنا والخيانة الزوجيّة. فهو لم يُعط المرأة حقّ دفع زوجها إلى الكاهن إن هي ارتابت بخيانته لها، أو لاحظت ارتكابه فاحشة الزّنا.

ثالثاً - وهذا التعليم يتنافى والنظافة أيضاً، ذلك أنّ الغُبار، وإن جُمع من مكان مقدّس، فهو وسخٌ ومأوى للجراثيم على كلّ حال.

رابعاً - ولايُعقل أن يتّحد الغبار الوسخ بماءٍ ممزوجٍ بمادة المرّ، ويشكّل من امتزاجهما "أكسيرا" لكشف الزّانية منَ البريئة، إنّما يقدم على مثل هذا الأمر المشعوذون. وتُستخدم مثل هذه الأساليب لتخويف الأطفال.

خامساً ـ ثم إنّ هذا الماء الممزوج بوسخ، إن آذى المعدة قد يُورمها، ولكن الغريب أن يُقال أنّه يُسقط فخذ المرأة، ولايُسقط فخذيها معاً. وماهي العلاقة العلميّة الموضوعية بين هذين الأمرين؟ أم أنّ لِكَهَنةِ اليهود قوّةً سحريّة لايمتلكها الإنسان؟

سادساً ـ وهل يستسيغ عقل الإنسان أن يفعل هذا الشّراب الوّسخ، فِعله في امرأة، ولايترك نفس الأثر في امرأةٍ أخرى؟ فالواقع يكذّب مثل هذا الزّعم وهذا الادّعاء.

سابعاً ـ والملاحظ هو أنّ مايُمكن أن يُنسب إلى النّص من عيب أو نقيصةٍ، إنّما يُنسب إلى "الرّب التوراتي" الذّي شرّع هذا النّص بالقول : (وكلّم الرّب موسى قائلاً : كلّم بني اسرائيل وقل لهم..).

هذا ماأتت به تعاليم التوراة حول فاحشة الزنا والخيانة الزوجية. وذلك استناداً لإحدى الوصايا العشر التي تلقّاها موسى على جبل الطّور، وإحداها : (لاتزن).

ولنأت إلى الانجيل. فقد أضاف المسيح أمراً جديداً، حينما قال في انجيل متى ٥/٢٧ : (قد سمعتم أنّه قيل للقُدماء لاتزنوا. وأمّا أنا فأقول لكم : إنّ كُلّ من ينظر إلى امرأةٍ ليشتهيها فقد زَنَا بها في قلبه. فإن كانت عينك اليُمنى تعثُرُك، فاقلعها وألْقها عَنك. لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كُلّه في جهنّم. وإنّ كانت يدك اليمنى تعثُرك فاقطعها وألقها عنك، لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كُلّه في جهنّم.).

أتى المسيح بهذا التّعليم القاسي الذي يستحيل على المرء العمل به حتّى في عصر المسيح نفسه، ولم نسمع أو نقرأ أنّ مسيحيّاً قد اقتلع عينه اليمنى لمجرد أنّه نظر بشهوة إلى إمرأةٍ من النّساء. ومن يتدبر قول المسيح هذا، يتصوّر أنّ المجتمع المسيحيّ سيبلغ درجة من العفّة لاتُضاهى، ومُستوى من الطّهارة والشرف لايُدانى. على حين أنّه قد بلغ من التّردي والاستهانة بالعِرض حدّاً لايُحسد عليه في هذه السنوات من القرن العشرين.

ونستخلص من هذا النّص الإنجيلي الأمور التالية:

أولاً ـ إنّ الإضافة التي أتى بها المسيح، تُعدّ في حدّ ذاتها دليلاً على أن تعاليم التوراة كانت في نظرة ناقصة لابدّ من استكمالها. فهاهو ذا يعتبر النّظر إلى المرأة بشهوة من الزنا، ويجعل له عقوبة هي اقتلاع العين.

ثانياً ـ ولاندري لماذا أوجب المسيح اقتلاع العين اليمنى وحدها. فالمرء لاينظر إلى امرأة ليشتهيها بعينه اليمنى وحدها دون اليسرى.

ثالثاً ـ ثم إنّ المسيح يخاطب الرّجل وحده. وكأنّ المرأة لاتنظر إلى الرّجل لتشتهيه أصلاً ـــ فهذا التّفريق بين الجنسين من هذه الناحية، يخالف الواقع والمنطق العلميّ. فالرّجل والمرأة في هذا الأمر سيّان.

رابعاً ـ وإننا، ومن خلال قول المسيح المزعوم: (فاقلعها وألقها عنك، لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كلّه في جهنّم.) يذهب ذهننا إلى أنّ المسيح كان يعتقد أنّ الأجساد ستُبعث يوم القيامة، وبها ينزل العذاب.

ونُجمل الآن جميع ماستخلصناه من هذين النّصين : التوراتيّ والإنجيلي، المتعلّقين بموضوع الزّنا والخيانة الزّوجية، فنقول : مادام هذان النّصان غير جديدين، وأنّه كان على حسب زعمهم قد اطّلع عليهما محمد اليتيم الأمي، مما قبسه من بحيرا الراهب وسواه من الرُّهبان، وعلى حدّ زعم الأب حدّاد خاصة وأمثاله، فأين مايقابل تعاليم هذين النّصين في القرآن الكريم باللّسان العربيّ المبين؟ فقد كان المُفترض أن تأتي تعاليم القرآن، إن صحّ زعمهم هذا، ولهذه التعاليم القرآنية صفة العشائرية أيضاً: تمتهن حقوق المرأة، فتعطي الزّوج حقّ الغيرة والارتياب في عفّة زوجته متى شاء، وتحرم المرأة من هذا الحقّ، وألاّ يُحاسب الرّجل على زناه وخيانته الزّوجية. إذ لايحقّ لزوجته أن تدعوه إلى الكاهن متى ماارتابت في عفّته. وأن يُعطِ القرآن الكريم طبقة الكهنوت منزلةً لاتكون لأحد سواهم، ولايجعل للزّناة محاكم شرعية يُحاكمون بها، وأن يقترح على طبقة الكهنوت استعمال هذا "الإكسير" المزعوم، المركّب من ماء وأوساخ ليساعدهم على كشف الزّناة، فيوّرم مِعَدَ الزُّناة ويُسقط أفخاذهم، كما كان ينبغي للقرآن أن يوجب نفس ماأوجبه المسيح باقتلاع عين النّاظر، إذا نظر إلى امرأةٍ بشهوة، وأن تقوم بهذه العمليّة مؤسّسات مُختصة .

والذي يُطالع القرآن الكريم يبرّىء هذا الكتاب من جميع هذه الأمور التي تضمّنها النصّان التوراتي والإنجيلي. الأمر الذي يعني بألفاظٍ أُخرى أنّ محمداً ﷺ اليتيم الأمّي لم يتلقّ هذه الأمور عن الرّاهب بحيرا وسواه.

وإذا صحّ أنّه اطّلع على مثل هذه التعاليم، فقد كان عليه ﷺ ألاّ ليستسغها، بل أن ينبذها ويُعرض عنها. بدليل أنّه لم يَصُغها بلسانٍ عربي مبين.

٧ ـ فروق مابين تعاليم القرآن ومابين تعاليم التوراة والانجيل

وهانحن ننتقل خطوة أخرى نتدبّر الفروق الجوهرية التي افترقت بها تعاليم القرآن الكريم عن تعاليم التّوراة والإنجيل.

فالفرق الأوّل الذي نُلاحظه، هو أنّ التوراة من حيث التّوصية والتّعليم، لم تزد أن أوردت في وصاياها العشر أمر الربّ (لاتزن). في حين أنّ التّعليم القرآني أورد هذه الوصيّة والتّعليم بأسلوبٍ مُغايرٍ تماماً. فلم يأت القرآن الكريم بلهجة الآمر المُطلق فيقول (لاتزن)، دون توطئة ولاتمهيد أو تعليل. بل قال تعالى فيه : ﴿**ولاتقربوا الزّنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً.**﴾ الاسراء (٣٢). فالملاحظ هو أنّه تعالى استعمل فعل (لاتقربوا) الذي يعني لاتدنوا. وهو أسلوب التّحذير من شيءٍ مؤذٍ وضار جدّاً. ذلك أنّ مجرّد اقتراب الإنسان من الفاحشة، يكاد يوقعه فيها. وقد عمدت الآية إلى توضيح مانُهي عن الدّنو منه وحكمته حين أضاف تعالى يقول فيها: ﴿**إنّه كان فاحشةً وساء سبيلاً.**﴾. والفاحشة في اللّغة ماعظمُ قُبحه من الذّنوب والمعاصي، كما في النهاية لابن الأثير. ثم إنّ الفاحشة على حسب ماقال في التّعريفات، هي الذّنوب التي تُوجب الحدّ في الدنيا والعذاب في الآخرة. من هنا نُدرك أنّ الله تعالى لم ينهج منهج التّوراة في إصدار أوامر جافّة، دون تمهيد أو تعليل بذكر الحكمة، بل نهج نهجاً مُختلفاً جدّاً، وهو أسلوب النّهي، مع بيان حكمة هذا النّهي، وهو أنّ الزّنا فعلٌ قبيحٌ في نظر الخالق ويستوجب إقامة الحدّ على فاعله في الدّنيا ردعاً له. فإن أصرّ على فعلته واجه يوم القيامة عذاب النّار. وقد علّلت الآية حكمة قُبح هذا الفعل أيضاً، حين ورد في آخرها ﴿**وساء سبيلا**﴾. بمعنى أنّ فعل الزّنى يُعتبر سلوكاً وخيماً من حيث العواقب التي تتأتّى عنه. فهذه هي دلالة (ساء سبيلا).

وهكذا يتجلّى لنا الفرق الواسع مابين تعاليم التّوراة وتعاليم القرآن الكريم.

والفرق الثاني الذي نلاحظه، هو أنّ التعليم التّوراتي، في حين ورد مصطبغاً بصبغةٍ عشائريّة ضيّقة، أتى التعليم القرآني عالميّ الصّبغة مترفّعاً عن تلك النظرة الضّيقة التي لاتصلح كتعليم عالميّ. لذلك نجد القرآن الكريم يُطالب المؤمن فيه ببيعته ويلزمه التقيّد بها طوال حياته.

ولافرق أن يكون هذا المُبايع رجلاً أو امرأة أو أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر. ولافرق أن يكون عربيّاً أو أعجميّاً. فهاكم سورة الممتحنة (١٢) والخطاب فيها موجّه للمرأة المؤمنة: ﴿**ياأيّها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يُبايعنك على أن لايُشركن با لله شيئاً، ولايسرقن، ولايزنين، ولايقتُلن أولادهُنّ، ولايأتين ببهُتان يفترينهِ بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولايعصينك في معروف، فبايعهُنّ واستغفر لهنّ ا لله، إن ا لله غفورٌ رحيم.**﴾.

فهاهي ذي المرأة تُخاطب في هذه الآية كالرّجل، على حدٍ سواء، وتُسأل عن تصرُّفها، وتُطالب بمبايعة ا لله ألاّ تقرب الزنى الذي هو فاحشة وساء سبيلاً. وهكذا يتجلّى لنا الفرق الثاني مابين التعلّيمين التوراتي والقرآني.

وهناك فرقٌ ثالث. ففي حين أنّ التعليم القرآني قد كرّم المرأة وسواها بالرّجل، واشترط توفّر أربعة شهود تؤيّد التّهمة الموجّهة إليها. بل أوجب معاقبة من يتّهمها دون احضار هؤلاء الشهود. فإنّ التّعليم التوراتي قد حطّ من كرامة المرأة، وسمح لزوجها أن يتّهمها متى شاء، وأوجب عليها الحضور بين يدي كاهن، والكشف عن رأسها، وسقايتها شراباً مراً ممزوجاً بالغبار والأوساخ بلا وازعٍ من ضمير أو احتياطٍ من تعليمٍ سماويّ.

وهاكم سورة النور (٢-٣)، ولنستمع لما ورد فيها من تعليم راعى المساواة بين الرّجل والمرأة في الأحكام: ﴿ **الزّانية والزّاني فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدة، ولاتأخذْكم بهما رأفةٌ في دين ا لله، إن كنتم تؤمنون با لله واليوم الآخر، وليشهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين. الزّاني لاينكح إلا زانيةً أو مُشركة، والزّانية لاينكحها إلاّ زانٍ أو مشرك، وحُرّم ذلك على المؤمنين. والذّين يرمُون المُحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء، فاجلدوهم ثمانين جلدةً، ولاتقبلوا لهم شهادةً أبداً، وأولئك هم الفاسقون، إلاّ الذين تابعوا من بعد**

ذلك وأصلحوا، فإنّ الله غفور رحيم. والّذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شُهداء إلاّ أنفسُهم، فشهادة أحدهم أربع شهاداتٍ بالله إنّه لمن الصادقين. والخامسة أنّ لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربعَ شهاداتٍ بالله إنّه لمن الكاذبين. والخامسة أنّ غضب الله عليها، إن كان من الصادقين.﴾.

فالواضح من هذه الآيات الكريمة أنّ الزّانية والزّاني سيّان في إقامة الحدّ عليهما. والمجتمع في نبذهما سواء. وقد فتح الله لهما فُسحة إصلاح نفسيهما، من بعد إنزال الحدّ بهما، ذاك أنّ الله غفورٌ رحيم. وهكذا يتجلّى لنا الفرق الثّالث مابين التعليم التوراتي والتعليم القرآني.

وفرقٌ رابع، نلاحظهُ هو أنّ الله تعالى ربط في كتابه القرآن الكريم آثار فاحشة الزّنا بعلاقة المحبّة مابين الله وبين عباده المؤمنين. منـدّداً بطُرُق الخيانة بصورة مُطلقة، سواء منها الخيانة الزوجيّة أو خيانة الوطن والدّين وخيانة الأصدقاء. ذلك أنّه تعالى اعتدّ طرق الخيانة بكافة أنواعها، سبباً مباشراً يقطع من جرّائه محبّته وتأييده للخائن، ويفصم مابينهما من وشائج.

فقد قال تعالى في سورة الحجّ (٣٨) : ﴿**إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لايحبُّ كلّ خوّان كفور.**﴾ منبّهاً هنا إلى أنّ بين المحب ومحبوبه تعاطفاً وتواصلاً وتعاوناً. فلا يكاد المحبّ يرى مصيبةً تنزل بمحبوبه حتى يُسارع إلى نجدته ونصرته وتأييده. ومادام المؤمنون الصّادقون مقرّبين من الله الذي آمنوا به وعبدوه، فهم أحقُّ بنُصرته وتأييده. فهذا ماأفاده قوله تعالى هنا ﴿**إنّ الله يدافع عن الذّين آمنوا**﴾ مستدركاً قوله : ﴿**إنّ الله لايحبُّ كُلّ خوّان كفور.**﴾ بمعنى أن تأييد الله ونصرته هذه يفوز بها المؤمنون، مالم يخونوا عهودهم، ويدخل في ذلك عهد الزوجيّة وسواه. فمن خان فإنّ عليه خيانته. وهذه الخيانة أوّل ماتقتضي خُسران نُصرة الله لهذا الخائن لعهوده، ومحبّته إياه.

وقد نبّه القرآن الكريم في الوقت نفسه المؤمن والمؤمنة في سورة غافر (١٩) إلى أنّ ربّهم الخبير العليم والمحصي البصير ﴿**يعلم خائنة الأعين وماتُخفى الصّدور**﴾ أي ماتخون به الأعين حين تُسارقُ النّظر إلى مالا يحلّ. وقد جاء هذا التّنبيه لأذهان المؤمنين، ليظلّوا يقظين للفرق الشّاسع الذي هو أيضاً مابين المحبّ في الله والمحبّ في غير الله. فالمحبّ في غير الله قليلاً ماينتبه إلى خائنة الأعين

وماتُخفي الصّدور. أما المُحبّون في الله يتملّكهم اليقين التّام في كلّ لحظة من حياتهم من أنّ محبوبهم الله ﴿**يعلم خائنة الأعين وماتُخفي الصّدور.**﴾.

وهذه الحقيقة قد أغفلها التّعليم التّوراتي، بينما وضّحها التعليم القرآني. فالتوراة تركت باب الغيرة والشّك مفتوحاً على مصراعيه أمام الزوج، كأنه وزوجته لاتربطهما رابطة إيمان بالله ولامحبّة ولا احترام. وكأنّهما لايدريان أنّ الله يعلم خائنة الأعين وماتُخفي الصّدور، ولاقيمة في نظرهما لنصرته وتأييده ومحبّته.

وهذا الفرق الرّابع الذي لاحظناه مابين التعليم التّوراتي، والتعليم القرآني، كان من العسير جدّاً على محمد اليتيم الأمّي أن ينتبه إليه من نفسه ويُبرزه للعيان في القرآن المبين، لولا أن كان قد تلقّاه عن طريق وحي ربّه، ربّ العالمين.

والفرق الخامس المُلاحظ مابين تعليمي التوراة والإنجيل، والتعليم القرآني هو مايُستدل عليه من النّص الإنجيلي الذي سبق أن أوردناه، وهو قول المسيح : (فاقلعها وألقها عنك، لأنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك، ولايُلقى جسدك كُلّه في جهنّم.).

إذ يُستدل من هذا النّص أنّ الإنجيل يقول ببعث الأجساد التّرابيّة نفسها يوم القيامة. على حين يُستدل من التعليم القرآني أنّ هذه الأجساد عارضةٌ زائلة وآيلةٌ إلى تُراب. وأنّ الأنفس ستُبعثُ يوم القيامة بأجسام غير هذه. وقد وضّحت هذه الحقيقة في مؤلّفي (الرأي) ص١٩٦، وفي مؤلفي (النّظرية الكونية) ص١٠٤ فليُرجع إليهما.

والعجيب أن تسكت التوراة والإنجيل عمّا ستؤول إليه النّفس البشرية بعد الموت. وقد أتى القرآن الكريم في هذا المجال بما يُدهش العقول النيّرة من معارف مؤيَّدَة بالأدلّة العلمية والبراهين السّاطعة، وهل يُعقل أن تأتي عبقرية محمد اليتيم الأمّي بمثل هذه المعلومات، من دون مددٍ وحيٍّ أمدّه به ربّ العالمين الذّي ستؤول إليه أنفس عباده؟

ونحن نكتفي بالكشف عن هذه الفروق الجذّرية مابين التعليم التوراتي والتعليم القرآني، في موضوع الزنا والخيانة الزّوجية، بعد أن أثبتنا استحالة التّسليم بما زعمه الأب حدّاد وسواه، زعمهم أنّ محمداً اليتيم الأمّي قد استقى

أحكام دينه الإسلام ممّا تلقّاه على أيدي الرُّهبان الذين عاصروه كالراهب بحيرا وسواه من الرُّهبان، وأنّه صاغ ماتعلّمه من هؤلاء الرّهبان في القرآن الكريم بلسانٍ عربّي مبين.

فشتّان مابين تعليمٍ عشائري مخصوصٍ بقومٍ بعينه. ومابين تعليمٍ عالميٍ لايفرّق بين قومٍ وقوم، أو لونٍ ولون، وبين صاحبٍ لسانٍ ولسان، أو بين رجلٍ وامرأة، من حيث كونهما انسانين من طينةٍ واحدةٍ ونفسٍ واحدة.

وشتّان مابين تعليمٍ يُصدر أوامره جافّةً، تُلزم الآخرين دون إقناع، ومابين تعليم لايُكره نفساً على أمرٍ من أوامره، وإنّما يطالبه إذا آمن أن يُبايع الله تعالى يتقبّل مايلحقه به من عقاب.

هذا الأمر القائم على أساسٍ من عقد التّراضي مابين الله وعبده المؤمن وأن يتلقّاه هذا المؤمن مُعلّلاً بالأسباب والحكمة منه، مع تقديم الأدلّة العقلية والعلمية المُقنعة بصحّته.

وشتّان مابين إهمال التعليم التوراتي تعرّضه من قريبٍ أو بعيدٍ إلى الآثار التي تتركها فاحشة الزّنا والخيانة الزوجية على علاقة العبد بربّه. ومابين تعرُّض التعليم القرآني لبيان هذه الآثار، إلى جانب تنبيهه إلى مابين المحبّ في الله وفي غير الله من فروق.

وشتّان مابين تعليمٍ توراتّيٍ وانجيلّيٍ يقول ببعث الأجساد التّرابية بعد موتها : كأن يُبعث الأعمى أعمى، والأعرج أعرج، والمفقود العين أعوَر، ومابين تعليم القرآن الذي ينبّه إلى أنّ هذه الأجساد الترابيّة هي مجرّد أداة لخلق نفس الإنسان وتطويرها وربطها بخالقها. مع بيان الأدلّة القاطعة التي تؤيّد ذلك في كلّ مقامٍ تعرّض القرآن الكريم فيه لهذا الموضوع.

وهكذا نكون قد توصّلنا، بما بسطنا القول فيه بأسلوبٍ علمّيٍ، إلى أنّ عبقريّة محمد بن عبد الله ﷺ الدينية المزعومة، يستحيل أن تأتي بهذه الفروق التي وضّحناها في مجال أحكام الزّنا والخيانة الزوجية.

إلا أن يكون قد أمدّه الوحي الذي أنزله القرآن على قلبه ﷺ هدى ورحمة للعالمين. وهو الله الذي خلق الذكّر والأنثى من نفسٍ واحدةٍ، وجعلهما سواءً في الحقوق والواجبات. والله هو الذي يعلم خائنة الأعين وماتُخفي الصّدور. فهو المحاسب الحقيقيّ، فلا يحقّ للزّوج اتّهام زوجته لمجرّد الغيرة والظّن

ودون تقديم دليلٍ قاطعٍ وجلّي، فكيف يُعقل أن يكون التعليم التّوراتي الذي أوردناه سماوياً أو منطقيّاً، في مقابل هذا التعليم القرآنيّ السّماوي المُسلّم به؟

٧ـ دليل المصداقية السّابع :

ونتناول في دليلنا السّابع هذا قضيّة منهاج الحياة العلمّي، فنقول : إنّ الباحث في التوراة والإنجيل المعاصرين، لاتتراءى له معالم أيّ منهجٍ علمّي للحياة في كليهما. بينما يتراءى له معالم هذا المنهج في أوائل آيات سورة البقرة، وهي أوّل سورةٍ قرآنية من حيث ترتيب تلاوة القرآن الكريم.

والمعلوم لدى العقلاء الباحثين هو أنّ منهج الحياة، لايُطالبُ به إلاّ الذين بلغوا سنّ رشدهم وتجاوزوا طفولتهم. وهذا الأمر ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد. فالوالد الذي يخاطب أطفاله، يأمرهم بالإلتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه. يأمرهم بالصّدق والأمانة وعدم الاعتداء.

وهاأنّ موسى عليه السّلام وقد تلقّى الوصايا العشر على جبل الطوّر : ﴿**لاتُقتل. ولاتزن. ولاتسرق. ولاتشهد على قريبك شهادة زور. ولاتشته امرأة قريبك. ولاتشته بيت قريبك. ولاحقله. ولاعبده. ولا أمته ولاثوره ولاحماره ولاكلّ مالقريبك.**﴾. تلقّى هذه الوصايا التي ذكرتها التوراة وأضاف بعدها : (هذه الكلمات، كلّم بها الرّب كلّ جماعتكم في الجبل من وسط النّار والسّحاب والضبّاب وصوتٍ عظيم، ولم يزد.) تثنيه ٢٢/٥.

إن ألفاظ (ولم يزد) تدّل دلالة صريحة وقاطعة على أنّ الله تعالى الذي حين كلّم موسى، كان ينظر إلى عشيرة بني إسرائيل على أنّ أفرادها لايزالون أغراراً يُمضون دور طفولتهم العقليّة. فلم يكونوا قد بلغوا سنّ رشدهم بعد. لذلك لم يطالبهم ربُّهم بانتهاج منهجٍ للحياة يلتزمون به. وعليه فإنّ الوصايا العشر لاتزيد على كونها نظام سلوكٍ بشريّ. وقد ركّزت الوصايا على الأعمال، ولم تلحظ منهج العقائد والإيمانيات التي تَمُتُّ في الأصل إلى الفلسفات والنّظريات بصلة من الصّلات.

من هنا، إن نحن استعرضنا الفترة التي استوطن فيها بنو اسرائيل أرض كنعان، لاحظنا أنّهم لم يتركوا فيها أيّ تُراثٍ علمّي. بل كانوا في معارفهم عالة على الأمم من حولهم كالفينيقيّين وسواهم. فقد استعانوا بمن حذق فنّ البناء من

الفينيقيّين على سبيل المثال، لبناء المعبد الّذي شاده سليمان الحكيم. كما اعتمدوا القوّة العسكرية نهجاً للدّفاع عن كيانهم وأنفهسم. فلم تتولّد على أيديهم علوم، ولازودّوا العالم من حولهم بزادٍ علميّ. فلم يُعرفوا إلاّ بالهيمنة وسفك الدّماء.

وهذه الحقيقة التاريخية التي وضّحتها آنفاً، لم تأت عن اجتهادٍ شخصيّ. بل أقرّ بها مؤرّخو اليهود أنفسهم. فقد كتب كوهر في دائرة المعارف العبريّة ص٣٥ (Berry : Religion of the Word p35) يقول : (إنّ اليهودية ليست عقيدةً أو نظاماً من العقائد يتوقّف على قبولها الفداء أو الخلاص في المستقبل. وكلّها نظام للسلّوك البشريّ، وناموس البرّ الذي يتحتّم على الإنسان إتباعه. ويقرّر الفكر اليهودي بناء على ذلك أنّ الجزاء يكون حسب الأعمال، لاحسب الاعتقاد.).

وهذه الحقيقة التاريخية أقرّ بها اليهود أنفسهم، حسبما دلّ عليه كلام اليهودي المؤرخ كوهلر. وهذه الحقيقة دفعت المؤرّخ (ول ديورانت) ليكتب في مؤلّفه الضّخم "قصّة الحضارة"، معتبراً هذه الحقيقة تكمن وراء سكوت التوراة عن الكلام عن الآخرة والبعث والحساب (قصّة الحضارة ج٢ ص٣٤٥).

وهذه الحقيقة التاريخيّة هي التي اضطرت المؤرّخ (آرثر هيرتزبرغ Arthur Hertyberg) أيضاً، ليكتب في مؤلّفه (Judaism) ص٢٠٥ : (إنّ الكتاب المقدّس نفسه يعتبر الحياة الدّنيا وحدها، هي عالم الإنسان، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك في بعثٍ وجنّةٍ أو نار.).

هذا ولم يكن الناس يعلمون في هذه المنطقة أكثر مما أورَدَتْه التوراة والأناجيل من أوامر ونواهٍ وأنظمةٍ للسلوك البشري. يوم طلع محمد اليتيم الأمّي على الناس بهذا القرآن العظيم، الذي احتوى على نهجٍ حياتيٍ علمّي. مُتجاوزاً بذلك مرحلة أنظمة السلوك البشري. حدث هذا لاكتمال عقل الناس، وتأهّلهم في نظر الخالق لتلّقي مثل هذا المنهاج القرآني المُختلف جذرياً عمّا أتت به تعاليم التّوراة والإنجيل.

وكما سبق أن قلت، فإنّ هذا المنهاج الحياتي العلمّي تضمنّته الآيات الأوائل من سورة البقرة من خلال قوله تعالى : ﴿**ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتّقين. الذين يؤمنون بالغيب. ويقيمون الصّلاة ومّما رزقناهم ينفقون. أولئك على هُدىً من ربّهم وأولئك هم المُفلحون.**﴾. ومن خلال هذه الآيات الكريمة

وماشتملت عليه من منهاج ودلالات أحدث القرآن الكريم ماعجزت عن إحداثه تعاليم التوراة والإنجيل من تغيير وتبديل وتطوير في حياة الناس أجمعين.

فما معنى قوله تعالى : ﴿**الذّين يؤمنونّ بالغيبّ**﴾؟

الإيمان من حيث دلالته اللّغوية، يشمل النظريّة والتطبيق، الاعتراف بشيء والتصديق به والعمل على مايستلزمه هذا الإيمان. أمّا الغيب في اللّغة، فهو كلّ ماستر عن الحواس وغاب عن علم الإنسان. وكلّ مكان لايدري الإنسان مافيه فهو غيب. كذلك فإنّ كلّ ماوراء أيّ موضع أو مكانٍ من الأمكنة فهو غيبٌ أيضاً. وعليه فإنّ الغيب، على حسب ماورد في معاجم اللّغويّين يشمل أولاً : كلّ مالا يقع تحت الحواس، ولاتقتضيه بداية العقول. كالحقائق الثابتة التي تحدّث عنها القرآن الكريم وهي الفطرة والنّفس البشرية والقوانين القدريّة وحياة مابعد الموت. فهذه حقائق نبّه القرآن الكريم المؤمنين إلى ضرورة الإيمان بها كحقائق ثابتة، من قبيل الغيب، الغائب عن الحواس. فلا يكتمل إيمان المسلم إلاّ بإيمانه بوجود هذه الحقائق، والاهتداء بتعاليم القرآن الكريم المتعلّقة بهذه الأمور الغيبيّة.

هذا الكتاب الذي برهن على وجود هذه الحقائق الغيبيّة بمختلف الأدلّة والبراهين. فمن يتابع تدبّر آيات القرآن من هذا المُنطلق المنهجيّ. تتراءى له علومٌ لم يسبق أن عرفتها البشرية من قبل نزول القرآن. وحتى إن البشريّة لاتزال دون مستوى معرفة تلك العلوم من نفسها يقيناً.

فهذا مادلّ عليه قوله تعالى : ﴿**الذين يؤمنون بالغيب**﴾. وقد شاء الله عز وجلّ أن يُنبّهنا إلى أنّ الإيمان بالغيب، إنما هو أساس العروج إلى الله والتقرّب منه. لذلك نلاحظ أنّه أضاف قوله : ﴿**ويقيمون الصّلاة**﴾. والصلاة في اللغة هي الدّعاء، وقد أتى الإسلام بالدّعاء بصيغة حركات الصلاة المعروفة وقراءاتها وأدعيتها. فجعل هذا هو الأسلوب المُعتمد في التوسّل بين يدي الخالق، وعلى أساسٍ من الإيمان بالغيب. فالصّلاة هي معراج المؤمن إلى ربّه وعماد دينه. والإسلام قد نسخ بهذا التعليم نظام الكهنوت الذي كان اليهود والنصارى قد التزموا به من قبل نزول القرآن الكريم. وقد جُعلت الأرض للمسلم نتيجةً لذلك مسجداً وطَهوراً. بعد أن حُذفت وساطة الكهانة مابين العبد الدّاعي وربّه. ولم يكن ذلك ممكناً زمن موسى وعيسى وبقيّة أنبياء بني إسرائيل. وقد أحدث القرآن

الكريم بهذا النهج التّقوويّ للحياة إنقلاباً جذرياً في تاريخ الأديان السّماوية. فلم يكن ماأتى به القرآن الكريم اختلاقاً من قبل محمد اليتيم الأمي والعياذ بالله، وإنّما حقّق هذا التّبديل الجذريّ تعليم ربّ العالمين.

من هذا لابد أن يكون القارىء قد أدرك سرّ بُطلان الصلاة دون التلاوة فيها بفاتحة الكتاب. فلم يعد هناك من محلّ للدعاء الإنجيلي : (أبانا الذي في السّماوات. ليتقدّس أسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السّماء كذلك على الأرض. خُبزنَا كفانا أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا. ولاتدخلنا في تجربة. لكنْ نجّنا من الشرير لأنّ لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين) متى ٦/٩.

أقول : لم يعد لهذا الدّعاء الإنجيليّ من مكان بعد نزول قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿**ويُقيمون الصلاة**﴾ لأنّ مشيئة الله التي اقتضيت تعليم الناس منهاجاً حياتياً ينهجونه ويعرجون به إليه تعالى، قد باتت كذلك على الأرض. فقد أتى ملكوت الله الذي أُنبيء عن نزوله في التوراة والإنجيل. و لم يعد للبشر من داعٍ يدعوه إلى الدّعاء، بألفاظ الدّعاء الإنجيليّ، من بعد طلب القرآن الكريم الذي طُلبه من المؤمن إقامة الصّلاة الإسلامية. فهذه الصلاة الاسلامية عادت طريق التوسّل والتضرّع بين يدي الله عز وجلّ. هذه الصّلاة التي شُرّعت لتشكّل صلة الإنسان الضعيف المتعبّد، بالله الخالق القوي الرحيم. فعادت الصلاة جزءً من خصوصيات الأمة الإسلامية ومن مُقوّمات وحدتها وتماسكها.

وقد صيغت الصلاة الإسلامية على هيئة وقوفٍ متأدّب ودعاء بدعاء سورة الفاتحة. وركوعٍ تجاه عظمة الله وتنزيهه بالقول سبحان ربّي العظيم. وسُجودٍ بين يديّ الله عز وجلّ، وتنزيهه بالقول سبحان ربّي الأعلى. فهذا المعراج الإسلامي قد صيغ على الصورة التي ذكرناها بأسلوبٍ علميّ، جوهره التوسّل والتضرّع بطلب الإهتداء إلى سبيل الذين أنعم الله عليهم بقربه وهدايته ووصاله من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين. فشتّان مابين دُعاء الإنجيل، ومابين الدُّعاء القرآني. وقد جاء في الحديث الشريف (مَثَلُ الصّلواتِ الخمس كمَثَلِ نهرٍ جارٍ غَمْرٍ على باب أحدكم، يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرّات.).

ولّما كان معراج المؤمن إلى ربه لايكتمل دون الإحسان إلى عباد الله تعالى ومخلوقاته ومحبّتهم، لذلك أتبَع الله عزوجل ذلك قوله : ﴿**ومّما رزقناهم**

يُنفقون﴾. والرزق في اللغة العربية يُراد به كلُّ ماينتفع المرء به من مالٍ وعلمٍ وصحّةٍ ومتاع لمصلحة جسمه ونفسه ودنياه وآخرته.

وليس المقصود بالرزق هنا الطعام والشراب والأنعام من حيث أصل دلاله هذا اللفظ، وإن استُعمل الرزق للمطر النازل من السّماء على سبيل الاستعارة. فهو تعالى عندما قال: ﴿**في السّماء رزقكم وماتوعدون**﴾، لم يقصد بقوله هذا الطعام والشّراب والأنعام وخيرات الطبيعة على أنّها مجموعةً في السّماء لتوزيعها. إنّما أراد أن أسباب توفّر هذه الأرزاق، يكمن في السّماء، وفيما تفيضُه به السماء على الأرض. إشارةً إلى تدخّل المشيئة السّماوية في أمر توفير هذه الأسباب.

والذي يؤيّد هذا المعنى، ملاحظتنا أنّه تعالى أقسم بعده مباشرة وقال : ﴿**فوربّ السّماء والأرض إنّه لحقٌّ مثل ماأنّكم تنطقون.**﴾ أي أنّ لربوبية خالقكم دخلٌ في كل ماينزل من السّماء من خير. أي أنّ أسباب رزقكم مفاتحه بأيدي ربوبيّته عز وجل.

وزبدة الكلام في معنى قوله تعالى :﴿**الذّين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومّما رزقناهم ينفقون**﴾. هو أنّ الله عز وجلّ، وقد بلغت البشرية دور رُشدها وتكاملها، فقد بعث محمداً ﷺ اليتيم الأمّي بهذا النّهج العلمي للحياة، هذا النهج الذي تضمّنته هذه الآية الكريمة من سورة البقرة، تنبيهاً لأذهان النّاس، إلى أنّه قد مضى زمن تلّقي أوامر السّماء المتضمّنة نظام سلوكٍ بشريّ، وآن للناس أن يتفكّروا في خلق السّماوات والأرض، وأن يتلّقوا منهاجاً للحياة علميّاً، قد أُسّس على نظريّات وفلسفات. وقد أوجز خالقنا هذا المنهاج في أوّل سورةٍ من كتابه القرآن، يدعوهم فيه للإيمان به والانطلاق في حياتهم اليومية على ضوئه ومن مُعطياته، هذا المنهاج الذي ارتكز إلى شُعَبٍ ثلاث هي الإيمان بوجود حقائق ثابته لاتُدركها حواسُّهم، بل تحتاج منهم لتدبّر مانزل بشأنها من تعاليم في هذا القرآن. وهي هذه الفطرة التي فطرهم خالقهم عليها، ونفسهم البشرية التي لابدّ من تطويرهم إيّاها، وهذه الحياة الآخرة التي ينبغي لهم أن يؤمنوا بوجودها ويضعوها في اعتبارهم، في كلّ مايقومون به ويُقدمون عليه من عملٍ أو تصرّف. عاقدين العزم على التقرّب من خالقهم الذي هداهم إلى هذا المنهاج، فضلاً من

ربوبيّته عليهم ومنّه ونعمة مقيمين هذه الصّلاة التي هي الدّعاء والتضّرع بين يديه عز وجلّ.

مُتّخذين منها معراجاً لهم يعرجون به إلى الله عز وجلّ. باذلين كلّ ماتفضّل الله عليهم به من مال وعلم وجهدٍ وطاقة، على مخلوقات الله وعباده من بني الإنسان، وهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان؟

وإنّ الذي يؤكّد مانبّهت إليه الآية من أمر هذا المنهاج الذي طرحه القرآن الكريم هنا، هو أنّه جلّ شأنه، بعد أن أنبأ بعد ذلك عن أنّ النّاس سينقسمون بعد إنزال هذا القرآن إلى فريق مؤمن، وآخر منافق وثالث كافر به، توجّه بخطابه إلى النّاس كافة يدعوهم للأخذ بمنهج الحياة العلمّي هذا، ليكونوا من المُتقيّن الذين يحذرون عواقب مايقومون به من أعمال، قال : ﴿**ياأيّها الناس اعبدوا ربّكم الذي خلقكم، والذين من قبلكم، لعلّكم تتقّون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسّماء بناءً، وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون.**﴾ البقرة (٢١). وأكّد لهم بعد ذلك أنّه تعالى لم يخلقهم عبثاً، بل ليعبدوه ويتقرّبوا إليه بهذه العبادة، وذلك بقوله تعالى :﴿**هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثمّ استوى إلى السّماء فسّواهُنّ سبعَ سماواتٍ، وهو بكلّ شيءٍ عليم.**﴾ ٢٩.

والعدد (سبع) لايقصد به رقمه، وإنّما الكثرة فقد نبّه صاحب معجم لسان العرب إلى أنّ رقمي سب وسبعون يستعملهما العرب لمجرّد الكثرة عموماً. والمعنى أنّه تعالى فتح لعباده المُصلّين آفاق سموّ لاتقف دونها حدود.

فهذه هي معالم "نهج المُتقّينّ الجديد الذي طلع به على الناس التعليم القرآني، وبشرّ به محمد اليتيم الأمّي. فهو نهجٌ قائمٌ على الإيمان بالغيب، وعلى معراج الصّلاة، وعلى البذل ممّا رزق الله تعالى المؤمن من مال وعلم وجهد.

فأنّى لمحمّد اليتيم الأمّي أن يأتي بهذا من عنده أو يبتدعه؟ ولو فُرض أنّه اطلّع على تعاليم التوراة والإنجيل من رُهبان عصره وبيئة، فشتّان مابين مُعطيات التوراة والأناجيل التي لم تتجاوز تعليم الإنسان اليهودي أكثر من مبادىء نظام سلوك بشريّ، ومابين مُعطيات هذا القرآن الذي أتى بمنهاج قائم على أساس إيمان بأمور غيبيّة لاتدركها حواس الإنسان. إضافة إلى أنّه فصّلَ هذا المنهاج وشرحه، وبما يتعلّق بهذه الحقائق الغيبيّة تفصيلاً لاتغيب عنه منها شاردة

ولاواردة. وقد أثبتت الأيّام صحّة ماأتى به القرآن بشأن ذلك من عظاتٍ روحيةٍ وتعاليم.

وهل كان بإمكان عبقريّ دينيّ، مهما بلغ شأن عبقريته، أن يتحولّ بنظامٍ سلوكيٍ ما، إلى منهاجٍ ينطوي على مالا تدركه حواسه؟ إلى منهاجٍ لم يأتِ به إنسانٌ سواء أكان هذا الإنسان عالماً أو صالحاً أو نبيّاً إلاّ عن طريق وحي ربّه الذي يعلم السرَّ وأخفى؟

وهاهم أولاء اليهود والنّصارى، وبين أيديهم تعاليم التوراة والإنجيل، قد أنجبوا في القرن التاسع عشر من أسموه عبقريّ زمانه، ظنّاً منهم إحاطته بعلم غيب النفّس البشرية، وهو العالم اليهودي (فرويد). فهم هلّلوا يومذاك لكُتُبه وصفّقوا لها تصفيقاً طويلاً صاخباً. لكنّه مـاإن أهّل عليهم القرن العشرون، حتى أدرك باحثوهم خطأ جميع ماأتى به (فرويد) من تأويلاتٍ وتفسيراتٍ للنفّس البشرية. فعاد هذا اليهودي باحثاً عادياً في أعين أهله وقومه، بعد أن تبيّن لهم أنّ أشياء هذا الكون ماهي بمادّة محضةٍ، بل تحتوي على عُنصرٍ روحّيٍ غيبيّ، غاب عن أعين الناس وحواسّهم، وقد بسطْتُ القول في ذلكَ ضمن كتابي (النظرية القرآنية الكونية) فليرجع إليه.

ومادام البشر لم يحيطوا علماً حقيقياً بحقائق الغيب حتى عصرنا هذا. فكيف يزعم الأب حداد ومن على شاكلته من أعداء الإسلام أنّ محمّداً قد صاغ معلومات التوراة والإنجيل بعبقريّته الدّينية الفذّة وبلسان عربيّ مبين؟

ثم إنّ الباحث المتدبّر لايلاحظ معالم منهج الحَياة العلمي هذا في التّعليم القرآني وحسب. بل يلاحظ إلى ذلك اقترانه بمنطلقاتٍ نظريّةٍ مدهشةٍ، لابدّ من اعتمادها والتّركيز عليها لتوحيد العالم، على أساس هذا المنهج الرّوحي. فقد جاء بعد آية المنهج المذكورة قوله تعالى: ﴿**والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وماأُنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدىً من ربّهم، وأولئك هم المفلحون.**﴾ أي أنّ القرآن الكريم أمر، إلى جانب ضرورة الأخذ بمنهج الحياة العلمي هذا، أمر بالإيمان بما أنزله الله قبل ظهور الإسلام، والاعتراف والتّصديق بجميع مانزل من كتبٍ سماوية وتعاليم على أيدي الأنبياء والمرسلين. على اعتبار أنّ جميع ماأنزله الله من قبل كان يشكّل حلقاتِ توطئةٍ وتمهيد وإرصاد لنزول

هذا القرآن العظيم. فهذا النهج، وبهذه المنطلقات بالإمكان توحيد عالمنا، وعليه يرتكز تقدّمه وترقيّه.

وقد كان هذا الإنجاز الذي حقّقه القرآن الكريم في تاريخ البشر، قفزةً فريدةً مُتميّزة، مَنحَته سِمَةَ العالمية. ورسخت في أذهان البشر عقيدة وجود الخالق ربّ العالمين. كما أثبتت هذه القفزة من جهةٍ أخرى أنّ بعثة محمد اليتيم الأمي ﷺ كانت رحمةً للعالمين.

فشتّان مابين هذا الذي جاء به القرآن، وماجاءت به التّوراة والإنجيل على هذا الصّعيد، ففي الوقت الذي أتت التوراة فيه بتعاليم نظام سلوكٍ بشريّ، لايتعدى مجرّد الأمر والنهي (لاتقتل، لاتزن.. الخ) دون منهجٍ أو بيان حكمةٍ لهذه الأوامر أو النّواهي. أتى هذا القرآن الكريم بنهجٍ علميٍّ للحياة ومبادىء لتوحيد العالم بأسره، على أساس وجود إله واحد خالقٍ هو ربّ العالمين. مارّاً مرور الكرام على ماأوردته التوراة في سفر الخروج ٢٠/١-١ : (أنا الرّب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر بيت العبوديّة، لايكن لك آلهةٌ أخرى أمامي.) هذا الكلام الذي يستشعر المرء من سماعه أنّ الربّ الإله مُختصٌّ ببني إسرائيل. وكأنّ ثمّة آلهة أخرى سواه، لأممٍ أخرى غير بني إسرائيل، ساكتاً عن وجود ربّ العالمين.

والسؤال هو: هل يصحّ أن تكون عبقرية محمد اليتيم الأمّي قد قويت على تجاوز الحواجز العنصرية والإقليمية من نفسها، وعلى ابتداع هذا النهج العلمي للحياة لمجرّد اطّلاع محمد رسول الله على مالدى رُهبان عصره من نصوصٍ توراتيّة وانجيليّة، أو لمجرّد إفادته ممّن لقي من أناسٍ خلال متاجرته بمال خديجة : يهوداً كانوا أو نصارى؟

أقول : لايستطيع عاقل، أيّ عاقل، التّسليم بهذا الزّعم وهذا الإدّعاء. إذ ليس في إمكان محمد وعبقريّته أن تطّلعا على ماغاب عن الحواس. وأيّ داعٍ يدعوه إلى مؤاخاة الرّومي والفارسّي، وقد كانا أمّتين تستهينان بالعرب والعربيّة، وتطمعان بالهيمنة على شبه جزيرة العرب؟

ألا إنّ هذا الطّرح المنهجي الذي لم يسبق لأحدٍ في تاريخ البشر أن طرحه. وهذا الأساس المتين الذي استعان به لتوحيد شعوب الأرض، ماكان ليأتي في الآيات الأوائل من هذا القرآن، إلا بتخطيطٍ من الله الخالق، ليكون

هذا المنهج والأساس، دليلاً قاطعاً على أنّ محمّداً ﷺ اليتيم الأمّي لم يفتر هذا القرآن على ربّه. بل كان هذا الوحي القرآني تنزيلاً ورحمةً من ربّ العالمين.

❁❁❁

٨ً ـ دليل المصداقية الثامن :

والدليل الثامن والقاطع الدّلالة على أنّ محمداً رسول الله ﷺ لم يفتر هذا القرآن من عند نفسه، هو مُعجزة الأذان الاسلامية.

نتساءل عن سرّ امتياز الإسلام بهذه الوسيلة الإعلامية؟ وتتبيّن حكمة ذلك من خلال ماسلف أن أوردناه في دليلنا السّابع. وهو أنّ تعاليم التوراة المعاصرة خاطبت عشيرة بني اسرائيل الذين كانوا لايزالون في دور طفولتهم العقليّة والعلمية، لذلك أتت تلك التعاليم مجرّد تعاليمَ لنظام سلوكٍ بشريٍ لطائفة محدودة من البشر حصراً، لاتتجاوزهم في الدعوة إلى الخلق عامة.

هذا وإنّ قرع النواقيس والنفخ في البوق دعوةً للمصلّين، شكلّت يؤمئذٍ الأداة البدائية الصالحة لمن كان في المراحل الأولى من الوعي، وهذه الوسائل الإعلامية البدائية، تُعدّ في حدّ ذاتها الدليل الواضح الذي يُنبّه أذهاننا إلى أنّ الله تعالى لم يبعث موسى وعيسى بدعوةٍ وتعاليم عالميةٍ، بل كان بعثهما إلى خراف بني اسرائيل الذين استعبدهم فرعون مصر. خصوصاً وأنّه تعالى أطلعنا على ذلك في القرآن الكريم من أنّ قوم موسى كانوا مُستضعفين عند فرعون. كما أخبرنا أنه كان أرسل رسوله عيسى بن مريم إلى بني اسرائيل تكملةً لما جاء به موسى والأنبياء من بعده.

فهذا الفرق الحادث مابين الإعلامين: الإسرائيلي والإسلامي يدلّ دلالة واضحةً على أنّ محمداً اليتيم الأمّي لم يتتلمذ على أيدي الراهب بحيرا ولا على أيدي سواه من الرُّهبان. خصوصاً وأنّ الأذان الإسلامي الإعلامّي لم يوح به إلى محمّدٍ ﷺ نفسه، بل أوحي به إلى صحابيين من أصحابه، وأحدهما عمر بن الخطّاب الصّحابيّ المشهور.

والآن لنمعن نظرنا في كلمات الأذان نفسه. ابتداءً مما أورده أصحاب المعاجم في مفرداته . قال صاحب محيط المحيط : أذّن المؤذّن بالصّلاة : أعلم بها. وأذّن الأمر: أكثر إعلامه. والأذان معناه الإعلام مُطلقاً. والأذان في الشّرع : إعلامٌ على وجه مخصوص. وبناءً عليه فالأذان يعني الإعلام. وهو بذلك يشكّل وسيلةً إعلاميّةً متحضّرة لاتُشبه وسيلة الإعلام البدائي، المتمثّل بقرع أجراس الكنائس، كما تُقرع أجراس المدارس لتنبيه الطلاّب.

والذي يُريد إعلام جماعة متعبّدة، إعلاماً واعياً، ليذكّرهم فيه بعبادة ربّ العالمين، لابدّ له أن يُخاطبهم مخاطبة ذات دلالة، وهكذا الحال في كلّ أمرٍ هام يراد إبلاغهم ايّاه قال تعالى : ﴿**فلّما جهّزهم بجهازهم، جعل السّقاية في رَحل أخيه، ثمّ أذّن مؤذّنٌ أيّتُها العير إنكّم لسارقون.**﴾ يوسف (٧٠) فقد عمد يوسف عليه السّلام إلى الأذان لإخبار القوم بأمرٍ هام. وقد كانت وسيلته هذه وسيلةً مُتحضّرة.

وكان الصّحابة قد تشاوروا قبل فرض الأذان على أن ينصبوا علامةً يعرفون به وقت الصّلاة. فأشار بعضهم بالناقوس. فقال الرسول هو للنّصارى وأشار بعضهم بالبوق. فقال الرسول هو لليهود. وأشار بعضهم بالدّف، فقال الرسول هو للرّوم. وأشار بعضهم بإيقاذ النار، فقال الرسول ذلك للمجوس..

فقام رسول الله ﷺ مُهتمّاً بهذا الأمر، فرأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة في تلك اللّيلة في نومه ملكاً علّمه الأذان والإقامة. فأخبر النبي ﷺ بذلك، وأردف على ذلك عمر بن الخطّاب (رضى) أنّه رأى مثل مارأى زيدٌ في منامه. فقال رسول الله ﷺ لقد شرّع الله تعالى لنا الأذان إعلاماً وتذكيراً. وحديث عبد الله بن زيد بن ثعلبة هذا مشهور.

والذّي سنّه لنا رسول الله ﷺ هو أن ندعو به بعد سماع الأذان: (اللّهم ربّ هذه الدّعوة التّامة، والصلاة القائمة، آتِ مُحمّداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته.). ليدعو المسلم بهذا الدُّعاء مُنطلقاً بذهنه من أنّ الأذان هو (دعوة تامّة). أي دعوة إعلامية احتوت على لُبّ لُباب التعاليم الإسلامية، وصيغت وسيلة دعوةٍ إعلاميّة تامّة، ناطقة، حسنة البيان، بليغة الإيجاز. فلا تحتمل أن يُنقص من ألفاظها لفظاً واحداً، أو يُستبدل كلمةً بأخرى، أو يُزاد على ألفاظ الأذان ألفاظاً وجُمَلاً. لأن الأذان جاء (دعوة تامة)، على حسب التّعريف المنصوص عليه في هذا الدُّعاء المسنون والمتواتر عن محمد رسول الله ﷺ.

وهذا الأذان يُنبّهنُا إلى حقيقة أنّه مُعجزةٌ إعلاميّة، وتمثّل إحدى تجليّاتِ ربّ العالمين. فهذا هو مايُستدل من الدُّعاء المسنون: (اللهم رب هذه الدعوة

التامّة). وقد أتت هذه الوسيلة الإعلامية متحضّرة وعامـة، على مستوى كمـال التعاليم التي أتى بها الدّين الإسلامي.

نتبيّن، على أساسٍ من هذا الفهم، علاقة مُعجزة الأذان الإعلامية بعمليّـة جمع المؤمنين للصّلاة بين يـدي خـالقهم ومعبودهـم كمـا نتبيّـن أن هـذه الوسـيلة الإعلاميّة، يبدو إعجازها أيضاً، من خلال اختراقها لجميـع الحواجـز الماديّـة علـى صعيد الواقع. فهي تقـرع بالتّذكـير أسمـاع أعتـى جبـابرة الأرض بطشـاً وتجبُّراً، بإيجـاز بليـغ جـامعٍ مـانع. إلى جـانب أنّ مُعجـزة الأذان هـذه اعتبُرت في ديننـا الإسلامي شعيرةً من شعائره نصّاً ومعنى.

فإذا انطلقنا الآن نتفّهم الأذان على أساسٍ مـن تعريفـه الـذي نـصّ عليـه دُعاء مابعد الأذان (اللّهم ربّ هذه الدعوة التامة..) وعلى أنّه دعوةٌ تامّـةٌ وإعـلامٌ وتذكير ونداء جاء في كمـال البلاغـة والإيجـاز. فلابـدّ أنّـه احتـوى علـى مقدّمـة ومضمون وخاتمة. ذلك أنّ هذه الأمـور مـن علامـات كمـال مثـل هـذه الدّعـوة التّامة، وعليه أنطلق في شرح الأذان من هذا المُنطلق الموضوعي.

ومادام الأذان في غاية البلاغة والإيجـاز، فلابُـدّ أن تُعـدّ أوّل جُمَلِـهِ (ا لله أكبر) مقدّمة لمضمونه. وأن تُعدّ آخر جُمَلِهِ (لاإله إلاّ ا لله) خاتمةً لهـذا المضمـون. ومابين جملتي المقدمة والخاتمة مضمون الأذان نفسه.

من هذا المُنطلق، نتدبّر جُملتي المُقدّمة والخاتمة، بنهـجٍ علمّـي قـائمٍ علـى أساسٍ من الملاحظة. فالذي نُلاحظه هو أنّه في حين تبتدىء جُملـة المُقدّمـة بلفـظ الجلالة (ا لله)، تنتهي جُملـة الخاتمـة بنفـس اللّفـظ (ا لله). ونستنتج مـن ذلـك أنّ مضمون الأذان إعلامٌ حول وجود (ا لله) عز وجلّ.

ونلاحـظ أيضـاً أنّـه في حـين ورد لفـظ (ا لله) في المقدمـة مُعرّفـاً بصفـة (أكبر). وأكبر صيغة تفضيل، أي أنّ فهم الناس وإدراكهـم مهمـا عظُـم واتّسـع، فلا يتّسع للإحاطة بعلـم ذات ا لله، علـى اعتبـار أنـه تعـالى أكـبر مـن كـلّ كبـير يعرفونه، فقد لاحظنا أن جُملة الخاتمة: (لاإلـه إلا ا لله) أوردت لفـظ (ا لله) علـى أنّه لاإله في الوجود إلاّ هو أي لاوجود مستحقٌّ من الإنسان المحبّة والعبادة إلا ا لله عز وجل. على اعتبار أن لفظ (إله) اشتق من الوَلَه. وهذا الأمر ينطق بقـدرة ا لله وعظمته وسعة علمه وإحاطته ورحمته.

وعليه، ومن خلال هاتين الملاحظتين، نكون قد استنتجنا أنّ مقدّمة الأذان، وخاتمته قد تناولتا وأوجزتا مضموناً واحداً، إنّما من زاويتي نظر مُختلفتين. قد أوجزتا أنّ تعاليم الإسلام تدور جميعها حول ذات الله المقدّسة، وكبريائها وعظمتها.

ثم إنّ هذا الإسم (الله) الذي نادى الأذان إليه، هو إسم جامدٌ ذاتي تفرَّدَتْ اللغة العربية به، ولم يورده أيّ دين غير الإسلام. فالله هو الإله مُعرّفاً، وكأنّ هذا الإسم قد خُصّ بذات الله جلّ ذكره.

ونتناول مضمون الأذان، أي مابين جُملتي مُقدّمة الأذان وخاتمته. وهو: (أشهد أن لاإله إلا الله، وأشهد أنّ مُحمّداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، الله أكبر.). علماً بأنّ كلّ جملة منها يكرّرها المؤذن مرّتين.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ماالدّاعي ليقول المؤذّن (أشهد)، أي ماالداعي لشهادة المؤذن نفسه ضمن هذه الوسيلة الإعلامية؟

ونجد الإجابة على هذا التساؤل فيما أفادته دعوى جملتي المقدمة والخاتمة، وهي الإعلان عن وجود الله وكبريائه وعظمته، فهي دعوى احتاجت إلى دليل وإثبات. وقد جيء بشهادة المؤذّن إثباتاً لصحّة هذه الدّعوى وتكرّر مرّتين أيضاً. فالمؤذّن يقدّم نفسه في هذه الحالة كشاهد إثبات، على أنّه بحث وآمن وتعرّف إلى الله أيضاً.

وقامت شهادة المؤذّن على إثبات أمرين اثنين تدور حولهما تعاليم الإسلام هما (أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله) كأوّل جُمَلِ مضمون الأذان.

وسؤال آخر يطرح نفسه: مادلالة أن يُنادي المؤذّن (حيّ على الصلاة) وهو يلتفت بوجهه نحو يمينه؟

ونجد الإجابة في كتاب الله القرآن نفسه، الذي اصطلح على تسمية المؤمنين بأهل اليمين. فالمؤذّن يلتفت إلى ميمنته كرمز يوحي من خلاله أنّه يحثّ المؤمنين للاجتماع للصلاة. ثم إن القرآن الكريم اصطلح لغير المؤمنين اسم أهل الشّمال. والمؤذّن يلتفت إلى شماله كرمز يوحي من خلاله أنّه يحث المؤمنين للتحقيق في أمر الإسلام وتبيّن أنه طريق الفلاح. فالمؤذّن يقدّم نفسه شاهداً حيّاً على تبنّي الصّلاة الإسلامية من جهة، وتبيّنه بصورة عملية طريق الفلاح.

وكأن المؤذّن يقول بألفاظٍ أخرى: إن الحياة الدّنيا تتأرجح مابين حياة خُسران وحياة فوز وفلاح، وأنّ الإيمان با لله وبرسوله وتبني تعاليم الإسلام عمليّاً هو طريق الفوز والفلاح.

ويُنهي المؤذّن مضمون أذانه بجُملة (ا لله أكبر) أي لامرجعيّة للإنسان في حياته ولاسبيل لنجاته وفلاحه إلاّ الرّجوع إلى ا لله الذي لايفوقه في عظمته ووسيلة هدايته أي عظيم دونه. على اعتبار أنّ (أكبر) هي صيغة تفضيل.

هذه هي دلالات ألفاظ وسيلة الأذان الإسلامية المُعجزة ورموز حركات المؤذّنين. فإن أمعن المرء فيما يتركه الأذان من آثار في نفوس سامعيه، فسيعلم أنّ ألفاظ الأذان تُحرّك عقولهم، وتهزُّ أوتار أفئدتهم هزّاً عميقاً، لايهزُّها شيء آخر مثله.

وهكذا فإنّ الأذان، وعلى الصّورة التي وضّحتُها، يُعدُّ دعوةً تامةً موجهة إلى النّاس كافة، له مقدّمته ومضمونه وخاتمته.

فهو كتابٌ إعلامّي موجّه إلى المؤمنين وغير المؤمنين في آنٍ واحد، وضمن خطّة إعلامية مُتّصفةٍ بصفة العقلانية والمنطقية والحضارية.

الأذان خطّة عقلانية، لأنّها بألفاظها تقرع القلوب وتمضي إلى الأفئدة تحمل إليها نَسمات الإيمان والهداية.

والأذان خطّة منطقيّة اقتضتها دعوة الإسلام الشاملة للناس كافة، والأذان خطّة حضارية، على اعتبار أنّها تمثّل تعاليمَ منهجيّة علميّة مؤيّدة بالأدلّة والبراهين، وتصل هذه التعاليم بالإنسان مرحلة الهداية واليقين الجازم أيضاً. وعليه فقد أتت معجزة الأذان الإسلامية مؤثّرة فعالّة ومُشوّقةً وجذّابة تخترق الآذان، وتنحدر إلى القلوب، في وقت صيغت فيه سهلةً على الأفهام والسّماع، وإلى جانب ماا حتوته من جدّةٍ وحكمةٍ بالغة.

والآن فهل يستسيغ عقل مفكّر أن يُوحى إلى شخصين في ليلةٍ واحدةٍ بألفاظ هذا الأذان الإسلامي، وعن طريق رؤى رآها هذان الشّخصان ويكون لمحمد اليتيم الأمّي دخلٌ في ذلك؟ فمن أين لهؤلاء الأميّين أن يبتدعوا وسيلة إعلاميّة حضاريّة وبهذه المتانة الموضوعيّة أيضاً؟

ولِمَ لم تخطر أيّة وسيلة إعلامية مثلها لأذهان جميع أنبياء بني اسرائيل؟ وهم الذين اعتبروا أنفسهم الشّعب المختار (ليهوه) الإله الرّب كما تسميّه هذه التوراة المعاصرة والتي كانت نفسها بين يدي (بُحيرا) وسواه؟

فمن أين كان لمحمّد اليتيم الأمّي أن يَدُلّه الراهب بُحيرا على هذه الوسيلة الإعلامية (الأذان)؟ ومن أين كان لهذا الرّاهب أن يبتدعها، وهي خارج إطار تعليم دينه؟ وكيف يزعم بعد ذلك الأب حدّاد ومن على شاكلته أنّ محمداً رسول الله اقتبس تعاليم التوراة والإنجيل عن رُهبانهم وصاغها بلسانٍ عربّي مبين؟

ونخلص من هذا كله للقول: إن مُعجزة الأذان الإسلامية الإعلامية هي في حدّ ذاتها الدليل القاطع على مصداقية القرآن ومصداقية نبيّه محمد ﷺ اليتيم الأمي. هذا القرآن الذي أنزله الله على قلبه ليكون رحمة للعالمين.

٩ً ـ دليل المصداقية التاسع:

والدليل التاسع على مصداقية القرآن الكريم، وإثبات أنّه لم يكن من تأليف محمد اليتيم الأمّي، هو نزوله مصدّقاً لنبوءات التوراة والإنجيل، بالرغم من كون هذين الكتابين مُحرّفين.

هذا، وإنّ الذي يدعو للدهشة، هو أنّ القرآن الكريم لفت أنظار الباحثين إلى هذا الدليل، وذلك في أوّل آيةٍ منه، من خلال قوله تعالى: ﴿ آلم. **ذلك الكتاب، لاريب فيه، هُدىً للمُتقيّن.**﴾. أفلم نلاحظ كيف أن الله تعالى استبدل إسم الإشارة للقريب بإسم الإشارة للبعيد، فلم يقل في هذه الآية المذكورة (هذا الكتاب) بل قال (ذلك الكتاب). والمعروف في علوم اللغة العربية أنّ حكمة هذا الإستبدال، فيه الإشارة إلى عظمة شأن القرآن الكريم، إظهاراً لحقيقة مُحتواه. وإنّه لأسلوبٌ بيانّي سديدٌ وبليغ.

فماهي ناحية العظمة لشأن هذا القرآن التي أشار إليها هذا الاستبدال في هذا المقام؟ ونجد الجواب في حكمة تعريف لفظ (الكتاب) هنا بالألف واللاّم. فلم يقل الله عز وجل (هذا كتاب لاريب فيه) بل قال ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه**﴾. فالألف واللاّم العهدية التي عُرِّفت بها كلمة (كتاب) هنا، كان المقصود بها نقل ذهن القارىء إلى أمرٍ معهود في أذهان اليهود والنصارى قبل نزول

القرآن، وهو أنّ الله تعالى سيبعث نبيّاً مُشرّعاً مثيل موسى ويُنزل عليه كتاب تشريع أيضاً. فهذا الأمر المعهود في أذهان اليهود والنّصارى هو ماأنبات عنه التّوراة والإنجيل. وعليه فإن المقصود من تعريف كلمة (كتاب) هنا كان الإعلان أنّ هذا القرآن الذي نزل على قلب محمد اليتيم الأمي ﷺ قد جاء تصديقاً لتلك النّبوءات. لذا فهو كتابٌ ذو شأن عظيم.

وقد زادنا الله عز وجلّ إدراكاً لعظمة شأن هذا القرآن حين أضاف قوله تعالى: ﴿**لاريب فيه هُدىً للمُتّقين.**﴾. أي أنّ عظمة شأن هذا الكتاب المعهود نزوله ذهنياً عند اليهود والنصارى يتأتّى أيضاً من كونه ﴿**لاريب فيه**﴾ هو مُتّصفٌ بكمال الصنعة لُغةً ومضموناً. كذلك فإنّ آياته مُبرّأةٌ عن أن يأتيها الباطل والشّك من حيث صياغتها ومن حيث دلالاتها.

وإضافةً إلى هذا وذاك فإنّ هذا الكتاب ﴿**هدىً للمُتقين**﴾. أي أنّه احتوى على نهجٍ للحياة علمي خاطب عقول المؤمنين. على اعتبار أنّ البشر أمسوا مُؤهّلين لتلقّي مثل هذا النهج الفلسفي، متجاوزين بذلك مرحلة التّعليم التوراتي الذي كان أتى على شكل نظامِ سلوكٍ بشري، وفقاً لاحتياج البشر من بني اسرائيل في زمن إنزاله، علماً بأني وضّحت معالم هذا النّهج في الدليل السّابع سابقاً.

على هذه الصورة، ومن خلال هذا الفهم، وتجاه هذا الدّليل الذي قدّمه القرآن الكريم في أول آيةٍ من سورة البقرة إثباتاً لمصداقيّته، نجد أنفسنا مُلزمين بالعودة إلى مضامين التوراة نفسها باحثين فيها عن هذه النبّوءات. وإن كُنا مُوقنين أنّ التوراة المعاصرة لاتزيد عن كونها مجموعة أسفار قصصيّة، وأنّها تعرّضت للتحريف، لكن من واجبنا أن نعترف في الوقت نفسه بفضل هذه التوراة، من حيث أنّها زوّدتنا بمعلوماتٍ قيّمةٍ عن سير حياة أنبياء بني إسرائيل وتعاليمهم على وجه التقريب.

والذي نلاحظه هو أنّ التوراة تبتدىء بسفر التكوين، هذا السّفر الذي يحكي لنا قصّة خلق العالم وخلق آدم، ومأأنجبه من أولاد حتى بعثة نوحٍ وإبراهيم، وانتهاءً بقصّة يوسف عليه السّلام.

والسّفر الذي يأتي بعد سفر التكّوين، هو سفر الخروج، ويحكي لنا قصّة يوسف وولادة موسى في بيت فرعون ونُبوّته، وخروجه من مصر ببني

إسرائيل، وتخليصه إيّاهم من عبوديّتهم، وانتقاله بهم إلى صحراء سيناء. كما يحدّثُنا سفر الخروج عمّا أوصى موسى قومه بعد الإنتقال بهم إلى هناك.

والسّفر الذي بعد الخروج هو سفر اللاّويّين. ويحتوي على الوصايا التي أوصى بها موسى قومه عند جبل سيناء. وسفر اللاّويين هو عبارة عن قصّةٍ أيضاً يرويها كاتبها، بدليل أنّه أنهاها بقوله: (هذه هي الوصايا والأحكام التي أوصى الرّب بها موسى إلى بني إسرائيل في جبل سيناء).

ويأتي بعده سفر العدَد، ليكُمل به هذه الوصايا. حيث يقول كاتبه عند نهايته: (هذه هي الوصايا والأحكام التي أوصى بها الربُّ إلى بني اسرائيل، عن يد موسى، في عربات مؤاب، على أُردن أريحا).

ويأتي بعده سفر التثنية، ويقصُّ فيه كاتبه ماحدث في أواخر أيّام موسى. كما يروي أنّ موسى عاش مائة وعشرين سنة ومات في أ رض مؤآب، وأنّ آثار قبره كانت قد ضاعت، حين كتابة الكاتب هذا السّفر. أي أنّ كاتب سفر التثنية، كتبه بعد مُضيّ عِدّة قرون على وفاة موسى. والذي يؤكد ذلك أيضاً، قول الكاتب نفسه قبل انتهائه من كتابه سفر التثنيّة المذكور: (ولم يُقم بعدُ نبيٌّ في إسرائيل مثلُ موسى الذي عرفه الرّب وجهاً لوجه..).

والذي يُهمُّنا نحن هو البحث عن نُبوءاتٍ جَعلت بفضل الله في بُطون هذه الأسفار التوراتية، مؤكدةً لنا صحّة الدّليل الذي قدّمه القرآن الكريم في أوّل آية من آياته، تدليلاً على مصداقيّته.

ويدفعنا منطق البحث حثيثاً، لنبحث عن هذه النّبوءات في سفر التثنيّة، بصورة خاصة. على اعتبار أنّه يحكي لنا قصّة آخر أيّام موسى مع قومه. والمنطق يقتضي أيضاً أن يكون النّبي موسى قد تلقّى في آخر أيام دعوته نبوءات عن مُستقبل أمّته، وبما يتعلق بنزول القرآن الكريم خاصة وعن بعثة محمّدٍ سيّد المُرسلين. فهذا الأمر يهدي إليه منطق الأحداث وسير الأمور.

والحقّ أننا إذا تصفّحنا سفر التّثنية، ووصلنا إلى الإصحاح الثامن عشر منه، حيث يروي لنا الرّاوي وصايا موسى الموجّهة إلى قومه والتي كان ينبغي لهم أن يعملوا بها عند اقتحامهم لأرض كنعان، واستقرارهم فيها. فإنّنا سنجد عند الجملة (١٥) أنّ موسى أوصى قومه قائلاً: (متى دخلت الأرض التي يُعطيك

الربّ إلهُك، لاتتعلّم أن تفعل مثل رِجْس أولئك الأمم.) وقد قصد بأولئك الأمم الكنعانيّين الذين كانوا على الوثنيّة في تلك الأيّام.

وهُنا يُضيف الرّاوي أنّ موسى قد تلقّى نبوءةً في تلك الأيّام، استجابةً من الله لطلبه الذي طلبه في منطقة حوريب التي مات فيها ودُفن. وأنّ هذه النّبوءة تتعلّق بمستقبل قومه بني اسرائيل. وهذه هي ألفاظ النّبوءة كما رواها كاتب سفر التّثنية: (لاأعود أسمع صوت الرّب إلهي، ولاأرى هذه النّار العظيمة أيضاً لئلاّ أموت.) ويُجيبُه ربّه قائلاً: (أُقيم لهم نبيّاً من وسط إخوتهم مثلَكَ، وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكلّ ماأوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لايسمع كلامي الذي يتكلّم به بإسمي أنا أُطالبه، وأمّا النبيّ الذي يُطغي، فيتكلّم بإسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلّم به، أو الذي يتكلّم باسم آلهةٍ أُخرى، فيُقتل[1] ذلك النبي. وإن قُلت في قلبك: كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب؟ فما تكلّم به النبيُّ باسم الرّب و لم يحدث، و لم يَصِرْ. فهو الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب، بل بطُغيان تكلّم به النبي، فلا تخف منه). سفر التثنية ١٨/١٨-٢٢.

وإنّها لنبوءةٌ عظيمة الشأن حقّاً، تفضّل بها علينا راوي التّوراة، فوثّقها لنا لاشتهارها في زمنه يقيناً بين أفراد بني اسرائيل. فقد كانت هذه النّبوءة العظيمة التي بشّرتهم ببعثة نبيّ مُشرّعٍ من إخوتهم من بني إسماعيل، كانت نبوءة معهودة في أذهانهم على الدّوام، لذلك تلقّاها راوي التّوراة ووثّقها في سفر التثنية المذكور.

وقبل أن أعمد إلى شرح هذه النّبوءة لأثبتت أنّها هي المشار إليها ضمن أوّل آيةٍ من آيات القرآن المُبين.

أعود بكم بادىء ذي بدء إلى قصّة ابراهيم عليه السّلام. فهو الأب لهاتين السّلسلتين من ذريّته: اسحاق وإسماعيل. وأعود بكم إلى ألفاظ الروايات التوراتية نفسها، على حسب ماوردت، وأرجو أن يُلاحظ القارىء هُنا أنّ أحداً من رواة التّوراة أو الإنجيل لم يزعم أنّ كتابه السّماوي هو آخر الكتب السّماوية. أو أنّ أنبياءه كانوا آخر الأنبياء المرسلين. بل العكس هو الصحيح. ذلك أنّ نبوءة سفر التّثنية التي نحن بصددها تؤكّد حقيقة أنّ أنبياء بني إسرائيل وتعاليمهم،

---

[1] ملاحظة: هذا لفظ الطبعة التوراتية ماقبل عام (١٨٧٠)م، وقد حرّفوها فاستبدلوها بكلمة (يموت) بعدها

باعترافٍ من موسى عليه السّلام نفسه، لم تكن آخر التّعاليم ولاآخر الأنبياء. فالذي يعلمه كلّ دارس لتاريخ الأديان هو أنّه لم يبعث الله تعالى من بعد موسى وأنبياء أمّته أيّ نبيّ مُشرّع ومعه كتاب تشريع إلا القرآن الكريم ومحمداً خاتم النبيّين.

ويظنّ بعض السّطحيين خطأً أنّ عيسى كان نبيّاً مُشرّعاً. وكيف يكون كذلك وهو الذي قال في إنجيل متّى ٥/١٧-١٩ بالحرف الواحد: (لاتظنّوا أنّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ماجئت لانقض بل لأُكمِل. فإنّي الحقّ أقول لكم: إلى أن تزول السّماء والأرض، لايزول حرفٌ واحدٌ أو نقطةٌ واحدة من النّاموس، حتى يكون الكُلّ، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصُّغرى وعلّم الإنسان هكذا، يُدعى أصغَر في ملكوت السمّاوات.). فالمسيح بقوله هذا قصد بالنّاموس شريعة موسى ووصاياها ونبوءاتها. وأنكر أن يكون ربُّه قد بعثه بشريعةٍ جَديدة. مؤكّداً أنّ بعثته تُكمل تعاليم التوراة ووصاياها ونبوءاتها.

وأعود إلى سفر التكّوين لأنقل منه قبساً ممّا أوحاه الله تعالى إلى ابراهيم عليه السّلام. فقد ورد في الإصحاح ١٥/١٨: (في ذلك اليوم قطع الرّب مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لِنَسْلِكَ أُعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النّهر الكبير، نهر الفُرات.).

وروى هذا السّفر عن هاجر زوجة إبراهيم في الاصحاح ١٦/١٠، أنّه ظهر لها ملاكُ الرّب، وقال لها: (هاأنت حُبْلى فتلدين ابناً. وتدعين اسمه اسماعيل، لأنّ الرّب قد سمع لمذلّتك.. فولدت هاجر لأبرام ابناً. ودعا أبرامُ اسم ابنه الذي ولدته هاجر، اسماعيل وتكلّم الله معه قائلاً: أمّا أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يُدعى اسمك بعد أبرامَ، بل يكون اسمك إبراهيم، لأنّي أجعلك أباً لجمهور من الأمم. وأُثمرك كثيراً جدّاً، وأجعلك أُمَماً، وملوكٌ منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهداً أبديّاً.) ١٧/٥ (فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك إبناً وتدعو اسمه إسحاق، وأُقيم عهدي معه عهداً أبديّاً لنسله من بعده، وأمّا اسماعيل فقد سمعت لك فيه، هاأنا أُباركه وأثمره وأكثّره كثيراً جدّا. اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أُمّةً كبيرة.

ولكن عهدي أقيمه مع اسحاق الذي تلده لـك سارة، في هـذا الوقـت في السّـنة الآتية..) ١٧/٢١.

ونلاحظ أنّ الرّاوي في سفر التكّوين يروي لنا أنّ هاجر وابنها اسماعيل سكنا منطقة مكّة المُكرّمة. فقد قال: (وكان الله مع الغُلام فَكَبُرَ وسكن في البريّة. وكان ينمو رامي قوس. وسكن في بريّة فاران.) وهذا الكلام متعلّق باسماعيل عليه السّلام، كما يدلّ على ذلك سياقُ الكلام. علماً بأنّ منطقة مكة المكرّمة أُطلق عليها وماجاورها منطقة "فاران" وذلك لفرار هاجر واسماعيل إليها بأمر ربّهم عز وجلّ. فقد كان مُقدّراً أن يبعث الله تعالى من نسلهما مُحمّداً رسول الله ﷺ، ويُنزلَ القرآن الكريم على قلبه ليكون للعالمين نذيراً.

وأنتقل من هذا التمهيد الذي مهّدت به، والذي كان ضرورياً جدّاً ليُعطي القارىء فكرةً عن تسلسل الأحداث القديمة، انتقل منه إلى نبوءة سفر التثنية العظيمة التي نقلت لكم ألفاظها حرفياً، شارحاً هذه النّبوءة بتفحّص وتدبّر.

والحقيقة أن هذه النّبوءة قد احتوت على أمور عديدة، وعلامات كثيرة. فكلُّ لفظٍ من ألفاظها مُفعمٌ بالدّلالات. علماً بأنّ اليهود والنّصارى يعترفون بوجود هذه النّبوءة كما أوردها سفر التثنيّة المذكور. لذلك تُعتبر هذه النّبوءة حجةً قاطعةً تُدينهم جميعهم أمام الله، وتجاه عباده المفكّرين.

وأول ماورد في النبّوءة: (أُقيم لهم من وسط إخوتهم نبيّاً مثلك.). والحقّ أن الذي ترجم أسفاره التوراة إلى اللغة العربية، ترجمها ترجمةً حرفيّةً، بأمانة، فهو لم يستعمل هنا كلمة (أبعث) أو (أصطفي). بل استعمل كلمة (أُقيم لهم) . وأقام من قام بمعنى انتصب. فأقام معناه نصّب وأدام هذا التنصيب. ذلك أنّ فعل أقام، يحوي ضمناً معنى الدّوام، فأنت تقيم جداراً لالتهدمه، بل ليظلّ يحمل سقف البناء. فجملة (أُقيم لهم نبيّاً مثلك.) تعني أنّ الله تعالى سيبعث لهم نبيّاً مشرّعاً مثْلَ موسى عليه السلام، وتدوم نبوّته أيضاً بمعنى أنّه يكون خاتم النبيّين.

ويتساءل الإنسان هنا بداهةً عن القوم الذي سيصطفى الله تعالى أحد أفراده مصداقاً لهذا الوعد المنصوص عليه في هذه النبوءة مصداق (.. من وَسَطِ إخوتهم..) فمن هم إخوة بني إسرائيل؟ هم الفرع الثاني لنسل ابراهيم عليه السّلام، وهو نسل إسماعيل، أي أنّ الله تعالى وعد أنّه سيُقيم نبيّاً مُشرّعاً من وسط نسل إسماعيل عليه السلام، مثلَ موسى ويأتي معه تشريع، وهذه إشارة إلى

هذا القرآن الكريم نفسه الذي أنزله ربُّنا على قلب محمّد بن عبد الله ﷺ الصادق الأمين.

وتضيف النّبوءة: (وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ماأوصيه به.) وكأنّ هذه الألفاظ تعني أن هذا النّبي المشرّع لاينطق عن هواه ولامن نفسه، بل ينقل إلى النّاس مايُوحى إليه من ربّه حرفيّاً. وهذا الأمر يفسّر لنا حكمة ابتداء نزول القرآن الكريم بآية (اقرأ) بمعنى احملْ هذه الرسالة السّماوية وبلّغها إلى الناس كافّة. على شاكلة قولك: أقرأ منّي فُلانا سلامي. وهذه الجملة من النبوءة تفسّر لنا حكمة قوله تعالى، ﴿**ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين، فما من أحدٍ عنه حاجزين.**﴾.

المهمّ أن جملة: (وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكلّ ماأوصيه به.) تعني صراحةً أن هذا النّبي المشرّع الموعود به، سيتلقّى من ربه وحياً لفظيّاً، ويؤمر بتبليغه للناس حرفاً بحرف، وهو أمرٌ لم يسبق أن حدث في تاريخ جميع الدّيانات السّماوية. وبذلك يكون هذا النّبي المُشرّع مأموراً بوضع حجر أساس تكوين أمّةٍ جديدة غير قوم بني إسرائيل. وهذه الأمة الجديدة مُكلّفة بحمل رسالة الله تعالى إلى الناس كافة إلى أبد الآبدين.

وتضيف النّبوءة: (ويكون أنّ الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه.). ولم تستثن هذه الكلمات أفراد بني اسرائيل من مسؤولية الاستجابة لصوت هذا الوحي الجديد. ولم تعفهم من مسؤولية واجب الإيمان به. بل (ويكون أنّ الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه.). فقد ورد لفظ الإنسان مُعرّفاً ليفيد الاستغراق، وليشمل جميع النّاس بما فيهم "بنو إسرائيل".

ثمّ إنّ جمله (أنا أطالبه) تفيد أنّ من يكفر بهذا النّبي وشرعه وماينزل عليه من وحي لابدّ أن يلقى عقاباً من ربّه. كذلك جملة : (الذي يتكلّم به باسمي) تعني أنّ هذا الوحي الجديد يبتدىء عموماً ببسم الله. وهذه ظاهرة اختصّ بها الوحي القرآني. ذلك أنّ جميع سور القرآن ابتدئت ببسم الله الرحمن الرحيم باستثناء سورة التوبه التّابعه لما قبلها.

وأضافت النّبوءة : (وأمّا النّبي الذي يَطْغى، فيتكلّم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلّم به، أو الذي يتكلّم باسم آلهة أخرى، فيقتل ذلك النّبي.) يعني أنّ

النّبي المشرّع المُنبأ عنه، سيعصمه الله من القتل ويحميه. فلن تنجح مؤامرة في قتله والقضاء عليه.

وهذا الأمر يُذكّرنا بوعد الله تعالى محمداً رسول الله في القرآن الكريم : ﴿**والله يعصمك من النّاس**﴾. والمعلوم لكلّ إنسان هو أن الله تعالى عصم محمداً وحماه ومكّنه من أداء رسالته كاملة، ليقول في حُجّة الوداع : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً.**﴾.

وقد أضافت النبوءة: (وإن قلت في قلبك : كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلّم به الرّب. فما تكلّم به النّبي باسم الرّب و لم يحدث و لم يَصِر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرّب، بل بطغيان تكلّم به النّبي، فلا تخف منه.). وقد وضحت لنا هذه الجمل بجلاء تطابق هذه النبوءة وماجاء في القرآن الكريم، ومن تلقّى هذا القرآن بكلّ صراحة وقوّة.

ذلك أنّ القرآن الكريم احتوى على مئات النّبوءات التي تحقّق منها ماتعلّق بأزمنتها، وسيتحقّق فيها مايتعلّق بالأزمنة القادمة إن شاء الله العزيز. لذلك ينبغي لليهود والنّصارى أن يعوا ويُدركوا دلالات ألفاظ هذه النّبوءة، ويخافوا أن ينزل بهم عذاب الله، أكثر ممّا نزل بهم حتى الآن، فالله شديد العقاب. وأن يُذعنوا لما دلّتهم عليه ألفاظ نبوءه سفر التثنية هذه، فيؤمنوا بالله ورسوله وبالقرآن الكريم الذي نزل معه ليكونوا بذلك من النّاجين ومن المُنعمين.

وأعود لأشير إلى أن دلالات هذه النبوءة التوراتيّة يستحيل أن تنطبق على أيّ نبيّ إسرائيلي أو على المسيح بن مريم الذي لم يك نبيّاً مشرّعاً، ولاجاء لينقض التوراة، كما صرح بذلك هو نفسه.

بل أقول : إنّ المسيح نفسه أكّد على نبي اسرائيل وحواريه في انجيل يوحنّا ١٢/١٦ بقوله: (إنّ لي أموراً كثيرة لأقول لكم، ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن. وأمّا متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ، لأنّه لايتكلّم من نفسه، بل كلّ مايسمع يتكلّم به، ويُخبركم بأمورٍ آتية).

فلينظر القارىء كيف اعترف المسيح أنّ قومه في زمنه لم يكونوا على مستوى تلقّي شريعة كاملة، وكيف أنبأ عن بعثة من سمّاه (روح الحق) الذي سيرشد إلى جميع الحقّ. أي أنّ المسيح بن مريم قد أنبأ عن بعثة هذا النّبي المشرع

والذي ستمثّل تعاليم شريعته (روح الحق) فلا يتكلّم من نفسه. أي لايأتي بشيءٍ من لدنه. بل كل مايتكلّم الله عز وجل به يصدع له ﴿**إنّما هو وحيٌ يوحى**﴾. كما أُمر المسيح بن مريم أن يُعْرِضَ عن الجاهلين، وأنّ هذا النّبي الموعود به (يُخبركم بأمورٍ آتية) أي أنّ وحي كتابه حافلٌ بالنّبوءات.

على هذه الصّورة يتبيّن لكل ذي عين بصيرةٍ أنّ الدّليل الذي أتت به نبوءة سفر التثنية التوراتية، يُعتبر حُجّة ودليلاً قاطعاً على مصداقيّة القرآن الكريم. وهي نبوءةٌ تُدين اليهود والنّصارى معاً ومايعتقدونه.

١٠ـ دليل المصداقية العاشر :

لابدّ لهذا الدليل من تمهيد. ذلك أنّي سأقدّم فيه اثنتي عشرة نبوءةً قرآنيّةً مجتمعة في سورةٍ واحدةٍ، مصداق نبوءة انجيل يوحنا ١٢/١٦ (.. ويخبركم بأمورٍ آتية.) أي ينبئكم بنبوءات كثيرة. وتتأتّى ضرورة هذا التّمهيد ممّا اشتملت عليه نبوءة سفر التثنية ١٨/١٨ من أنّ النّبي الذي يطغى يُقتل. فلابدّ لي في هذا الدليل العاشر من إثبات أمرين اثنين: الأوّل أنّ موت محمد رسول الله ﷺ كان موتاً طبيعياً، وقد عصمه الله ربّه من الهلاك. والأمر الثاني تقديم نماذج من نبوءات قرانيةٍ مستقبلية انطوى عليها هذا القرآن الكريم.

والحقيقة هي أنّ القرآن الكريم لم يُنكر على اليهود والنّصارى هذين المعيارين لاثبات صدقه وصدق محمد ﷺ الذي أُنزل عليه. بل وأضاف القرآن الكريم إلى هذين المعيارين، معياراً ثالثاً، وهو أنّ اليهود والنّصارى الذين يكذّبون هذا القرآن وهذا الرسول ﷺ لن يفلتوا من عذاب ربّهم الذي سيُنزله بهم نتيجة لتكذيبهم إياه مصداق نبوءات كتبهم التي يقدسّونها.

وهذه المعايير الثلاثة تضمّنها قول الله عز وجلّ في سورة الأنعام (٢١): ﴿**ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً، أو كذّب بآياته، إنّه لايفلح الظالمون.**﴾ وهذه الآية التي احتوت على هذه المعايير الثلاثة، وردت في مواجهة أهل الكتاب ومعايير كتبهم أيضاً. فقد قال تعالى في سباق الآية : ﴿**الذّين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم، فهم لايؤمنون**﴾ أي أنّ اليهود والنّصارى وقد دُعوا للإيمان، بهذا القرآن وهذا الرسول، يعرفون صدقه

كما يعرفون أبناءهم، لانطباق نبوءات كتبهم المقدّسة (التوراة والانجيل) عليه وعلى من أُنزل عليه انطباقاً كاملاً.

ذلك أنّ بين الآباء والأبناء صلات عاطفيّة أصيلة، فقد وُجدت كذلك بين نبوءات كتب اليهود والنّصارى وبين هذا الكتاب وهذا النّبي صلاتٌ عاطفيّة أصيلة. وهم إذ يتنصّلون من هذه المعرفة وهذه الصّلة، يكونون من ﴿ **الذّين خسروا أنفسهم**﴾. كخُسران الوالدين لأبنائهما. هذا إذا كان اليهود والنصارى يحسبون لعاقبتهم حسابها. أما الذين لايحسبون لها حسابها، ولايسعون للتوثّق من هذه الحقيقة وقبولها ﴿ **فهم لايؤمنون** ﴾ أي لايُستغرب كُفرهم وتنكّرهم لهذا القرآن وهذا النبي ﷺ.

وهذان المعياران النّابعان من نصوص نبوءات كتب اليهود والنصارى التي يُقدّسونها، المُتعلّقان بهما خاصّة، لايؤخذ بهما إلاّ في حال اعتقاد المرء بوجود الله عز وجلّ، وتدخّله في أمر مدعيّي النّبوءة الكاذبين ممّن لم يوح الله إليهم بشيء. لذا كانت شهادة الله بحقّهم هي الأساس في الموضوع.

لذلك فقد مهّد الله تعالى لهاتين الآتيين اللّتين ذكرناهما من سورة الأنعام بقوله: ﴿ **قل أيّ شيءٍ أكبر شهادة، قل الله** (وقف اجباري) **شهيد بيني وبينكم** (وقف اجباري) **وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به، ومن بَلَغَ، أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهةً أخرى، قل لاأشهد، قل إنّما هو إلهٌ واحد، وإنّني بريءٌ ممّا تُشركون.**﴾. وقد لفتت هذه الآية الكريمة الأنظار إلى ضرورة احترام شهادة الله تعالى من جهة، ونددّت بعقيدة تأليه النّصارى للمسيح من جهةٍ أخرى، ومهّدت بذلك لتقديم هذين المعيارين المذكورين.

وقد سبق أن قال الله تعالى قبل آيات التمهيد والمعايير هذه ﴿**وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.**﴾ والقاهرة من قَهَره يقهره قهراً: غلبه. والقهر مصدر قهر. فالقاهر هو الغالب جبراً واضطراراً. ومن أسماء الله "القهار" على وزن فعّال للمبالغة. فالآية تعني أن من يفتري على الله كذباً وينتحل صفة نبّي. لاينجو من عقاب الله وقهره إيّاه خصوصاً وأنّ الله تعالى حكيم وخبير، يُعاقب المفترين هؤلاء ويقهرهم بحكمته وخبرته.

ثم إنّ مايؤكّد الذي ذهبنا إليه من دلالات هذه الآيات، قوله تعالى قبلها مباشرة أيضاً: ﴿**وإن يَمْسَسْكَ الله بُضرٍ، فلا كاشف له إلاّ هو، وإن يمسسك**

بخير فهو على كلّ شيء قدير.﴾ وألفاظ هذه الآية الكريمة مهّدت لجميع ماأعقبها من آيات. فهي أشهرت وجود الله عز وجلّ القادر على كلّ شيء ويرقب الذين ينتحلون صفة نبيّ والذين لاينتحلون.

وزبدة القول هو أننا إذا كنّا قد اثبتنا في دليلنا العاشر هذا موت محمد رسول الله ﷺ موتاً طبيعيّاً. وأنّ الله قد حفظه من جميع مادبّره أعداؤه له من مكائد ومؤامرات لقتله والقضاء عليه وعلى دعوته. وإذا كنّا كذلك قد قدّمنا نبوءات كثيرة أتى بها محمد ﷺ من الوحي القرآني وفق نبوءة الإنجيل (ويخبركم بأمور آتيه) وتحققت هذه النبوءات أيضاً. أقول إذا تحقّق لنا هذان الأمران، نكون قد أحكمنا دليلنا العاشر إحكاماً ظاهر الدلالة على مصداقيّة القرآن الكريم.

أمّا ماتعلّق بموت محمّدٍ ﷺ موتاً طبيعيّاً، فيكفي أنّ الأحداث في حياته ﷺ توالت وفق ماوعده الله عز وجل في قوله: ﴿ **والله يعصمك من الناس.**﴾. وهذه الأحداث انتهت في حُجّة الوداع يوم أن خاطب محمد ﷺ الناس قائلاً ومودّعاً: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً..**﴾. ومن ثم تُوفّي محمد ﷺ وفاةً طبيعيّة، و لم يُقتل على أيدي أحدٍ من أعدائه. وهذا الأمر لايتطلّب منّا مزيد الشّرح أصلاً.

والذي يتبقّى علينا إثباته، هو أنّ القرآن الكريم أخبر بأمورٍ كثيرةٍ آتية وفق (ويُخبركم بأمورٍ آتية). أي يتبقى الكشف عن النبوءات القرآنية المستقبليّة اللاّفتة للأنظار، المدهشة للعقول، بل التي تِفحُم اليهود والنّصارى بشكلٍ واضحٍ لايقبل الجدال.

ولابدّ من التّنويه هنا إلى أنّ مؤلّفي (فن الاختزال في القرآن الكريم) قد احتوى على تعداد نبوءاتٍ كثيرةٍ قرآنية تحققت جميعها. وأضيف هنا إيراد اثنتي عشرة نبوءة تضمّنتها سورة التكوير. لعلاقة هذه السّورة بزماننا المعاصر وماأتى به من تطّورات. ويزيد نبوءات سورة التكوير هذه عظمةً نزولها في مكة المكرمة، يوم كانت دعوة الإسلام في أوائل مراحلها، وقبل أن يشتدّ عودها، يوم كان يستحيل على محمد رسول الله ﷺ نفسه أن يفكّر في مستقبل أمّته، وماستمرّ فيه من أدوار.

وسورة التكّوير هذه اشتمل عليها الجزء الأخير من القرآن الكريم. فهي جزء من خلاصة القرآن المُوسّعة. وهي أنبأت عن عصر انحطاط المسلمين وتخلّفهم وتخاذلهم في العمل على تعاليم الإسلام، وأنبأت عن علاماتٍ تتحقّق في الوسط الإسلامي والوسط غير الإسلاميّ، إلى جانب التبشير بزوال ذلك وعودة المسيرة الاسلامية وانتصارها اليقينيّ.

وجاءت سورة التكوير مبدوءة كل آية من آياتها الأوائل بالظّرف (إذا). وهو ظرف للمستقبل متضّمن معنى الشّرط. أي أنّ الموضوع المطروق مشروطٌ بما اشترَط وقوعه الظرف (إذا). وقد ابتدأ هذا الموضوع أصلاً في سورة التكوير بقوله تعالى: ﴿ **فلا أقسم بالخُنّس. الجوار الكُنّس، والليل إذا عسعس. والصّبح إذ تنفّس**﴾. وقد أوجز تعالى في هذه الآيات الكريمة الحال الذي سيؤول إليها عصر تخلّف المسلمين زمن تحقّق النبوءات المبتدئه بالظرف (إذا). فمضمون هذه الآيات فيه تبشيرٌ أيضاً (واللّيل إذا عسعس. والصّبح إذا تنفّس) أي لن يستمر ليل المسلمين بل ويتنفّس الصّبح بعده أي بعد اكتمال ظهور جميع هذه النّبوءات الاثنتي عشرة المبدوءة بالظرف (إذا).

ولقد أكّد الله تعالى بعد ذلك على كون جميع ماأنبأ عنه سيتحقّق يقيناً. ذلك أنّه اصطفى رسولاً ذو قوّةٍ عند ذي العرش مكين. مُطاعٍ ثمَّ أمين. وماصاحبكم بمجنون. ﴿**ولقد رآه في الأفق المبين.**﴾ أي كشف الله تعالى عليه جميع ماأنبأت عنه هذه الآيات المبدوءة بظرف (إذا) الشرطيّ. وأنّ ربه ﴿**ماهو على الغيب بضنين**﴾ على هذا النّبي الكريم.

وحين انتهى جلّ شأنه من تنبيه أذهان البشر إلى مصداقيّة هذا القرآن الكريم الذي اشتمل على جميع هذه النبوءات الغيبة، عاد فتوّجه بالخطاب إلى أهل العصر الذي ستتحقق فيه جميع هذه النّبوءات يؤكّد لهم وجوده، ويهزهم بقوله تعالى : ﴿ **فأين تذهبون. إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين. لمن شاء منكم أن يستقيم. وماتشاؤون إلاّ أن يشاء الله ربّ العالمين.**﴾ أي أنّ ربوبيّة الله تعمل لصالح مصداقية القرآن ومصداقيّة هذا النّبي. خصوصاً وأنّه تعالى أنزل هذا القرآن ذكرى وموعظةً لجميع الناس على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم. ولامجال لي هنا لزيادة التّفصيل والشرح في هذا المقام.

لذلك أعود لألقي الضّوء على الآيات الأوائل المبدوءة بالظرف (إذا) والمتضمنة نبوءات غيبيّة مستقبليّة. علماً بأنها قسمان: نبوءات تتعلّق بواقع مسلمي عصرنا وظواهر تخلّفهم. ونبوءات تتعلق بأحداث هذا العصر وتطوّراته.

فالآيات الأوائل: ﴿ **إذا الشمس كُوّرت. وإذا النّجوم انكدرت. وإذا الجبال سُيّرت.**﴾ متعلقة بواقع المسلمين المعاصرين، وبالأسباب الرئيسيّة لتخلّفهم وانحطاط مجتمعاتهم. والخطأ الذي وقع فيه أكثرية المفسرين هو أنّهم حملوا ألفاظ هذه الآيات الكريمة على معانيها المتبادرة للأذهان. فلم تكن لديهم مُعطياتٌ علمية صحيحة تساعدهم على الانتقال منها إلى معانيها المجازية كنبوءات. ذلك أنّ الشمس المعروفة لاتكوّر. والنجوم المعروفة لاتنكدر. والجبال الرّواسي لاتُسيّر. هذا مبلغي من العلم. فكيف تُسيّر الجبال؟ وإلى أين؟ ثم إن الشمس نجمٌ من نجوم السّماء أصلاً، ولقربها من كوكبنا الأرضي الذي يدور حولها تبدو بهذا الحجم وهذا الضيّاء. ثم إنّ الشمس والنجوم جميعها مفاعلات تتحوّل العناصر ضمنها بطريقةٍ معجزةٍ لتؤدّي دوراً هاماً لصالح وجود الإنسان. فلا تنكدر ولاتتكوّر بل تفنى إذا اختل توازن تفاعلاتها الكيميائية.

والمراد من الشّمس هنا مجازاً هو شمس الإسلام وأنوار سيد المرسلين. أما قرأنا قوله تعالى في سورة الأحزاب الآية (٤٥): ﴿ **ياأيّها النّبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً مُنيراً.**﴾؟

فالنّبي ﷺ سُمّي (سراجاً منيراً). بينما سُمّيت شمس كوكبنا الأرضي (سراجاً وهّاجاً) النبأ ١٣ ـ ومعنى أوهج النّار: أوقدها. فالشمس سراجٌ وهّاجٌ أي جُملةُ عناصر ماديّة مُتّقدة لها حرُّها شديد الوهج، فلا تتكوّر، والنّبي ﷺ هو سراج منير بمعنى مجازيّ، أي أنّ تعاليمه التي احتوى عليها هذا القرآن الكريم تنير عقول الذين يعملون عليها ويستوعبونها. وعليه فالمقصود من ﴿**إذا الشّمس كُوّرت**﴾ هذا الإنباء عن زمان قادم يعود فيه العمل بتعاليم القرآن الكريم من باب النافلة، لا الفرض والواجب وذلك في نظر أتباعه.

وهذه إشارةٌ إلى زماننا بالذّات حيث عاد الإسلام اسماً والقرآن رسماً والمساجد عامرة ولكنّها خرابٌ من الهُدى. ولايصلح هذه الأمّة إلا بما صَلُحَ به أوّلها.

كذلك فليس المقصود من ﴿**وإذا النجوم انكدرت**﴾ تناثر نجوم السّماء الحقيقية. فلو تناثر أي نجم لاختلّ النظام الكوني بأجمعه. والنّجوم شموسٌ حقيقية. فقد كان يكفي القول ﴿**إذا الشمس انكدرت**﴾ ليدلّ بذلك على يوم دمار هذا العالم.

وإنما المقصود هنا فالمعنى المجازيّ للآية الكريمة. على اعتبار أنّ استحاله انكدار النجوم يعتبر قرينةً لغويةً تلزمنا بالمعنى المجازي وليس الحقيقي. وعليه فالمقصود من ﴿**وإذا النّجوم انكدرت**﴾ هو الإنباء عن زمان يأتي يعود يندر فيه وجود علماء حقيقيّين. أما لاحظنا قول رسول الله ﷺ (أصحابي كالنّجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم.). فهو ﷺ اصطلح على تسمية أصحابه نجوماً مجازاً. ثم إنّ انعدام وجود علماء حقيقيين يؤدّي أصلاً إلى جهل النّاس بتعاليم دينهم جهلاً يؤدي بهم إلى التخلّف والانحطاط.

كذلك فليس المقصود من ﴿**وإذا الجبال سُيّرت**﴾ تسيير أوتاد الأرض ورواسيّها، فهي لاتُسيّر، بل تُنسف ويجعلها ربّي قاعاً صفصفاً إذا شاء. فهذه الاستحالة قرينة لغوية تنقل لفظ الجبال هنا من المعنى الحقيقي المُتبادر للذهن، إلى المعنى المجازيّ. حيث يُقال للسيّد في قومه جبل. وهذه نبوءة متعلّقة بزعماء مسلمي عصر الانحطاط السيّاسيين ووجهائهم أنّهم لايعودون مستقلّي الشخصية بل يغدون مُسيّرين من جهات خارجةٍ عنهم. لذلك يفقدون بفقدانهم الحريّة في اتّخاذ القرارات، مصداقية الإخلاص. وهكذا تكون هذه الآيات الثلاث قد أنبأتنا عن صورةٍ قاتمةٍ تدور حول تخلّف المسلمين المعاصرين وأسبابه.

وقد أنبأ جل شأنه في بقية الآيات المبدوءَة بالظروف (إذا) عمّا سيطلع زمن تخلّف المسلمين به من اكتشافات وتقنيّات وأحداث.

وأوّل هذه النبوءات تضمنّه قوله تعالى : ﴿**وإذا العشار عُطّلت**﴾. والعشار هي النّوق الحوامل. والنّوق سُميّت قديماً بسفن الصحراء. بمعنى أنها الوسيلة الأساسية للتنقّل عبر الصّحراء. وعطّل الشيء: تركه ضياعاً. وعطّل الإبل: خلاّها بلا راع يرعاها. ولايُهمل الإنسان هذه الوسيلة الطبيعيّة للتنقّل في الصحراء خاصّة إلاّ في حال توفّر وسائل أفضل منها لديه. من هنا ندرك أن في قوله تعالى : ﴿**وإذا العشار عُطّلت**﴾ الإنباء عن اكتشاف وسائل أفضل من

النوق للحمل والتنقّل. وفي هذا الإنباء الإشارة إلى اختراع السيارة والقطار والطيارة والسّفن البخارية. فهذه جميعها وسائل نقل أفضل من العشار، بل وعطّلت العشار عن مكانتها الطبيعية التي خلقت لها. وقد اكتشفت هذه الوسائل زمن انحطاط المسلمين.

وثاني هذه النّبوءات تضّمنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الوحوش حُشرت**﴾ والوحوش هي حيوان البرّ، أو مالا يُستأنس من دواب البرّ (أقرب الموارد) وحشَرَ الوحوش: جَمَعها. ويأتي الحشر بمعنى الموت كما جاء في الصّحاح.

من هذه المعاني ندرك أن هذه الآية ﴿**وإذا الوحوش حشرت**﴾ أنبأت عن ظاهرة من ظواهر عصرنا، وهي هذه الحدائق التي تُخصص لحشر أي جمع مُختلف أصناف الحيوانات البريّة مايُستأنس منها ومالا يُستأنس، وبأعداد محدودة، والقصد من حدائق الحيوان هذه أن تُحفظ فيها هذه الأعداد من الحيوانات، خشية انقراضها، إلى جانب أغراض أخرى. والمعلوم أنّه لاتوجد دولة متحضّرة في عصرنا إلا ويوجد لديها حديقة للحيوان. بل وتسعى جميع الدّول إلى تقليدها. وظاهرة حدائق الحيوان هذه لم يسبق في تاريخ البشر أن عمدت حكومة من الحكومات إلى التفكير فيها قديماً. فهي ظاهرة معاصرة، لعصر انحطاط المجتمعات الإسلامية.

وثالث هذه النبوءات تضمّنه قوله تعالى : ﴿**وإذا البحار سُجّرت.**﴾. والبحر في اللّغة خلاف البرّ. وكل نهر عظيم. وكل مُتوسّع في شيء. فالرّجل المتوسّع في العلم بحرٌ، والفرس المتوسّع في جريه بحر (أقرب الموارد) ويُجمع البحر على أبحر وبحار وبُحور، وكلمة سُجّرت، تقول سجّر الماء فجّره وسجّر التّنور ملأه بالحطب ليحميه. (أقرب الموارد).

من هذه المعاني ندرك أنّ هذه الآية: ﴿**وإذا البحار سُجّرت**﴾، قد أنبأت عن توسّع كبير في المساحات المزروعة من الأراضي البور إشارة إلى شقّ قنوات منتظمة من مختلف الأنهار الكبيرة في العالم والتي يصّح تسميتها بالبحار، وعلى مستوى لم تعرفه البشريّة من قبل. كنتيجة طبيعية لتقدم العلوم الزراعية.

ورابع هذه النّبوءات تضّمنه قوله تعالى: ﴿**وإذا النّفوس زُوّجت.**﴾. من زوّج النّفوس: قرنها ووصلها بعضها مع بعضها الآخر.

من هذا نُدرك أنّ هذه الآية: ﴿**وإذا النّفوس زُوّجت**﴾. قد أنبأت عن الاكتشافات والاختراعات التي تقرن أي تصل النفوس بعضها مع بعضها الآخر، بالرّغم من بعد مسافات الواحد عن الآخر. والحقّ أنّ هذه الاختراعات تميّز عصرنا بالذات. فهي الإشارة إلى اختراع جهاز الهاتف والبرق وماإليهما، ممّا يمتّ إلى الخطوط السلكية واللاسلكيه بصلات. وقد أصبح العالم صغيراً جدّاً بسبب هذه الأدوات.

وخامس هذه النبوءات، تضمّنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الموءودة سُئِلت. بأيّ ذنبٍ قُتِلت.**﴾. والموءودة من وأد ابنته يئدها وأداً: دفنها في القبر وهي حيّة وأثقلها بالتراب، فهي موءودة (أقرب الموارد).

إن مضمون هذه الآية الكريمة دفع بعض المفسّرين الذين لم يتدبّروها حقّ تدبُّرها، إلى اعتبار مضمونها مشيراً إلى ماسيحدث للموءودة يوم القيامة. و لم يسألوا أنفسهم: وهل تُسأل الموءودة أصلاً عمّن قتلها وبأيّ ذنبٍ قُتِلَت؟ فالمقتول المجني عليه لايُوجّه إليه سؤال عن سبب قتله. بل إنّ قاتله هو المسؤول في المحاكم ويوم القيامة.

فما معنى إذن ﴿**وإذا الموءودة سُئِلت. بأيّ ذنبٍ قُتلت.**﴾؟ أقول: إنّ ماذكرته يُعدّ قرينةً لغويةً تنقل أذهاننا من المعنى المتبادر لها إلى معنى آخر مجازيّ. وهو الإشارة إلى أنّ عصر انحطاط المسلمين سيكون عصر المطالبة بتحرير المرأة من وضعها الذي آلت إليه، نتيجة انحراف المسلمين المعاصرين عن تطبيق تعاليم الإسلام المنصوص عليها في القرآن الكريم، وإخضاعهم المرأة لحجابٍ هو أشبه بوأد الفتاة وهي حيّة. والحقّ أن عصرنا يمكن تسميته بحقّ عصر تحرير المرأة من الذين يئدونها وهي ماتزال تنبض بالحياة. فلا يفسحون لها مجالاً أن تحتلّ مكانتها كنصف المجتمعات، وأنْ تؤدي رسالتها السّامية في مُجتمعاتها. فالمرأة من هذا النّوع تُسأل في الصّحف والمجلات وجميع وسائل الإعلام: ﴿**بأيّ ذنبٍ قُتلت**﴾ أي أنّ وضعها المُعاصر كالمُذنبة التي حجرها المسؤولون وحالوا دون نشاطها الاجتماعي.

وعليه فلا علاقة لمضمون هذه الآية الكريمة بوأد إحدى القبائل الجاهلية بناتهم خشية العار. ولاعلاقة لهذه الآية أيضاً بالآخرة ويوم الحساب.

وسادس هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الصُّحف نُشرت**﴾. ونشر الخبر: أذاعه (أقرب الموارد). والصُّحف جمع صحيفة، وهي قُرطاس مكتوب (محيط المحيط). ومنه اشتُق لفظ (المُصحف) كاسم مفعول أي القُرطاس المكتوب المجموع والمشدود بين دفّتي الكتاب القرآن، حتى صار هذا الإسم كالعلم له.

على ضوء هذه المعاني ندرك أنّ المفسّرين الذين ذهبوا في رأيهم إلى أنّ هذه الآية الكريمة تتعلّق بيوم الدّين، ماكانوا قد تدبّروها حق تدبُّرها، ولاربطوها بالتسلسل الموضوعي خصوصاً وأنّ مُعطيات عصورهم لم تكن لتساعدهم على إدراك مراميها.

والحقُّ يُقال إن عصرنا الحاضر هو عصر الطّباعة والصّحافة وإذاعة الأخبار. أي أنه عصر صحفٍ وإعلام. هذا وإنّ الإنسان عاد يرى الصّحف معلّقة ومنشورة في كل مكان يرتحل إليه. وإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى إنباءً عن عصر انحطاط المسلمين وإشارةً إلى ماسيرافقه من ظواهر ومُخترعات، وهو: ﴿**وإذا الصُّحف نشرت**﴾.

وسابع هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿**وإذا السّماء كُشِطَتْ**﴾ والكشط معناه رفع الشيء عن شيءٍ قد غشّاه وتنحيته عنه. وكلُّ ماعلاك فهو سماؤك. وكيف تُكشط السّماء فوقنا إلاّ أن يعني ذلك ترقي علم الفلك إلى درجةٍ يعود المرء معه ينظر إلى السّماء وكأنها كشطت ورفع من دون أبصارنا ماكان قد غشاها وحجب معالمها الحقيقيّة عنّا؟

من هذا ندرك أنّ هذه الآية ﴿**وإذا السّماء كُشطت**﴾ انبأت عن تقدم علوم الفلك في عصر انحطاط المسلمين، تقدُّماً ملموساً، لم يبلغ مستواه عصر من العصور السابقة، وهل يختلف أحدٌ من النّاس معنا في هذه الحقيقة التي نبّهنا إليها؟

وثامن هذه النّبوءات تضمّنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الجحيم سُعِّرت**﴾. والجحيم هي النّار الشديدة التأجّج، لذلك يستعمل هذا اللفظ لجهنّم أيضاً. فالجحيم إسمٌ من النّار. وسُعِّر اشتُقّت من سعرّ النّار والحرب أوقدهما وأشعلهما وهيّجهما (أقرب الموارد).

من هذا ندرك أنّ هذه الآية الكريمة ﴿**وإذا الجحيم سُعِّرت**﴾ لاعلاقة لها بالآخرة أيضاً. فلا تُسعّر نار الآخرة ولاتخفّض حرارتها، والأمر فيه إنباءٌ عن

عصرنا أنّ حروبه وفتنه ستكون كثيرة جدّاً. وأنّ هناك أطرافاً يثيرون هذه الفتن والحروب ويشعلونها ويهيّجونها. وهذا الأمر أضحى ظاهرة طبيعية من ظواهر عصرنا أيضاً.

وتاسع هذه النّبوءات تضّمنه قوله تعالى: ﴿**وإذا الجنّة أُزلفت. علمت نفسٌ ماأحضرت.**﴾. وأزلفت الشيء معناه قرّبه (أقرب الموارد).

فمن خلال معنى كلمة (أُزلفت) أي قُرّبت، نستدل على أنّ نبوءة هذه الآية تتمثّل في أنّها أعطت فكرةً عن حصيلة تأثير جميع النّبوءات السّابقة في نفوس المفكرين، وتجذبهم بالتالي إلى ربّهم من جديد.

وتبدأ بذلك صحوةٌ إسلاميّة ودينيّة وسعيٌ لنيل الجنّة التي أُعدّت للمتقّين. فكأن الجنّة بتحقق هذه النبوءات قُرّبت من الناس. وبالتالي فقوله: ﴿**علمت نفسٌ ماأحضرت.**﴾ المقصود من (نفس) الوارد فيها نفس كلّ مهملٍ لواجباته الدينيّة. وأنّ كل مقصّر سيدرك ويعلم مدى ماأحضرته نفسه لآخرته.

إلى هنا أكون قد كشفت الغطاء، بفضل الله تعالى، عن اثنتي عشرة نبوءة تضمنتها سورة التكوير مُجتمعة. هذا وإنّ سُور جزء (عمّ) مليئة بالنبوءات المذهلة للعقول، بالرغم من قلّة عدد آيات كل سورة من سوره.

وإنّ ماكشفتُ عنه من نبوءات، يصدّق ماأنبأ عنه المسيح بن مريم في انجيل يوحنا ١٢/١٦: (ويخبركم بأمور آتية.).

ألا إنّ سورة التكوير قد أنبأتْ عن تخلّف المسلمين زمن تقدم العلوم والاكتشافات على أيدي أعدائهم، وقبل أربعة عشر قرناً من الزّمان. فهل يتعامى اليهود والنصارى عن هذه الحقيقة التي حملها إليهم هذا الدليل العاشر الذي قدّمناه تأكيداً لمصداقيّة القرآن الكريم، ومصداقيّة رسالة النّبي محمد اليتيم الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم ومُنبأٌ عنه في كُتبهم المقدّسة؟

ولو فرضنا جدلاً أن محمداً ﷺ كان كاذباً في نبّوته، وكان القرآن من افترائه واختلاقه، ومع ذلك مات موتاً طبيعيّاً ووفق وعد ربه ﴿**والله يعصمك من النّاس**﴾. وأتى كتابه بهذه الأنباء الكثيرة عن المستقبل أيضاً. وتحققت نبوءاته أيضاً. يثبت بالتّالي المعيار الذي قدّمته التوراة في أمر تمييز النّبي الكاذب من النبي الصّادق على كلّ حال.

فيا أسفاً على من يتعامى عن هذه الحقيقة، ويكون عن قبول الحقّ من المُعرضين. وينبغي لهؤلاء أن يعلموا أن سورة الأنعام أشركت المُنكرين ضمن إنذارها الذي تضمّنه قوله تعالى: ﴿**ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً، أو كذّب بآياته، إنّه لايفلح الظالمون.**﴾ صدق الله العظيم.

وهكذا نخلص من هذه الأدلّة العشرة التي قدّمناها، إلى التّسليم بمصداقية هذا الكتاب السّماوي، الذي سمّاه الله تعالى "قرآناً عربياً"، وفرقاناً يُفرق به بين الحقّ والباطل. نخلص إلى التسليم بهذا الكتاب العظيم "مرجعاً" لنا في موضوع تعرُّف ربّنا، ربّ العالمين.

١١ً. خلاصة مضامين أدلّة المصداقية:

وهكذا انتهينا إلى أنّ المستشرقين المُنصفين أقرّوا، بعد بحثٍ وتمحيصٍ علميّين، ومن خلال الأدلّة التي عثروا عليها، داخليّة وخارجيّة (أن القرآن الموجود في زماننا هو القرآن نفسه الذي جاء به محمّد دون أيّ تحريف.) سير وليم ميور "حياة محمد" ص٥٦.

بل أضاف سيرميور قوله: (ونحن من ذلك على يقين، كيقين المسلمين أنفسهم، بأنّه وحي الله المقدّس الذي لم يُحرّف ولم يُبدّل).

ونحن، وبأسلوبنا العلمي قد انتهينا إلى أنّ القرآن الكريم وقد وصلنا سالماً. وقد تحقّقنا سلامة نصوصه، وأنّه وحي يُوحى بنفس الأسلوب. تحققنا ذلك من خلال مايتمتّع القرآن الكريم به من مزايا، لايُضارعه فيها كتابٌ سماويّ آخر. كما تحقّقناه من ملاحظة مُجريات الأحداث في صدر الإسلام، زمن تكامل نزول هذا الوحي السّماوي، وقامت الأدلّة على أن هذا القرآن قد نزل بترتيبين لم يختلط أحدهما بالآخر، وأنّ تحفيظ القُرآن، كان يُركّز على ترتيب التّلاوة، وفق توجيهٍ من جبريل عليه السلام نفسه، كما قامت الأدلّة على أن القرآن الكريم كان مُدّوناً على الرّقاع من العُسُب واللّخاف طوال حياة الرسول الأعظم ﷺ، وأنّ الرّقاع هذه وإن كانت موثوقةً معتمدةً، إلاّ أنّ وضع العرب الأُميّين قد اقتضى أن يُعطى المحفوظ من قبل جمهرة حُفّاظ القرآن الكريم المنزلة الأولى من الوُثوق، نسبةً إلى الرّقاع. وتحقّقنا أنّ حادثة اليمامة في عهد الخلافة الأولى، دفعت المسؤولين من كبار الصّحابة إلى جمع الرّقاع وترتيبها بترتيب تلاوة

حُفّاظ القرآن الكريم. وأنّ هذا الأمر دام حتى الخلافة الثالثة، حيث اختلط العرب بالأعاجم، فقلّ عدد الحُفّاظ، وصَعُب على الأعاجم حفظ القرآن الكريم دون لحنٍ أو خطأ. فدعا ذلك عثمان بن عفّان (رضي) أن يبادر إلى استنساخ سبع نسخٍ، من النُّسخة المجموعة والمرتّبة على أيدي زيد بن ثابت كاتب وحي رسول الله ﷺ، ويوزّع هذه النُّسخ على الأمصار، ليستنسخ عنها المسلمون ماشاؤوا، واحتفظ عثمان (رضي) بنسخة القرآن الأصلية التي اعتمدها في النسخ، ثم أعادها إلى حفصة أمّ المؤمنين، وأمر أن يُحرَقَ كلّ ماهو خارجٌ عنها.

فبهذا الأسلوب العلمي لتقصّي الحقائق، ثبت لنا أنّ القرآن الكريم وصلنا سالماً خالياً من أيّ تحريفٍ، وعلى مانزل به من ترتيبت تلاوته التي كان يتلوها به رسول الله ﷺ نفسه بتوجيهٍ وتعليم من جبريل عليه السّلام.

ولابدّ أن يكون القارىء قد لاحظ أنّنا لم نكتف بما حققناه بالأسلوب العلميّ، من مصداقيّة القرآن الكريم ومرجعيّته، بل أدلينا إلى ذلك بعشرة أدلّة من داخل القرآن الكريم نفسه. أثبتنا بها استحالة أن يكون القرآن من اختلاق محمد ﷺ. هذا فضلاً عن أنّنا توصّلنا من خلال هذه الأدلّة العشرة القاطعة، باليقين الجازم إلى أنّ هذا القرآن الكريم، إنّما هو وحيٌ وتنزيلٌ من رب العالمين.

ففي الدليل الأول أثبتنا وجود تحدٍ إلهيٍّ للعرب والعجم أن يأتوا بمثل هذا القرآن من حيث اللّغة ومن حيث المضمون في آن واحد، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وأنّ هذا التحدّي الإلهيّ للنّاس كافة لايزال قائماً وإلى يوم الدين. وقد عجز الإنس والجنّ أن يأتوا بمثل هذا القرآن إلى يومنا هذا أو أن يضارعوه، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً.

وفي الدليل الثاني أثبتنا أنّ وصول القرآن الكريم سالماً إلى زماننا الحاضر، لم يحدث اتّفاقاً ومصادفةً. بل تأتّى وفقاً لوعدٍ إلهيٍ تضمّنه القرآن الكريم نفسه. هذا بالرّغم أنّ محمداً ﷺ لم يأمره الله عز وجلّ بأكثر من تدوين القرآن على الرّقاع دون الطلب منه أن يجمعها ويرتّبها، إلى جانب اعتماد طبقةٍ موثوقة من حُفّاظ هذا الوحي السّماوي العظيم. فما كان على الرّسول إلاّ البلاغ.

وفي الدليل الثّالث أثبتنا أنّ القرآن الكريم أتى خلال حديثه عن موضوع خلق العالم بكشوف علميّة، قلب فيها جميع مُعطيات التوراة والإنجيل. وقد جاء تطوّر العلوم ظهيراً لها مؤيّداً لمُعطياتها. بل تلاقت مع نظريّة الانفجار العظيم. ويستحيل أن تتأتّى مثل هذه الكشوف العلمية المتعلّقة بخلق العالم، عن علم محمّدٍ اليتيم الأمّي. بل لابُدَّ أن تكون صادرةً عن عالم الغيب والشّهادة رب العالمين.

وفي الدليل الرابع أثبتنا أنّ القرآن الكريم قد أتى في موضوع خلق آدم بما يُغاير مُعطيات التّوراة. فقلب مفاهيمها رأساً على عقب، ونبّه إلى أنّ آدم عليه السلام، لم يكن أوّل إنسان مخلوق من البشر، بل كان أوّل نبيّ بعثه الله تعالى على رأس سلسلةِ الأنبياء التي انتهت ببعثة محمّد خاتم النبيّين ﷺ.

وفي الدليل الخامس أثبتنا أنّ القرآن الكريم أتى فيما يتعلّق بذات الله وصفاته بما لم تأت به التّوراة. أتى بحقائق مُدعّمة بالحجج والبراهين، الأمر الذي يثبت منه أنّ هذه العلوم يستحيل أن تصدُر عن رجلٍ أمّيٍ كمحمد بن عبد الله ﷺ. فهي صادرة عن الله تعالى نفسه، الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

وفي الدليل السادس أثبتنا أنّ القرآن الكريم قد تحوّل بأحكام نظام الحياة إلى أحكامٍ مرنةٍ تصلح لكلّ زمانٍ ومكان. فتعالى بأحكام الإسلام عن أن تكون أحكاماً مخصوصةً بقومٍ أو عشيرةٍ بذاتها.

كما ساوى بين الرّجل والمرأة في الحقوق والواجبات. وقرن كُلّ حكمٍ شرعّي بالحكمة منه مع بيان فلسفته. وإنّ هذا التحوّل البيّن في الأحكام ومستواها وصلاحيّتها، يستحيل أن يكون من وضع رجلٍ أمّيٍ كمحمد بن عبد الله ﷺ، الذي لم يكن يملك مثل هذه المُعطيات من أيّة جهةٍ من الجهات.

وفي الدليل السّابع أثبتنا أنّ القرآن الكريم أتى بمنهجٍ علمّي للحياة، استند فيه إلى حقائق لم تتعرّض لها تعاليم التوراة ولا الإنجيل، من قبل. بل لم تبلغ البشريّة مستوىً سليماً علمياً يُدانيها حتى عصرنا هذا. وهذا المنهج يستحيل أن يأتي به رجلٌ أمّيٌ من عند نفسه، مهما كان عبقريّاً، دون سابق مُعطيات، إلا أن يكون قد صدر هذا المنهج عن الله علاّم الغيوب.

وفي الدّليل الثامن أثبتنا أنّ القفزة الإعلاميّة الرّائعة، وهي مُعجزة الأذان التي أتى بها النّبي الأمي ﷺ قد كشفت عن دعوة الإسلام السّامية التي قامت

على أُسس علميّة، وقد أتت مضارعةً للطّور الذي بلغه البشر، من حيث بُلوغ نُضجه العقليّ. وهذا الإبداع الإعلاميّ، إن دلّ على شيء، فإنما يدل على أنّ القرآن الكريم لم يكن من وضع محمد بن عبد الله اليتيم الأمّي يقيناً. بل هو من عطاء ربّ العالمين.

وفي الدليل التّاسع أثبتنا تطابُقَ نبوءات التوراة والإنجيل، مع مانزل به وحي القرآن وبعثة محمد ﷺ سيّد الأنبياء. وهكذا جاء تكذيب اليهود والنّصارى القرآن ونبيّه الكريم، يُعدّ في حدّ ذاته تكذيباً لما جاء في كتُبهم المقدّسة نفسها، ولما احتوته من نبوءات.

وفي الدليل العاشر أثبتنا احتواء القرآن الكريم على عشرات النّبوءات الغيبيّة التي تحقّقت. الأمر الذي يجزم بأنّ الذي أنبأ بهذه النّبوءات جميعها هو الله علاّم الغيوب، ويستحيل أن تصدُر هذه النّبوءات عن محمّد نفسه. فأنّى له، وهو إنسان، أن يملك قوىً خارقةً تكشف له عن المُستقبل وعمّا سيحدث فيه؟ وقد جاء تحقّق هذه النّبوءات جميعها تصديقاً لما أشار إليه المسيح بن مريم في إنجيله حين أنبأ عن بعثة النّبي "روح الحق" الذي سيأتي بعده. قائلاً (ويخبركم بأمورٍ آتية.) يوحنا ١٦/١٢.

وها نحن أولاء لخّصنا جميع ماتضمّنه الباب المتعلّق بإثبات مصداقية القرآن الكريم ومرجعيّته، لم نَدَعْ مجالاً لشكٍ أو ريبٍ في ذلك كُلّه. وقد عاد من واجبنا بعد هذا الذي قُمنا به، أن نعود إلى القرآن الكريم، نستنطق آياته الكريمة لتُدلي لنا بالمعلومات التي يتطلّبها مؤلفي هذا. ونستوضحها عن الأدلّة القاطعة على وجود الله عز وجلّ وماتضمّنه القرآن الكريم من معلومات مُتعلّقةٍ بصفات الله وأسمائه الحسنى. ليكون كلّ ذلك عوناً لنا على تعرُّف الله تعالى ووسائل الإتّصال به والتقرّب إليه مادام ربّنا حيّاً قيّوماً.

وهانحن ننتقل إلى الباب الثالث الذّي خُصص للكلام على وجود الله تعالى، وماأسعفنا القرآن الكريم به من معارف على هذا الصعيد.

❁❁❁

الباب الثّالث
أدلّة وجود اللّه عزّ وجلّ

الفصل الأوّل:
١ ـ النّهج القرآني في التّدليل على وجود الله تعالى:

سبق لي أن أشرت في الباب الأوّل من هذا الكتاب إلى أنّ فكرة وجود الله تعالى لم تتولّد عند البشر تدريجيّاً، كما يزعم أصحاب نهج التفكير المادّي الفارغ من كلّ عُنصرٍ روحيّ، بل إنّ الله عز وجلّ نفسه هو الذي بادر إلى مخلوقه، فأطلعه على وجوده، وذلك عن طريق أنبيائه ورسله الكرام. وقد أثبتُّ صحّة هذه المقولة استناداً إلى ماجاء في القرآن الكريم نفسه الذي أثبتنا مصداقيّته ومرجعيّته. ومن خلال ماعُثر عليه من اللُّقى والآثار القديمة التي خلّفتها أقدم شعوب الأرض.

ومن هنا لم تعد حاجة بالقرآن الكريم إلى تقديم الحجج والبراهين التي تثبت وجود الله عز وجلّ، مادام أنّ كلّ أمّةٍ على سطح الكرة الأرضية تؤمن بوجود الله عز وجلّ من جراء ذلك، ولاخلاف بينهم إلاّ في التّفاصيل. ومادام أن زُمر المُلحدين بوجود الله تعالى لايؤلّفون نسبةً يُعتّد بها خصوصاً زمن نزول القرآن الكريم.

ومالاختلاف الحاصل في عقيدة وجود الله تعالى في التّفاصيل إلاّ من جرّاء موجات التخلّف والانحطاط التي أتت على مُختلف الأمم، على فترات متقطّعة. وإلاّ فقد كانت شعوب الأرض مُوحدّةً الله تعالى في فجر تواريخها. وهذا أمرٌ أثبتّ صحّته بالأدلّة والأمثلة من واقع وتاريخ أقدم شعوب الأرض.

وإلى جانب وجود هذه الحقيقة، فإنّ الإنسان الباحث الذي يتدبّر آي الذّكر الحكيم، لابدّ أن يرى مارأيت من أنّ الله تعالى، وبسبب اختلاف هؤلاء جميعهم في التّفاصيل، أتى بنهج جديد واضح المعالم في البرهنة على وجوده عز وجلّ. هذا النّهج لم يُناف الأسلوب العلمي في الاستدلال والإثبات.

كما راعى الله تعالى عند أخذه بهذا النّهج مُختلف مستويات الأفهام والإدراك عند البشر. فهو تعالى لم يدع طبقة من الناس إلاّ خاطبها على قدر فهمها وإدراكها، وألقى إليها بالحُجّة القاطعة المُقنعة أيضاً.

ولنوجز معالم هذا النهج القرآني في الاستدلال على وجود الله تعالى، نقول: قدّم القرآن الكريم أدلّةً تدرّجت من دليلٍ بسيطٍ يحتوي على عنصر واحد، إلى دليلٍ مركّبٍ من عناصر عديدة. وكانت المناسبة والتسلسل الموضوعي يتحكّمان في نسق هذه البراهين.

وقد جاءت الأدلة بمجموعها على نَمَطَين، الأوّل يصل بالمرء إلى مرحلة ترجيح وجود الله عزّ وجلّ. والنّمط الثاني من الأدلّة ينقل الإنسان إلى مرحلة الجزم واليقين في أمر وجود خالقه ومولاه. بحيث ينتفي لديه في هذه المرحلة كلّ شكّ وريب بوجود خالقه. على صورة يعيش هذا الإنسان بعدها حياة الاطمئنان الكامل بوجود ربّه في جوٍ من السّكينه واليقين الحازم، فلا يعود له همٌّ إلاّ التشوّق إلى تعرّفه تعالى والتّحرُّق إلى وصاله.

وأدلّة النّمط الأول من هذه الأدلة قسمان: الأوّل من النّوع الذي يستدلّ بالبراهين الذهنية القائمة على أسسٍ من الملاحظة والاستنتاج العلميّين. والقسم الثاني من الأدلّة من النّوع الذي يستدلّ بالمحسوسات، أي يستدلّ بالوقائع والأحداث على إثبات وجود الله تعالى مُسبّب الأسباب.

أمّا أدلّة النمط الثالث فهي أدلة من النوع السلوكي التجريبي، يعتمد التجربة الشخصيّة أساساً علمياً للانتقال منها إلى الجزم بوجود الله عز وجلّ.

ولرُبّ سائلٍ يسأل: ومافائدة الأدلّة التي يقف بها الإنسان عند مرحلة الترجيح وحسب. وفي الجواب أقول: المعلوم هو أنّ الله تعالى لاتدرك الأبصار ذاته عزوجل، وليس كمثله شيء. وطبيعة البحث عن وجوده اقتضت أن يُقدّم للباحث عن وُجوده تعالى نَمَطين من الأدلّة: النّمط الأول أدلّةٌ ترجيحيّةٌ مستمدّةٌ من صلب قوانين العالم المادي، وهي تتناسب مع مُختلف مستويات الأفهام والإدراك.

حتّى إذا خطا الإنسان المحقّق هذه الخطوة، فرجَحَ لديه وجود خالقه وخالق هذا الكون من حوله. استعدّ لقبول النّمط الآخر، وهي الأدلّة التي لاتقوم

على أساسٍ نظري، بل تقوم على أساسٍ من السّلوك والتجربة الشخصية. هذه الأدلة التي تنقل هذا الإنسان المحقق إلى مرحلة اليقين والاطمئنان.

فطبيعة البحث عن وجود الله، والبرهنة عليه، هي التي اقتضت هذا النّهج المتكامل في أسلوب إقامة البُرهان، وهو النهج الذي أتى به القرآن الكريم.

والمؤسف حقّاً أن تغيب هذه الحقيقة وأبعاد هذا النهج وطرفا معادلته. عن كثيرٍ من علماء الأمّة الإسلامية المعاصرين.

وقد ساعد ذلك على استمرار تخلّف الأمم الإسلامية وتفرُّقها عن باقي أمم الأرض. بل ازدياد تردّي أحوالها وتمزّقها وانقسامها على نفسها، وتفرُّقها إلى مذاهب وتيّارات فكريّة مُختلفة، وتقطّع مابينها وبين الله عز وجلّ وافتقاد نُصرته وتأييده. وسأبسط القول في ذلك في المقام المناسب إن شاء الله العزيز.

وبهذه المناسبة أرى أنّه من الضروري لي أن أُلفت نظر المسلم الباحث إلى أنّ سورة الفاتحة تشكّل خلاصة موجزة لجميع ماتضمّنه القرآن الكريم من مواضيع. فهي أمّ الكتاب من هذا المنظار.

الأمر الذي يُلزم كل باحثٍ بالرجوع إلى آيات سورة الفاتحة هذه، واستلهامها مدى صحّة فهمه وإدراكه لأيّ موضوع قرآنيّ يبحثه، محاولاً تبيّن معالمه. ذلك أنّ الفاتحة على حدّ فهمي واعتقادي، هي المفتاح لوجود كلّ موضوعٍ قرآنيّ، وهذا الأمر يلزمني بالتّالي أن أعمد في نهاية بحثي إلى التوفيق بين ماقدّمته من معلومات، وبين مادلّت عليه وتكشّفت عنه آيات سورة الفاتحة.

٢ ـ قدْ دِينَ الإلحاد بأقلام أصحابه :

يزعم الملاحدة أنّ الشرائع السّماوية والإسلام خاصة، أغفلت موضوع الإلحاد، فلم ينقده القرآن و لم يدحضه. هذا بالرّغم من أنّ موضوع الإلحاد من أخطر الدعوات المناهضة للدّين.

ويضيف هؤلاء إلى زعمهم هذا، أنّ هذا النّقص في الشرائع السّماوية، مرجعه إلى عدم ذُيوع مبادىء الإلحاد في العصور الغابرة.

كما يزعمون أنّ القرآن الكريم أغفل هذا الموضوع، فلم يوله أيّ اهتمام، لأنّ محمّداً ﷺ قد ترعرع في بلادٍ لم يظهر فيها مُلحدٌ واحد من النّاس.

ويضيف هؤلاء إلى زعمهم هذا أنّ القرآن الكريم قد شنّ حملةً شعواء على الشّرك والمشركين ولاريب، بسبب أنّ المشركين كانوا يعايشونه ويحيطون به من كلّ جانب. على حين أهمل القرآن موضوع الإلحاد، بسبب عدم ذيوع مبادئه في البيئة التي نشأ فيها محمد رسول الله ﷺ.

ويخلص الملحدون من ذلك كلّه إلى القول: إنّه لو كانت الأديان مُنزلةً من عند الخالق عالم الغيب، لَمَا كانت قد أغفلت موضوع الإلحاد هذا الإغفال الفاضح، وأهملته هذا الإهمال المبيّن.

وأنا بحكم إسلامي أُعلن بصراحة: إنّه لظُلمٌ بيّنٌ وتجنٍ آثم أن يُفترى على القرآن الكريم مثل هذا الافتراء، فيُوجّه إليه مثل هذا الاتّهام.

فنحن إذا سألنا رموز الملحدين أينما وُجدوا: ماهو الإلحاد؟ فسيكون جوابهم: إنّ هذا الكون الذي هو من حولنا بما فيه، هو مادّة وحسب. وإنّه كذلك من الأزل وإلى الأبد، فهو أزليٌّ أبديّ.

وإجابتهم هذه اشتملت على عُنصرين: الأوّل كون هذا العالم مادّة وحسب. والعنصر الثاني هو استمرار وجود هذه المادّة من الأزل إلى الأبد. وتعني هذه الإجابة بألفاظٍ أخرى إنكار وجود خالق لهذا الكون. وإعطاء موضوع إشباع رغبات المرء وماتهوى نفسه، المقام الأوّل في حياته، لتصبح هذه الرّغبات معبوده وإلهه الذّي عليه أن يسعى وراء الانقياد له وتحصيل رضاه. ذلك كان حال أهل أوربا والاتّحاد السوفيتي السابق. فالناس هناك كانوا ولايزالون لايعرفون إلاّ تلبية ماتهوى أنفسهم وماتدفعهم إليه ميولهم وشهواتهم. فلاهمّ لهم هناك إلاّ عيش الرّفاهية وتحصيل نعيم الدّنيا.

وقد سبق أن قلت في بداية هذا الفصل إنّ القرآن الكريم أتى بنهج خاص في موضوع الاستدلال على وجود الله الخالق. وهذا النّهج يقرّ ضمناً بوجود الملحدين. وإلاّ لم يكن للقرآن الكريم داعٍ يدعوه لاتّخاذ هذا النّهج وماحتوى عليه من مُختلف أنماط الاستدلال على وجود الله عز وجلّ.

أمّا لماذا لم تتوجّه آي الذّكر الحكيم إلى مخاطبة الملحدين مُواجهة تُفرزُهم عن سواهم من الكافرين والمشركين، فذلك لأنّ الإلحاد في حقيقته هو ضربٌ من ضروب الشرك. هذا مادلّت عليه لغة الضّاد. فقد قال صاحب معجم مفردات الرّاغب مانصّه بالحرف الواحد: (الإلحاد ضربٌ من الشّرك بالله). وإنّ

كون الإلحاد شُعبةً من شُعب الشّرك أدّى إلى الكلام على الشّرك عامة، وهو يشمل الإلحاد.

نُلاحظ معالم هذه الحقيقة التي ذكرناها، ممّا تضمّنه قوله تعالى في سورة الجاثية (٢٣ - ٢٤): ﴿**أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكّرون، وقالوا ماهي إلاّ حياتُنا الدّنيا نموت ونحيا، ومايُهلكنا إلاّ الدّهر، وماهم بذلك من علم، إن هم إلاّ يَظنّون**﴾. فقد جعل القرآن الكريم الإلحاد وأهله هنا مُشركين، إذا اتّخذ الواحد منهم إلهه هواه.

ويؤيّد ذلك ماجاء في الآية وهو: ﴿**ومايُهلكنا إلاّ الدّهر.**﴾ والدّهر إذا ورد مُعرّفاً بالألف واللاّم، كما هو في هذه الآية الكريمة، فلا يعني إلاّ الزّمان الأبد، بلاخلاف، على حسب ماأورده صاحب معجم محيط المحيط. وقال في التّعريفات للشّريف الجُرجاني: (الدّهر هو الآن الدّائم الذي هو امتداد الحضرة الإلهية وهو باطن الزمان، وبه يتّحد الأزل والأبد.). وقال في الكليّات: (الدهر في الأصل اسمٌ لمدّة العالم منذ مبدأ وجوده إلى انقضائه.).

وعليه فالله تعالى يشير في هاتين الآيتين الكريمتين إلى الإلحاد والملحدين من طرف خفيّ. هؤلاء الذين يُقيمون أفكارهم على أساس من الظنون، وليس على أساسٍ علميّ. فهم يتّخذون هواهُم إلههم، وقد ولعوا بإشباع هذا الهوى، وماتتطلّبه نفس أحدهم من تحصيل الرفاهية والملذّات. وهكذا يُعتبر اتّباع الهوى في نظر كتاب الله القرآن ضرباً من الشّرك بالله تعالى. إذ لايتّبع هواه ويتّخذه إلهاً له إلاّ من قادته ظنونه، واعتقد أنّ العالم أزليٌّ أبدي، لاينتهي، ولاحياة ثانية من بعده.

وبناءً عليه نقول: إنّ اتّهام الملحدين للقرآن الكريم بأنّه أهمل موضوع الإلحاد، فلم يتطّرق إليه، وأثبت من خلال إهماله هذا أنّه لم يصدر عن الله عالم الغيب، وأنّ القرآن بالتّالي من اختلاق محمد ﷺ نفسه، وهو الذي أمضى حياته في جوٍ ماوُجدَ فيه حوله مُلحدون.

إنّ اتّهامهم هذا، من خلال مابيناه، هو اتّهام باطل. وهو إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على جهل أصحابه بوجود نهجٍ قرآنيٍ في الاستدلال على وجود الله تعالى والردّ بهذا الاستدلال على المُلحدين.

كما يدلّ على جهلهم بدلالات الألفاظ العربيّة أيضاً، التي أدخلت الشرك فرعاً من الإلحاد. فالشّرك لغةً ينطوي على الإلحاد لأنّ الإلحاد هو في حقيقته ضربٌ من ضروب الشرك. ومثاله إشراك المُلحد الذي يتّخذ إلهه هواه.

وعندما قلت: إننا إذا سألنا رموز الملحدين عن مفهوم الإلحاد من منظارهم. كنت أشير إلى ماذهب إليه (هربرت سبنسر) مؤسّس مذهب الإلحاد في العالم. بالرّغم من أنّه لم يدّع هو نفسه أنّه رأس الملحدين.

وسبنسر هذا كان طرح مبدأً عاماً وقال: (إنّ مايتّفق عليه العالم أجمع، لايجوز تخطئته. إذ لابدّ أن يوجد وراء هذا الاتّفاق شيءٌ من الحقيقة.) وقد صدق في المبدأ المطروح. ذلك أنّ الناس لايُجمعون إلا على حقيقةٍ تبّينوها جميعاً. كالماء مثلاً، إذ تبيّن للنّاس أجمعين أنّه يطفىء العطش. فلابدّ أن يكون في إجماعهم هذا نصيب من الحقيقة.

ولقد أقرّ القرآن الكريم هذا المبدأ العام، وطرحه دليلاً، يثبت عن طريقه وجود الله عز وجلّ. وبإمكاننا تسمية هذا الدليل، بدليل الإجماع العام.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ مؤلفات سبنسر وداروِن وفرويد ونيوتن وكارل ماركس، كانت قد أخذت بمجامع أفئدة الأوربيّين في القرن التاسع عشر. لكنْ حدثت كشوف علميّة جديدة طلع بها القرن العشرون على العالم، غيّرت هذه الكشوف وجهة نظر علماء الغرب. الأمر الذي دفعهم دفعاً إلى تحطيم حواجز الإلحاد تلك التي وضعها في طريقهم مؤسّسوه، وعاد هؤلاء العلماء ينظرون إلى هذا الكون على أنّه مخلوق، بتأثير ماطلع به عليهم العالم الفيزيائي (غاموف) بنظرتيه فيما سُمّيَّ بنظرية الانفجار العظيم.

واعتقادنا هو أنّ القرآن الكريم الذي أنزله ربُّنا منذ أربعة عشر قرناً من الزّمان. كان الله تعالى قد أنزله للنّاس كافة، من أجل أيّ زمان أو مكان وُجدَ النّاس فيه. من هنا كان لابدّ أن يكون القرآن الكريم قد تعرّض لما طلع به علماء أوربة وأمريكة في القرنين الأخيرين. إثباتاً منه جلّ وعلا على أنّه عالم الغيب والشّهادة العزيز الغفور.

الفصل الثاني :
الأدلّة على وجود الله تعالى
أولاً : الأدلّة الترجيحيّة الذهنيّة
١ ـ دليل الإجماع العام :

والحقّ الذي لامراء فيه، هو أننا بعد تدبُّرنا آيات سورة فاطر، تبيّن لنا أنه تعالى قدّم في هذه السورة دليلين واضحي المعالم من القسم البسيط والمركّب العناصر، في مجال التّدليل على وجوده عز وجلّ، وقد استند الدليل الأول إلى مبدأ الإجماع العام الذي سلّم به روبرت سبنسر وسواه من أئمة الإلحاد. وقد ورد الدليل الثاني بالأسلوب العلمي المعاصر في التحليل والاستنتاج، وهو سمة أبحاث علماء القرن العشرين من الأوربيّين. وقد اصطلحنا له اسم دليل اختلاف الألوان. علماً بأنّ هذين الدليلين وردا في سورة فاطر مُتتابعين ضمن الآيات التالية: ﴿**إن أنت إلاّ نذير. إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً، وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير. وإن يكذّبوك فقد كذّب الذّين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبيّنات وبالزُّبر وبالكتاب المنير. ثم أخذت الذّين كفروا فكيف كان نكير. أَلَم تَرَ أنّ الله أنزل من السّماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مُختلفاً ألوانُها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدّواب والأنعام مُختلفٌ ألوانُه، كذلك إنّما يخشى الله من عباده العلماءُ، إنّ الله عزيز غفور**﴾ (فاطر ٢٣ ـ ٢٨).

نتناول بالبيان الدليل الأول، وهو الدّليل المؤسّس على مبدأ الإجماع العام الذي طرحه روبرت سبنسر في مؤلّفه الإلحاديّ. فقد تضمنه قوله تعالى: ﴿**وإنّ من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير.**﴾. وكأنه تعالى يقول هنا بألفاظٍ أخرى: يامن تحترمون مبدأ الإجماع العام على أمرٍ من الأمور، ولاتُخالفونه مُعطياته هاكم سيحوا في طول الأرض وعرضها فلا تجدون إلاّ وأنّ جميع شعوب الأرض تؤمن بوجود الله خالقها، ولايختلفون فيما بينهم إلاّ في تفاصيل مايتعلّق بوجوده. فهل يُعقل أن يتأتّى هذا الإجماع تلقائيّاً وبالتّدريج؟

فاعلموا أن الله تعالى هو الذي كشف نفسه على عباده وأنبأهم بوجوده. وهو تعالى ماترك أمّة من الأمم إلا وبعث فيها نذيراً من طرفه يبشّرهم

وينذرهم. وأبقى وأسعد الذين آمنوا دوماً. أمّا من كذّبوا بوجوده وبرسله فقد قال عنهم: ﴿ **ثم أخذتُ الذين كفروا فكيف كان نكير.**﴾.

هذا وإني سبق أن أثبتّ أنّ كلّ أمّة من الأمم القديمة كانت موحدةً في بادىء أمرها. وكانت كلّما ابتعدت عن زمن النبيّ الذي دعاها إلى الله خالقها، دبّت في عقائدها الانحرافات والتّفسُّخ، وانتهت إلى وضعٍ من الشّرك مأساويّ، وإن كان الشّرك بالله لايخرج عن نطاق الاعتقاد بوجود الله عز وجلّ.

وهكذا فإنّ قوله عز وجلّ: ﴿**وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير**﴾ أشار من طرف خفيّ إلى إجماع أمم الأرض نتيجةً لذلك على الاعتقاد بوجوده تعالى.

وهذا الإجماع الملاحظ لايعني أن فكرة وجود الله تولدت عند الناس تدريجياً، بأي شكل من الأشكال. فهذه آثار الأمم التي تركوها تدل أقدم تواريخ هذه الأمم على أنّهم اعتقدوا بالإله الواحد الموجود خارج هذا الكون والذي بعث برسله موصياً إياهم التبليغ بوجوده وبرسالاته. وقد أثبتّ ذلك من قبل.

وعليه فإنّ قوله تعالى: ﴿**وإن من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير**﴾ أتت بدليل الإجماع العام الذي طرحه روبرت سبنسر، فهل للذّين يحترمون مؤسس الإلحاد المذكور أن يحترموا بالتالي هذا الدليل الذي يدلي به القرآن الكريم لإثبات وجود الله عز وجلّ؟

وقد أفضت إلينا ألفاظ هذه الآية الكريمة وبأسلوبٍ متميّز، دليلاً من النّمط الذهني البسيط ترجّح لنا من خلاله وجود الله الخالق. وهو دليل تتقبّله مُختلف مُستويات الأفهام. ولايحتاج من الإنسان إجهاد نفسه كثيراً للإلمام بمعطياته. وقد جاء هذا الدّليل يُفحم ببساطة واضحة رموز الإلحاد، بل ويدينهم بما خطّته أقلامهم أيضاً.

٢ ـ دليل التّعدد اللّوني:

ولمّا كان في علم الله تعالى أنّ أوربة ستجود في القرن العشرين بفئةٍ مختلفةٍ عن هؤلاء الملحدين من علمائها، سيتبيّن لهم عن طريق مابلغوه من رقّيٍ علميّ، أنّ هذا الكون ليس بأزليّ أبدي، بل هو كونٌ مخلوقٌ قبل (١٢ ــ ٢٠) مليار عام تقريباً. إشارةً إلى نظرية الانفجار العظيم.

أقول: لمّا كان في علم الله الغيبيّ ذلك، أدلى جل شأنه إلى جانب دليل الإجماع العام الذي أتينا على ذكره، بدليلٍ آخر متعدد العناصر، وبأسلوب بحث هذه الفئة من العلماء الأوربيين العلمي القائم على أساسٍ من الملاحظة والتحليل والاستنتاج. وقد احتوى هذا الدليل الثاني الذي اصطلحت له اسم "دليل التعدّد اللّوني"، احتواه قوله تعالى في نفس سورة غافر، وبعد آيات الدليل الأوّل مباشرة: ﴿ **ألَم ترَ أن الله أنزل من السّماء ماءً، فأخرجنا به ثمرات مُختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدّواب والأنعام مختلفٌ ألوانه، كذلك إنّما يخشى الله من عباده العلماء، إنّ الله عزيزٌ غفور.** ﴾. والجُدَد تعني الخُطط والطّرائق في الجبال. وبيضٌ إشارة إلى كونها كلسيّةً بيضاء اللون.

وحُمرٌ إشارة إلى الجبال الرملية التركيب وحمراء اللّون. وغرابيب سود إشارة إلى الجبال البركانيّة سوداء اللّون. فالغرابيب جمع غربيب، أي حالك السّواد، وسودٌ هنا بدل من غرابيب، لتأكيد كونها حالكة السّواد. علماً بأنّ توكيد الألوان في اللّغة العربيّة لايتقدّم عليها.

والآن وبعد أن شرحت معاني ألفاظ هذه الآيات الكريمة التي اشتملت على دليل التعدّد اللّوني. أرى لزاماً عليّ إعطاء القارىء فكرةً واضحةً عن أسلوب علماء أوربا المعاصرين في البحث والتحليل والاستنتاج العلميين، ليُعينهُ ذلك على تفّهم الأسلوب الذي انتهجه القرآن من خلال طرحه لهذا الدّليل الثاني متعدّد العناصر. إثباتاً منه عز وجلّ لوجوده. فقد كان في علم الله الغيبيّ، كما ذكرت، أنّ القرآن الكريم وآياته ستمّر من أمام أعين العلماء الغربيين أصحاب الأسلوب المخصوص بهم وفي القرن العشرين خاصة.

وإنّه بينما غلب على علماء القرن التّاسع عشر الأوربيين الإلحاد والتفكّير بنهجٍ مادّي بحت. إذ راحوا يفسّرون ظواهر الطبيعة وأشياءها على أساس عُنصرين هما الضرورة والمصادفة. فقد لُوحظ أنّ علماء القرن العشرين الأوربيين تجاوزوا هذه المرحلة الإلحادية عموماً، فتجاوزوا عنصري الضرورة والمصادفة إلى ماوراءهما، بعدما تبيّن لهم أنّ العالَم ليس بمادّةٍ وحسب، وأنّه مخلوق، ولربّما تمّ خلقه منذ (١٢ ـ ٢٠) مليار عام.

دونكم أسلوب العالم الفيزيائي الشّهير (هنري مارجينو)[1] في البحث والتّحليل العلمّي. فقد كتب هذا العالم يقول: (فإذا كانت المُصادفة والضّرورة كلتاهما عاجزتين عن تفسير الجمال في الطبيعة، فلابُدّ من وجود شيء غير هذين العُنصرين.. تأمّل لحظة حِرفيّاً يصنع سكّيناً لتقطيع الخبز لاستخدامه الشّخصي، من الجليّ بالضّرورة أن تكون للسكّين الجديدة هذه شَفْرة، إذ لايستطيع الحرفيّ تقطيع الخبز دونها. أمّا تصميم مقبض السّكين المزخرف والمُرّصع، فلا نستطيع عَزْوَهُ إلى الضرورة. لأن السّكين قادر على أن يقطع الخبز بنجاح، دون حاجة إلى أيّ زخرفةٍ على الإطلاق. والحرفيُّ يختار بمحض إرادته أن يزيّن أداته بالزّخارف. ففي وسعه أن يُضيف الزّخارف أو لايُضيفها. فإذا اختار إضافتها، توفّرت له جُملةٌ من التّصاميم ينتقي منها مايشاء.

فزخرفة السّكين تقبل البدائل، ومع ذلك فهناك سببٌ لوجودها، وهو أنّ الفنّان لايريد سكّيناً ماضيةً فحسب، بل يُريدها جميلةً كذلك، فالزخرفة إذاً ليست نتاج المصادفة والضرورة، بل هي تصرُّفٌ يتّسم بحريّة الاختيار. والعقل يختار بحرّية، إذن هو الطّريق الوسيط بين المصادفة والضّرورة. وعلى هذا النّحو، فمادام الجمال بالغ الوفرة في الطبيعة، فلايمكن أن يكون ناشئاً من مُصادفة، فلابُدّ له إذاً من سبب ولكنّ هذا السّبب لايمكن حصره في نهجٍ واحد. إذن ليس هناك من ضرورة مُطلقه تقتضي أصلاً وجود الجمال في الحيوان والنّبات والجماد.

وعلى ذلك يبدو أنّ الجمال المشاهد في الطبيعة ناشيءٌ عن علّةٍ لاتحكُمها الضرورة، ولكنّ لديها مع ذلك سبباً يفسّر تصرُّفها. وهذه العلّة هي "العقل"، ومن ثمّ فإنّ هناك عقلاً مسؤولاً عن جمال الطبيعة، وهذا العقل القائم وراء الطّبيعة، يُطلق عليه النّاس جميعاً اسم "الله".

ودونكم العالم الأوربي (أمِرسون)[1] قد أقنعه منطق العالم (هنري مارجينو) الذي ذكرناه. وبعد أن أبدى قناعته برأيه، أدلى بالنّصيحة التالية، تأكيداً لِما ذهب إليه زميله بشأن الجمال، إذ قال: (إيّاك أن تُفوّت أيّ فرصةٍ

---

[1] العلم في منظوره الجديد ص٧٧ (عالم المعرفة العدد ١٣٤)

[1] المرجع نفسه

لمشاهدة أيّ شيءٍ جميل، لأنّ الجمال خُطَّ بيد الله. إنّه قُـدّاسٌ يُقـام علـى جـانب الطريق. لذلك رَحِّبْ بالجمال في كلّ وجهٍ حسن، وفي كلّ سماءٍ صافية، وفي كلّ زهرةٍ جميلة، واشكر الله على ذلك، إنّه كأس بركة.).

وهكذا يدرك المرء أنّ علماء القرن العشرين الأوربيين، وليس ساسَتُهم، راحوا يَلحظُون يد الله تعـالى في ندفـة الثّلـج، وفي غـروب الشّـمس، وفي مـروج الأعشاب. وأنّ عظمة الجمال الطبيعي وجلالـه يحمـلان توقيـع الله الخـالق الـذي لاشُبهة في وجوده عز وجلّ. ذلك أنّ النظرة الجديـدة لهـؤلاء العلمـاء إلى الكـون وأصله، وبُنيته الجمالية أفضت بهم إلى أنّ الله الخالق موجـود. أمّـا كيـف قفـزوا هذه القفزة الرائعة، فقد قفزوها بعـد أن هجـروا كُتب سنبسـر وداروِن وفرويـد ونيوتُن وكارل ماركس. قفز هـؤلاء العلمـاء الجُدد مـن فـوق أكـداس مؤلفـات هؤلاء الضّخمة، بعد أن أعملوا فكرهم في البحث عمّا يمكن أن يُتّخذَ سـبباً غـير الضرورة والمصادفة، لِما يتّصف به كل موسومٍ بالجمـال في هـذا الكـون الجميـل الأخّاذ كُليّاً وجُزئياً بجمال يخلُبُ الألباب. فهؤلاء العلماء الغربيون الجُدُد، والذين نَجَوا بأنفسـهم مـن إسـار الإلحـاد الـذي ضربـه المُلحـدون حـول عقـل الإنسـان وتفكيره، اتّسع أفـق رؤيتهـم للأشـياء، فبـدت معـالم الطريـق أمـامهم جليّـةً بيّنـةً لتنقلهم رؤيتهم هذه إلى تعرّف وجود الله عز وجلّ. وقد عاد هؤلاء العلماء الآن بأمسّ الحاجة إلى القسم الثاني من الأدلّة السّلوكية، التي تنقل الإنسان إلى مرحلـة الاستيقان بوجود الله عز وجلّ، حيث تنتفي في تلك المرحلـة الشـكوك وتنجلـي ظُلماتُها. فيندفع الباحث إلى يقينٍ جازم، يخلد فيه القلـب وادع النفـس، هـادىء البال، كطفلٍ ظفر بوالديه بعد ضياعٍ طويل فوجد فيهما سكينته ومأمنه، فهـؤلاء العلماء الجدد بحاجةٍ الآن إلى من ينقلُ إليهم القسم الثاني من الأدلّة السّلوكية التي أدلى بها القرآن الكريم. فهم بحاجةٍ إلى صُحبةِ هـؤلاء الأبـرار الذيـن قطعـوا هـذا الشّوط السّلوكي فجنوا ثماره وليعودوا عمّا كانوا يتشدّقون به، بما لايعرفون.

إنّ علماء أوربـة المعـاصرين الذيـن تدرّجـوا في سُـلّم الأدلّـة الموصلـة إلى حقيقة وجود الله الخالق من البسيط إلى الدليل المركّـب متعـدد العنـاصر. عندمـا ينظُر هؤلاء إلى المُجتمعات الإسلامية المعاصرة ومايجري فيها مـن تعصُّـب وتنـافُرٍ وتعادٍ وتقتيل. يصدُّهم ذلـك الواقـع، فيحـول بينهـم ودون تقبُّـل الإسـلام ودونَ

الإيمان بكتابه القرآن الكريم. ذلك أنّهم لايعثرون في هذه المُجتمعات المتخلّفة على أسوةٍ حسنةٍ حيّةٍ، تجسّم لأعينهم ثمار هذا الدين القويم، ومُعطيات هذا القرآن العظيم.

ألا إنّ النّهج القرآني في الاستدلال على وجود الله الخالق، اعتمد على قسمين من الأدلّة: الأوّل منها يساعد فكر الإنسان لترجيح وجود خالق لهذا الكون. وهو يتنوّع مابين دليل اشتمل على عُنصر واحدٍ، ودليلٍ اشتملَ على عناصر عديدة. وهذا القسم الأوّل من الأدلّة اعتمد الفكر الإنسانيّ أداةً وسُلّماً على هذا الطريق.

وهذه الحقيقة نبّهنا إليها الله جل شأنه في أوّل سورة من كتابه العزيز. حين صَدَم الفكر العربي الجاهلّي بقوله تعالى: ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للنّاس، وإثمهما أكبر من نفعهما، ويسألونك ماذا يُنفقون قل العفو، كذلك يبيّن الله لكُم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾ البقرة ٢١٩ ـ فقد حثّ جل جلاله هؤلاء السّائلين على إعطاء الفكر منزلة، ليتصرّفوا على هُدىً منه، ويحقّقوا بأسلوبٍ علميّ في منافع كلّ شيءٍ من الأشياء ومضارّه، فيتجنّبوا ماغلبت مضارُّه على منافعه. لذلك أضاف قوله: (كذلك) أي على هذه الشاكلة وبهذا الأسلوب تُعالج الأمور ويُميّزُ صالح الأشياء من طالحها. ولايتحقق ذلك عن طريق الإكثار من طرح الأسئلة. ثم إنّ في طيّات كلمة (كذلك) حثّاً منه تعالى للمؤمنين على تأسيس مؤسّساتٍ علميّة مثمرة، والاندفاع إلى الطريق العلمي في البحث والتّفكير. لذلك أردف تعالى بعد كلمة (كذلك) قائلاً: ﴿**يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون.**﴾. ثم إن قوله (يُبيّن) أي يوضّح لكم هذه العلامات. فالآية جمعها آيات ومن معانيها العلامة والدليل. أي يرسم لكم طُرُقَ حلّ معضلاتكم في حياتكم الدنيا ﴿ **لعلكم تتفكّرون.**﴾ أي لعلّكم تعملون فكركم في كلّ آيةٍ من آيات هذا الكتاب فتهتدوا بما تعظ به الآيات وترشد إليه من وحدانيّة الله وعظمته وسبيله.

وعليه قلت آنفاً إن القسم الأوّل من أدلّة إثبات وجود الله تعالى ارتكزت إلى دعامة الفكر وأساسه. على حين ارتكز القسم الثاني من هذه الأدلة على أساسٍ سلوكيّ. وقد صرح تعالى بذلك في سورة البقرة الآية (١٨٦) بقوله: ﴿ **وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أُجيب دعوة الدّاع إذا دعانِ،**

فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون.﴾، وسيأتي تفصيل ذلك في حينه إن شاء الله العزيز.

وأعود الآن إلى ماقتبسته من الأسلوب الجديد للعلماء الغربيين المعاصرين، الذي اختطّوه في التفكير والبحث والاستنتاج. فهو جلّ شأنه، ماإن انتهى من الإدلاء بدليل الإجماع العام الوحيد العنصر والبسيط، حتى أتبعه بالدّليل المتعدّد العناصر وعلى نمط هؤلاء العلماء المعاصرين. مُنطلقاً من قوله ﴿**ألم تر**﴾ إثارة للتّعجب، ورأى بمعنى ظنّ ويتعدّى إلى مفعولين على حسب ماذُكر في الكُليّات، فدلالة ﴿**ألم تر**﴾ أي ألَم تُلاحظ أيها الباحث بالأسلوب العلمي: ﴿**أنّ الله أنزل من السّماء ماءً، فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألوانها، وغرابيب سود. ومن الناس والدّواب والأنعام مختلفٌ ألوانه، كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماءُ، إنّ الله عزيزٌ غفور.﴾**.

فالملاحظ أن الله تعالى كرّر كلمتي "مختلفاً ألوانُها" ثلاث مرّاتٍ، وقد ركّز في جميع ماذكره على اختلاف الألوان. فهو تعالى ذكر الثمار والجبال أولاً لافتاً الأنظار إلى اختلاف ألوان كلّ منها عن الآخر. والألوان هي في حقيقة الأمر أساس من أسس الجمال، كما أنّ للشّكْلِ شأنه في الجمال أيضاً.

فهو جلّ شأنه انطلق في هذا المقام من مُنطلق الأسلوب العلميّ الذي بات سمة علماء أوربة المعاصرين. انطلق من أنّ الماء هو مصدر الحياة في جميع الأشياء التي أتى على ذكرها في هذه الآيات الكريمة، والماء حقّاً هو أساس الحياة في كل مخلوق على حسب ماأثبت العلم ذلك.

لكنّه تعالى أضاف متسائلاً أنْ: أو لم يُلفت نظركم أيها الباحثون هذا الاختلاف في ألوان جميع الأشياء التي ذكرناها، كيف بدت مُلوّنةً ومزخرفةً على صورةٍ لايفسرها عُنصرا الضرورة والمصادفة، فلابُدَّ أن يكون الذي أنشأ هذه الأشياء، قد زخرفها بمختلف الألوان التي ابتدعها، بعبقريّة الفنّان المُبدع المُصوّر؟

أولاتلاحظون كيف أنّ هذا الجمال المتجلّي في كل شيء من هذه الأشياء، جمال الطبيعة الأخّاذ الباهر للأنظار، قد أخذ بمجامع أفئدة الشعراء والأدباء فراحت ألسنتهم وأقلامهم تتغنّى بجمال الطبيعة في كلّ زمان، فتنظِمُ القصائد، وتحبّر المقالات، تعبّر بها عمّا يخالج هذه الأفئدة بمطالعة هذا الجمال.

فقد وصف الشعراء الربيع تدبُّ في أرضه الحياة بعد الموات، فتخرج الحياة متبرّجة متزيّنةً بالأزهار والرّياحين بعد احتجاب. وقد وصفوا الروضة البكر بعد الغيث: نبتُها ونضرتُها ونماؤها. صورٌ تقف الأبصار أمامها دهشةً، و الألباب مُعجبةً مفتونة، صورٌ تنبض بالحياة والحركة. كما أخذ الجمال بمجامع أفئدة العُشّاق، فراحوا يتغنّون بمعشوقهم، فيصفونه بالبدر في ثورة المتألّق، وأخذ هذا الجمال بمجامع أفئدة الأدباء، فراحت أقلامهم تتنافس في إبرازه وتفتنُّ بوصفه في صورٍ قد بلغت من الدّقة والإتقان الغاية. فتجلّت فيها قُدرة الكاتب في فنّه وبراعته في التّصوير.

فإذا عُدنا إلى أسلوب هذا الدّليل القرآني متعدد العناصر، نجد أنّه أتى مُحلّى بأسلوب هؤلاء العلماء الأوربيين العلمّي، إذ أتى على ذكر الثّمار. والثّمار في الأرض يُرى منها عشرات الأنواع، ولكلّ نوعٍ منها مزيّته اللّونية الزخرفية. ثم أتى على ذكر الجبال، والجبال، وفي الأرض منها مئات ألوفٍ، ولكلّ جبلٍ من هذه الجبال مزّيته الزخرفية: فمنها ماكان من حجر كلّسيٍ، ومنها ماهو من حجرٍ رملّي أو حجرٍ بُركانيّ أي بازلتّي. فهي تتراءى لك من بعيد بلونٍ أبيض وأحمرٍ وداكن أسود.

وأتى تعالى على ذكر الإنسان، ولفت الأنظار إلى أن الإنسان لم يخلُ من هذه الزّخرفة اللونيّة، فهناك العرق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود أيضاً. وأتى على ذكر الدّواب والأنعام. وللدّواب والأنعام ألوف الأنواع. وكُلٌّ منها لُوّن بزخارف تسلب ألباب الناظرين.

وكأن الله عز وجلّ يخاطب القائلين بمذهب دارون في النشوء والارتقاء، فيقول: إذا نحن سلّمنا أنّ سرّ تعدّد الأنواع وتركيبها على أشكالها الماديّة الحاضرة، إنما يعود إلى فاعليّة عنصري الضّرورة والمُصادفة، إذا سلّمنا معكم بذلك، فكيف يمكن أن تفسّروا ظاهرة الاختلاف في الألوان، وهذه الزّخارف اللّونيّة اعتماداً علىأساسٍ من الضرورة والمصادفة، فإن عجزتم عن ذلك، لزم أن تُعيدوا النّظر في جميع ماتزعمون.

على أنّ العلماء المعاصرين، ممّن خالفوا أتباع دارون في نظريّته، انقلبوا عليه من جهات، وأقروا صاغرين بما لفت القرآن الكريم الأذهان إليه. وسلّموا بأنّ اختلاف ألوانِ كلّ شيء يشير إلى وجود يدٍ لفنانٍ أعظم قد زخرف كلّ

شيءٍ خلقَهُ بريشةِ المصوّر المُبدع. وإنّه لدليلٌ لايدحضه، بل يؤيده قول عالمهم (أمِرسُن)[1] ، قوله: (إيّاك أن تفوّت أيّ فرصةٍ لمشاهدة أي شيءٍ جميل، لأنّ الجمال خطّ بيد الله..).

أقول: كان الأحرى بهؤلاء الذّين أدركوا أنّ اختلاف الألوان في الطبيعة، لاتفسّره الضرورة والمصادفة، بل يفسّره وجود يدٍ لفنان أعظم. كان أحرى بهؤلاء ماداموا قد مضوا في تقديس الجمال على أنّه (خطّ بيد الله) كان أحرى بهم أن يتعالوا عن عبادة البشر، ويعبدوا الخالق ربّ العالمين. فكان من واجبهم أن يخطوا الخُطوة الثانية للتعرّف على هذا الذي أبدع هذا الجمال اللّوني، ويُوطّدوا صِلاتهم به تعالى، ويرتموا على أعتابه، متوسّلين مُتضرّعين أن يهديهم إلى الصراط المُستقيم، وأن يرزقهم حقّ اليقين.

وهكذا نكون قد اطّلعنا على دليلين يُثبتان وجود الله عز وجلّ احتوتهما سورة فاطر في مقامٍ واحد. الدليل الأول منهما بسيط غير متعدّد العناصر. وقد اصطلحنا له دليلَ الإجماع العام. والدليل الثاني منهما، المتعدّد العناصر، وقد اصطلحنا له اسم دليل التعدّد اللّوني. وهذان الدّليلان يعودان إلى القسم الأوّل النّظري في الإثبات. هذا القِسم من الأدلة الذي يصل بالمرء إلى حدّ ترجيح وجود الخالق المُبدع المصوّر عز وجلّ، ولايتجاوز ذلك، على مايقتضيه عقل الإنسان السّليم التّفكير.

٣ ـ دليل الوحدانيّة في الذّات وفي الصفات

وأتناول بالذّكر والشرح دليلين جديدين، يُرجّحان وجود الله عزوجلّ. وقد اشتملت على هذين الدّليلين سورة الإخلاص التي لايزيد عدد آياتها عن أربع آيات عدا البَسْملة. هذه السورة التي ورد عن رسول الله ﷺ قوله بشأنها: (من قرأ قل هو الله أحد فكأنّما قرأ ثُلُث القرآن) وقوله: (والذي نفسي بيده إنّها لتعدل ثُلث القرآن.).

---

[1] المرجع نفسه

والغريب حقّاً، هو أنّ كُتُب التّفسير، بالرغم من أنّها احتوت في طيّاتها هذه الأحاديث الشّريفة، قد أخذت بروايات أسباب النّزول، فذهبت إلى أنّ سورة الإخلاص قد اقتصرت على تعداد صفاتٍ مُحدّدةٍ لله تعالى وحسب.

والباحث المسلم المُتدبّر لايذهب مذهب ماأخذت به كتب التّفسير هذه بل تحثّه الأحاديث الشريفة التي أوردناها، ليتدبّر سورة الإخلاص بنظرةٍ ثاقبة أعمق ممّا دلّت عليه أسباب النّزول، ولينظر من زاويةٍ مختلفةٍ تماماً.

ثم إن تسمية هذه السّورة باسم سورة الإخلاص، تحثُّه هذه التّسمية حثّاً على أن ينتحي بتفسيره منحى آخر. ذلك أنّ الإخلاص مصدر أخلص، وهو ترك الرّياء في الطّاعات، كما قال صاحب التّعريفات من حيث الدلالة المعنوية للفظ الإخلاص. وهل يترك المرء الرّياء في الطّاعات ويتجنّبه لمجرّد أن يقرأ ويردّد (أحد، صمد، لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كُفواً أحد.)؟

ولعلّ كتب التّفسير قد ذهبت إلى ماذهبت إليه، لابتداء سورة الإخلاص بفعل الأمر (قل)، فتصّورت أنّه جواب (قل) عن سؤالٍ وجّهه المشركون إلى رسول الله ﷺ. وقد يكون لهم عُذْرٌ، لو ورد هذا اللّفظ ضمن سورةٍ كثيرة الآيات. على حين كانت سور المُعوّذات الثلاث، ومنها سورة الإخلاص، خلاصةً موجزةً لجميع مضامين القرآن الكريم.

وهي على شاكلة فاتحة الكتاب، فلا يُعقل أن تنزل جواباً على سؤال مُعيّن. بل لابُدّ أن تكون مُفعمةً بدلالاتٍ توازي ثُلث مضامين القرآن الكريم إنماً بإيجاز شديد وبليغ.

ولرُبّ سائل يسأل: فماهي حكمة ودلالة فعل الأمر (قل) هنا إذن؟

ويستنبط الجواب من التّسلسل الموضوعيّ لسورة الإخلاص، وارتباطها موضوعيّاً مع السّورة التي سبقتها من حيث ترتيب تلاوتها، أي بسورة (تبّت)، التي سبق أن ندّد الله عز وجلّ فيها بأبي لهبٍ، وبما أنبأ فيها عن زوال قُوّته وقوّة أتباعه وعُملائه من على وجه الأرض في هذا الزمن الأخير المعاصر، زمن تخلُّف المسلمين وانقسامهم على أنفسهم، وزمن ظهور عملاء أبي لهبٍ من بين صفوفهم. ولامجال للتوسّع بذلك في هذا المقام.

فمعنى (قل) الوارد في ابتداء سورة الإخلاص، معناه الأمر بإنذار أبي لهبٍ يوم صولته أنّ الله موجود، وأنّه لاقِبَلَ له بمقاومة دين الإسلام والقضاء على كتابه القرآن، ذلك أنّ الله جلّ جلاله (أحد) لايشاركه شيء في ذاته ولافي صفاته.

ذلك أنّ للفظ القول أكثر من معنى. فهو يستعمل للنّطق، كما يستعمل للاعتقاد والاجتهاد. وللقرآن الكريم نهجٌ انتهجه في كلّ مقام أورد فيه فعل الأمر (قل). وهو جلّ شأنه أتى بصيغة (قل) فيما يزيد عن ثلاثمائة وثلاثين مرة، ووفقاً للنّهج التّالي:

أولاً ـ في حال ورود كلمة (يسألونك)، يعمد إلى الإجابة، مبتدئاً بالأمر (قل). وعلى سبيل المثال، ففي الآية (١٨٩) من سورة البقرة قال تعالى: **﴿يسألونك عن الأهلّة، قل هي مواقيت للنّاس والحجّ..﴾**.

ثانياً ـ وفي حال التبشير والإنذار، يعمد بعده إلى التّعبير بلفظ (قل) آمراً بضرورة من بشرّهم وأنذرهم، أن يستعملوا نعمة العقل، فيمعنوا التّفكير فيما بشّرهم به وأنذر. ففي سورة الأنعام الآية (٥٠) مثلاً، قال تعالى: **﴿ومانُرسل المُرسلين إلاّ مبشرّين ومُنذرين، فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والّذين كذّبوا بآياتنا يَمُسُّهُمُ العذاب بما كانوا يفسقون، قل هل يستوي الأعمى والبصير، أفلا تتفكّرون.﴾**؟

ثالثاً ـ وفي الوقت الذي يندّد به تعالى بالعقائد الفاسدة ومُعتنقيها، يعمد تعالى بعد ذلك إلى فعل الأمر (قل) ليحمّل رسوله الكريم والذين آمنوا معه رسالة تحدّ إلى أصحاب العقائد الفاسدة. كما ورد في الآية (١٩٥) من سورة الأعراف على سبيل المثال، حيث قال تعالى منددّاً: **﴿إنّ الّذين تدعون من دون الله، عبادٌ أمثالكم، فادعوهم، فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. أَلَهَمُ أرجلٌ يمشون بها، أم لهم أيدٍ يبطشون بها، أم لهم أعينٌ يُبصرون بها، أم لهم آذانٌ يسمعون بها، قل ادعوا شُركاءكم ثمّ كيدون فلا تُنظرون.﴾**.

هذا و لم يسبق أن ابتُدئت سُوَر القرآن الكريم بكلمة (قل) لنعتبر (قل) التي ابتُدئت بها سورة الإخلاص جواباً عن سؤال معلوم.

المهمّ هو أن للقرآن الكريم نهجاً يسير عليه في كلّ أمرٍ من أموره. ومن واجب الباحث المتدبّر أن يتبيّن معالم هذا النّهج قبل الجزم برأيه. خصوصاً بعد أن

وضّحت له معالم هذا النّهج في هذا المقام. فلابُدّ له من التقيّد به ومراعاة السّياق والتّسلسل الموضوعي ودوره، عند الكلام على فعل الأمر (قل) ودلالته.

هذا وإني بيّنت أنّ سياق (قل) هنا هو مضمون مااشتملت عليه سورة تبّت. هذه السورة التي ندّدت بأبي لهبٍ وأنذرته فالمقصود بـ (قل) إذن مُخاطبة هذا المارد المتمرّد ووعظه بأن يضع نصب عينيه أنّ الله موجود، وأنّه أحدٌ في ذاته وصفاته، وأنّه الحكَمَ الأخير والفصل والمرجع في جميع الأمور، وأنّ أسباب النّفاذ إنّما هي طوع يديه عز وجلّ.

ومايؤكّد لنا المعنى الذي كشفت عنه، هو أنّ الله تعالى لم يقُل هنا (قل الله هو أحد). بل قدّم الضمير (هو) على اسمه الأعظم. وإنّ لهذا التّقديم دلالته البلاغية، ذلك أنّ المرء إذا شاء تعظيم مُسمّى، يقدّم الضمير العائد عليه، تعظيماً لشأنه وإكباراً له. وهذا الأمر بدا واضحاً في الآية ﴿**قل هو الله أحد**﴾ فالضمير (هو) في هذه الآية يعود إلى اسم الجلالة (الله) الذي لم تحتوي هذه الآية على إسم سواه. وقد قُدّم ضمير (هو) على اسم الجلاله إشعاراً بعظمة الله عز وجلّ. وكأنّه تعالى بهذه الصيّغة البلاغية، قد نبّه أبا لهبٍ إلى تناسيه شأن الله فيما يفعله ويُقدم عليه.

وبإمكاننا الآن أن ندرك احتواء الآية ﴿**قل هو الله أحد**﴾ على مقولتين اثنتين: الأولى تضمّنها إعلان وجود الله العظيم الشأن. وهو مادلّ عليه قوله تعالى ﴿**قل هو الله**﴾. والمقولة الثانية تضمّنها لفظ ﴿**أحد**﴾ بمعنى أن الله عظيم الشأن ليس موجوداً وحسب، بل هو متفرّدٌ في ذاته كما هو متفرّدٌ في صفاته أيضاً.

فقد أورد صاحب معجم أقرب الموارد أنّ الواحد هو أوّل العدد.

تقول: واحد اثنان ثلاثة.. والفرق بين الأحد والواحد، أنّ الأحد اسمٌ لمن لايشاركه شيءٌ في ذاته، فهو الواحد الذي لايشاركه شيءٌ في صفاته أيضاً.

فإذا علمنا أنّ الله تعالى اختّط في كتابه العزيز نهجاً خاصاً به، وهو أنّه لايأتي بمقولةٍ إلاّ ويُتبعها بدليل يثبت صدق مضمونها. ولذا كان لزاماً علينا تجاه احتواء الآية على هاتين المقولتين: وجود الله العظيم وتفرّده في ذاته وصفاته، أن نجد في الآيات التي تعقُب هذه الآية من سورة الإخلاص دليلين يُثبتان صحّة هاتين المقولتين. وإلاّ نكون قد خالفنا أصلاً هاماً من أصول تفسير القرآن

الكريم. هذا الأصل الذي قلّما عُنيت كُتُب التّفسير به وهو أنّ الله تعالى لايدّعي أمراً ما إلا ويُتبع دعواه بدليل مؤيّد لدعواه.

والحقّ الذي لامراء فيه هو أنّ الله تعالى أثبت مقولته الأولى المتعلقة بوجوده، وذلك بأن قدّم عليها دليلاً من النوع البسيط، يُستساغ فهمه لدى مُختلف المستويات من أفهام عباده. وقد عبّر عن دليله هذا بقوله: ﴿**الله الصّمد**﴾ أي أنّ صمديّة الله تعالى تجلّت على الدّوام في كلّ مكان وفي كل زمان. ويقتضي تدبّر كلام الله منّا أن نتبيّن معالم هذا الدّليل القرآني الذّي يثبت منه وجود الله عز وجلّ.

فما معنى كلمة (الصّمد)؟ أورد صاحب معجم أقرب الموارد أنّ الصّمد هو السّيد الذي لايُقضى دونه أمر، والدّائم والرفيع. كما أورد صاحب معجم المفردات: أنّ الصّمد هو السيّد الذي يُصمد إليه عند الحاجة والضرورة. وأورد صاحب محيط المحيط: أنّ الصّمد هو المكان المرتفع الغليظ، والصّخرة الرّاسية في الأرض المستوية أو المرتفعة التي لاتطولها الخطوب والطّوفانات مهما ارتفعت وعتت. فإذا بحثنا تبعاً لهذه المعاني عن معالم هذا الدّليل الذي عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**الله الصّمد**﴾ تبيّن لنا أنّ الله تعالى هو دوماً مرجع عباده وصمودهم إليه. كما يبدو في مواجهة مكذّبي أنبيائه ورسله الكرام صخرة راسيةً تتحطّم على أعتابها الأعاصير والطّوفانات.

وكأنّه تعالى حثّنا من خلال قوله (الله الصّمد) على أن نستعرض في أذهاننا ماواجهه آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى وسواهم من أنبياء الله تعالى، وآخرهم محمد خاتم النبيّين. حثنا أن نستعرض أمواج المقاومة الصّارخة التي ووجهوا بها من قِبل مُكذّبيهم وأقوامهم. وكيف صمد هؤلاء الأنبياء جميعاً إلى الله المعتقدين بوجوده، وذلك في أشدّ وأخطر تلك السّاعات الحرجة من حياة دعواتهم، يوم لم تعد بيدهم حيلة، ولم يعد لهم ملجأ يلجؤون إليه، إلا الله وحده. وكيف ولّد الله تعالى من عالم غيبه مختلف أسباب المحافظة عليهم والدّفاع عنهم، بل أنزل بأعدائهم مختلف أنواع العذاب.

حثّنا الله جلّ شأنه من خلال قوله تعالى ﴿**الله الصّمد**﴾ على أن نذكر الطّوفان الذي أغرق به الذين استهزؤوا بنوحٍ عليه السلام. ونذكر كيف أغرق فرعون وجنوده، وأن نذكر نجاة عيسى بن مريم من مكيدةِ مُكذّبيه. وأن نذكر

كيف تحوّلت النّار برداً وسلاماً على ابراهيم. كما نذكر إخفاق قريش في محاولتهم قتل محمد رسول الله. ثم نذكر فتح الرسول العظيم لمكّة نفسها، وانكشاف أهلها أمامه، وخضوعهم له وتقبُّلهم لتعاليم هذا الدّين الحنيف.

فإذا استعرض المفكّر المتدبّر جميع هذه الأحداث، فلاحظ أنّ لفظ (صمد) إنّما ورد في قوله تعالى (الله الصّمد) مُعرّفاً بالألف واللاّم، دلالة على أنّ الله تعالى هو وحده الذي يُصمد إليه في شدائد الأمور.

فهو الوجود المعهود ذهنيّاً في جميع الأحداث التي ذكرناها، تجلّى له إثر ذلك معالم هذا الدّليل المُبرهن على وجود الله عز وجلّ. فعمد عقلُهُ إلى تصوُّر وجود الله تعالى، وليس عكس ذلك. ذلك أنّه لابد له أن يقول في حديث نفسه: كيف تجري جميع هذه الأحداث والطّوفانات، وتأتي هذه النتائج الإيجابيّة، ويكون ذلك من قبيل المُصادفة، في جميع هذه الأزمان، ولمصلحة أفرادٍ جُلّ ماأعلنوه للنّاس أمثالهم، هو أنّ الله موجود ويُكلّمهم أيضاً؟

على هذه الصورة تتجلّى لأعيننا معالم الدليل الأوّل على وجود الله تعالى من خلال الآية الكريمة ﴿**الله الصّمد**﴾. ذلك أنّ هذه الأحداث قد كشفت وجود الإله السيّد الصّمد الذي لايُقضى دونه أمرٌ والدّائم الرفيع، والذي يُصمد إليه عند هذه الحاجات والضرورات. فهو تعالى تلك الصّخرة الرّاسية مجازاً والتي لاتطولها الخطوب والطوفانات مهما ارتفعت وعتت وأوهمت في كلّ مرّةٍ هاجت بها أنّها المُنتصرة، ثم آبت بالخيبة والخّذلان، وكانت العاقبة للمُتّقين.

فهذه شهادات متكرّرة أمام أعين الناس تصوّر بل تثبت وجود خالقهم وهاديهم، وعليه فبالإمكان اصطلاح اسم دليل (الوحدانيّة في الذات) لهذا الدّليل. ويكون الله تعالى بذلك قد أدلى من خلال قوله (الله الصمد) بأوّل دليلٍ يثبت من خلاله إحدى مقولتيه اللّتين اشتمل عليهما قوله تعالى (قل هو الله أحد). ومن ثم كان لابدّ لنا من البحث عن معالم الدليل الثاني الذي يثبت مقولة الأحديّة التي اشتمل عليها لفظ (أحد) في قوله تعالى (قل هو الله أحد)، بعد أن كشفنا عن الدّليل الأوّل الذي أثبت وجود الله عز وجلّ. هذه المقولة التي اشتمل عليها قوله تعالى: (قل هو الله)، أي أعلم بوجود الله عظيم الشأن والمقام.

وقد سبق أن لاحظنا أنّ مقولة الأحديّة ذات شقّين: الأحدية في الذات والأحديّة في الصفات. كما أورد تعالى قوله (ولم يكن له كفواً أحد) بمقابل

الأحديّة في الصّفات. كما سبق أن قلنا أنّ هذا الدّليل الثاني جيء به على أسلوبٍ نَهَجه علماء عصرنا في البرهنة والاستدلال، فكان الأسلوب العلمي المتعدّد العناصر.

ويتساءل الباحث عن قوله تعالى: ﴿**لم يلد ولم يولد**﴾ ودلالته على تفرُّد الله في ذاته؟

أقول: إنه عز وجلّ نبّه أذهان عباده هنا إلى قانون الاحتياج العام. فهم يُذعنون في استمراريّة وجودهم لهذا القانون الطبيعي. وهذا ماكان قد عبّر عنه تعالى في سورة فاطر (١٥) بقوله: ﴿**ياأيّها النّاس أنتم الفقراء إلى الله، وهو الغنيّ الحميد، إن يشأ يُذهبكم ويأت بخلقٍ جديد، وماذلك على الله بعزيز**﴾، وهذا يؤذن بإذعان النّاس لقانون الاحتياج العام. على حين أنّ الله عز وجلّ هو الصّمد أي الرفيع الدّائم الذي لايحتاج في دوام وجوده إلى هذا القانون. وإذا كان إحدى ظواهر هذا القانون، أن يكون أحدكُم والداً ومولوداً. فالله (لم يلد ولم يولد)، لأنّه يتّصف في وجوده بالأزليّة والأبدية.

وكأنّه جلّ شأنه يقول لنا بألفاظٍ أخرى: مادمتم تحتاجون في وجودكم واستمرارية وجودكم إلى أن تلدوا أو أن تكونوا مولودين، فلابدّ أن تكونوا مخلوقين من جهة، وأن يكون خالقكُم مُبرّأً ومُنزّهاً عن هذا الاحتياج مُتّصفاً بالديمومة من جهة ثانية (لم يلد ولم يولد). وهكذا تتلازم مقدّمة الدليل ونتيجته، فتقتضي أولاهما الثانية بطبيعة الحال. وهذه النتيجة إن دلّت على شيء، فإنّما تدلّ على تفرّد الله في ذاته، فهو دائم الوجود ومُستغنٍ عن أن يلد أو يولد.

ثم يتساءل الباحث عن قوله تعالى: ﴿**ولم يكُن له كفواً أحد**﴾ وعن دلالته على تفرّد الله عز وجلّ في صفاته؟

أقول: الكفءُ في اللّغة العربية معناه المُماثل. تقول: هذا كُفء فلان أي مثيله. هذا ماأورده صاحب معجم أقرب الموارد. وصاحب معجم المفرّدات أضاف أنّ الكفؤ هو المثيل في المرتبة. وإنّ معاني الكفء هذه متعلّقة بالدلالة على تفرّد الله في صفاته أيضاً. فلم يكن كفؤاً له أحد يماثله فيما يتسّم به من صفات وأسماء حُسنى.

وألفاظ هذه الآية ﴿**لم يكن له كفواً أحد**﴾ تنقل ذهننا إلى نواحٍ عديدة يقتضيها العقل والمنطق. فلو أننا افترضنا وجود أكثر من إله، وكانوا متكافئين ومتماثلين في صفاتهم، لاستحال استمرار العالم في تبعيّته لقوانين واحدة، ولهبّت على هذا العالم ريح الفساد والدّمار، إذ لايُعقل إلاّ أن يكون لكلّ إلهٍ من الآلهة خطّة عملٍ تُغاير خطة عمل الإله الآخر. ولابدّ أن يسعى كلٌّ منهما إلى السيّادة على هذا العالم دون الآخر. وإلى هذه النتيجة العقليّة والمنطقيّة أشار الله عز وجل في سورة الأنبياء (٢١) حينما قال: ﴿**أم اتّخذوا آلهة من الأرض هم يُنشرون. لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفَسدتا، فسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون. لايُسأل عمّا يفعل، وهُمْ يُسألون. أم اتّخذوا من دونه آلهةً قل هاتوا بُرهانكم، هذا ذكْر من معي وذكر من قبلي، بل أكثرهم لايعلمون الحقّ فهم مُعرضون. ومأارسلنا من قبلك من رسولٍ إلاّ نوحي إليه أنّه لاإله إلاّ أنا فاعبدون. وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً سبحانه، بل عبادٌ مكرمون. لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾.

وهكذا فإنّ قوله تعالى: ﴿**ولم يكن له كُفواً أحد**﴾ يحمل الدّلالة القاطعة على أنّ الله الخالق لهذ الكون ليس متفرّداً في ذاته وحسب بل في صفاته أيضاً.

والناحية الثانية التي يوّجه قوله تعالى ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾ أذهاننا إليها، ليبرهن لنا عقلاً ومنطقاً على تفرّده في صفاته عز وجلّ، هو دفعُنا إلى تفقّد القوانين الطبيعيّة التي تهيمن على مسيرة هذا الكون الذي لم يتوصّل العلماء بعدُ إلى معرفة حدوده. فإن كانت هذه القوانين الطبيعية واحدةً في جميع مااكتشفوه من أرجاء الكون. فالعقل والمنطق يقضيان أن تكون وحدة هذه القوانين دالّة على وحدانيّة الله الصّانع وتفرّده في صفاته أيضاً. ذلك لأن وحدة هذه القوانين وهذا الكون تقتضي الوحدة في ذات الخالق المُوجد وفي صفاته أيضاً.

والناحية الثالثة التي يوجّهنا إليها قوله تعالى ﴿**ولم يكن له كفواً أحد**﴾. هو أنّ أحداً مامن العلماء لم يكتشف في هذا الكون اللاّنهائي شيئاً واحداً صغيراً كان أم كبيراً يتّصف بالكمال والاستغناء وعدم الحاجة.

وكأنه سبحانه وتعالى في هذه الحالة يحثّنا على تفحّص العالم من حولنا، لنتلّمس مظهر أحديّته في صفاته عز وجلّ. وليكون لنا ذلك دليلاً واضحاً على أنّ خالقنا الذي نعبُده، لايُماثله شيء في صفاته. فهو ينبّهنا إلى أنّ كلّ شيء في

هـذا الكـون، أبعـد مـايكون عـن الكمـال، فهـو مُحتـاج في وجـوده لسـواه مـن الأشياء. أي أنّ الذّرة في أبسط أشكالها، كلّ جزء مـن تركيبتهـا يؤثّـر في سـواه، كما يتأثّر بسواه. والإنسان وقـد كـان الملحـدون يظنّـون أنّـه كـامل الشّـخصية، تبيّن أنّه مُحتاجٌ في وجوده أبداً. فهو محتاجٌ مثلاً إلى الخبز والماء والهواء. وهـاقد اكتشف العُلماء حقّاً أنّ الشمس غير مُستغنيةٍ في وجودها أيضاً. والأرض كذلك تحتاج لتوفير توازُنها إلى جاذبيّة سواها من السّيارات، كما تحتاج إلى تجديد مـواد غلافها الجوّيّ. أي أنّ الاحتيـاج صفـة عامـة للأشـياء عامّـة سَـواء منهـا العظيـم والتّافه الحقير. وهذا معناه أنّ الكون خاضعٌ لقانون الاحتياج العـام. وهـذا الأمـر يُعطي، في حدّ ذاته، دليلاً قاطعاً على أنّه أي هذا الكون لايقوم بنفسه، بل تُسيّره قوّةٌ خارجةٌ عنه. ذلك لأنّه يستحيل على الذي اتّصف بصفة الاحتياج أن يكـون خالقاً لنفسه، أو أن يكون أزليّاً في وجوده.

ثمّ إنّ قوله عزّ وجلّ ﴿**ولم يكن لـه كفـواً أحـد**﴾ ينبّهنـا إلى أنّ الكـون المحتاج من حولنا، يكاد لاتحدّه حدود من سعة أفقه وامتداده.

فلا يُعقل أن يكتشف الإنسان في المستقبل كوناً آخر من خلق إلهٍ آخـر، يكون كفواً ومثيلاً لهذا الكون.

ذلـك أنّ علمـاء الفلـك يقيسـون المسـافات مـابين الكواكـب والنّجـوم بالسّنوات الضّوئية. والسّنة الضوئية هـي المسـافة الـتي يقطعهـا شـعاعٌ مـن ضـوءٍ ينطلق من مصدره بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية.

ولهذا فإنّ السّنة الضوئيـة تسـاوي نحـو سـت ملايـين مليـون ميـل. وإنّ أقرب نجمٍ بعد الشّمس تفصلنا عنه مسافة أربع سـنوات ضوئيـة وثلـث، أي نحـو (٢٦) مليون مليون ميل. وإنّ إحدى المجرّات المسمّاة مجرّة "المرأة المسلسلة"، تبعـد عنّا مليوني سنة ضوئية. أي تبعد عنّا اثني عشر مليون مليون ميل. أي تبعُد عنّا بما لايستطيع العقل مُجرّد تصوّره من الأميال.

على هذه الصّورة فـإنّ ظـاهرة خضـوع كوننـا الـتي نعيـش فيـه لقـانون الاحتياج العام في كل ذرّة من ذّراته، وفي كل شيء من موجوداته، وهـو الكـون الذي لم تتراء للعلماء أبعاده، ليؤكّد هذا الواقع أنّ خالق هذا الكـون يتفـرّد يقينـاً في أسمائه الحسنى وصفاته.

كما يستحيل أن يُكتشف في المستقبل وجود أيّ شيءٍ مُستغنٍ في ذاته غير مُحتاجٍ إلى سواه. وهذا الأمر يصل بنا إلى اليقين الجازم بصدق هذا الدّليل القرآني العظيم، ذلك الدّليل الذي قدّمته لنا سورة الإخلاص من خلال قوله تعالى: ﴿**ولم يكن له كُفواً أحد.**﴾.

من هذا كلّه، ندرك جليّاً وبكل وضوح، أنّ سورة الإخلاص التي لم تتجاوز أربع آيات، لم تجلُ كُتب التّفسير مضمونها، فذهبت إلى أنّ ذكر صفات الله الواردة فيها، كان لمجرّد التّعداد، على حين أنّ سورة الاخلاص لخّصت لنا موضوع عقيدة التّوحيد التي اشتمل عليها القرآن الكريم. وأتى هذا التّلخيص على صورة مقولتين: مقولة وجود الله، ومقولة تفرّد هذا الإله في ذاته وفي صفاته. كما أثبتت آيات سورة الإخلاص هاتين المقولتين، وذلك بتقديم دليلين يُثبتان صحّتهما، وبإعجاز لغوّي وعلمّي مابعده من إعجاز، ومن ثم احتواء ﴿**قل هو الله أحد**﴾ على هاتين المقولتين، كذلك احتواء ﴿**الله الصّمد**﴾ على دليل وجود الله عز وجلّ.

والدليل على تفرّد هذه الذات اشتمل عليه قوله تعالى: (لم يلد و لم يولد). والشّطر الآخر من هذا الدليل الثاني وهو تفرّد الله في الصّفات، اشتمل عليه قوله عز وجلّ (و لم يكن له كفواً أحد).

فإذا قرأ المؤمن سورة الإخلاص بهذا الفهم وهذا الإدراك، فكأنما قرأ ثلث القرآن الكريم حقّاً، على حسب ماورد عنه ﷺ.

فلو كانت سورة الإخلاص قد أُنزلت جواباً عن سؤال من قِبَل المشركين مُوجّهٍ إلى رسول الله ﷺ ليصف لهم ربّه، لكان هذا الوصف ناقصاً، ولنتذكّر ماأوردته سورة الحشر من وصفٍ وصفت به الله عز وجلّ حيث ورد فيها: ﴿**هو الله الذي لاإله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة هوالرحمن الرحيم. هو الله الذي لاإله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عمّا يشركون. هو الله الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبّح له مافي السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.**﴾ فسبحان الله الذي جاءت آيات سورة الإخلاص محوراً لصفاته وأسمائه الحسنى.

❁❁❁

٤ ـ دليل العلة والمعلول أو السبب والمسبب

وأدلت الآيات بدليلين اثنين في سورة ابراهيم يبرهنان على وجود الله عز وجلّ. أحدهما من النوع البسيط، الذي لايعسُر فهمه على أيٍ من مُستويات الأفهام. وثانيهما جاء بالأسلوب العلمي المعاصر المتعدّد العناصر.

وقد ارتكز تعالى فيه إلى حصيلة ماكشفت عنه العلوم المعاصرة في القرن العشرين. ونتناول أوّلاً توضيح الدليل الأوّل البسيط العنصر:

ففي سورة ابراهيم الآية (٨) قال تعالى: ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلاّ الله، جاءتهم رسلهم بالبيّنات فردّوا أيديَهم في أفواههم وقالوا: إنّا كفرنا بما أرسلتُم به وإنّا لفي شكٍ ممّا تدعوننا إليه مُريب. قالت رسلُهم: أفي الله شكٌ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخّرَكم إلى أجلٍ مُسمّى، قالوا: إنْ أنتم إلاّ بشرٌ مثلُنا تريدون أن تصدُّونا عمّا كان يعبُد آباؤنا، فأتونا بسلطانٍ مبين.** ﴾.

ويبدو واضحاً أنّ هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على هذا الدّليل. فقد كان كلّ نبيّ من أنبياء الله ورسله يدلي بهذا الدّليل في مواجهة قومه، للاستدلال من خلاله على وجود الله الذي أرسله، والاعتماد عليه في اثبات صدق نبوّته. ولْنَقُل أنّ أفهام البشر لم تكن تستسيغ سماع وفهم دليل أعقد من هذا الدّليل. وهذا الدليل يُدركه حتى البدويّ في الصّحراء.

إذ يُروى أنّ فيلسوفاً لقي بدوّياً ساذجاً، فسأله: أتؤمن بوجود الله الخالق؟ فهزّ البدويّ رأسه إيجاباً. فطالبه الفيلسوف بالدليل، أجاب البدويّ: البعرة تدلّ على البعير. وآثار الأقدام على المسير، والسّماء ذات الأبراج والأرض ذات الفِجاج، أفلا تدلُّ على اللّطيف الخبير؟

وهذا الدليل البسيط الذي أدلى به البدويّ، هو مااصطُلح على تسميته بدليل العلّة والمعلول أو السّبب والمسبّب. وهو الدّليل الذي اشتملت عليه هذه الآيات من سورة ابراهيم. وقد دأب على طرحه والإدلاء به جميع من سبق من أنبياء الله تعالى قبل الإسلام في مواجهة أقوامهم وهيّا نتدبّر هذه الآيات الكريمة.

فالملاحظ هو أنه تعالى أخبرنا عن حال أقوام هؤلاء الأنبياء بكلام بليغ وذلك حين قال: ﴿**جاءتهم رسلهم بالبيّنات فردّوا أيديهم في أفواههم.**﴾.

فالمقصود باليد هنا نعمة تعاليم الرسالات والأديان التي بُعث بها أنبياؤهم، وليس اليد الظاهرية بقرينة قولهم بعدها: ﴿**وقالوا إنّا كفرنا بما أُرسلتم به..**﴾. وكأنّ أقوام الأنبياء السابقين وقفوا موقفاً واحداً من أنبياء الله تعالى، مُظهرين عدم استعدادهم لقبول دعواتهم وتعاليم رسالاتهم التي جاؤوهم بها من الله عز وجلّ. وكأن كلّ قوم من تلك الأقوام قالوا لرسولهم: اذهب عنّا بنعماء رسالتك وعُد إلى دارك، فلاحاجة بنا للإستماع إليك، ﴿**وإنّا لفي شكٍ ممّا تدعوننا إليه مريب.**﴾.

والمعلوم هو أنّ كلّ نبيّ دأب على دعوة قومه إلى الإيمان بوجود الله عز وجلّ، إلى جانب الإعلان عن أنه رسولٌ من قبله. لذلك ﴿ **قالت رسُلُهم: أفي الله شكٌّ فاطِرِ السّموات والأرض.**﴾. ولنلاحظ أنه تعالى لم يقل (فاطر السّماء والأرض). ذلك لأنه أراد أن يلفت الأنظار إلى عظمة هذا البّناء الشامخ العظيم المؤلّف من الكواكب والشّموس والسّيارات والمجرات، الذي يعلو رؤوس العباد. ثم إنّ كلمة فاطر من فَطَرَ الشيء: شقّه. وفطر الأمر اخترعه وابتدعه وابتدأه وانشأه (أقرب الموارد). والملاحظ هو أنّ الله تعالى طرح هذا الدّليل بأسلوب الاستفهام الإنكاري ليُظهر مبلغَ ظهوره ووضوحه وقربه من الحقيقة والواقع ﴿**أفي الله شكٌ**﴾ أيُعقل أن ترتابوا بوجود خالق السموات والأرض وتتجاهلوا حتميّة وجود خالق لكلّ شيء من الأشياء وسبباً لوجوده؟ فالآباء هم علّةٌ ثانية لوجود أبنائهم. والعلّة الأولى وجود الخالق. ثم إنّ الأدوات المصنوعة لابدّ لها من علّة. والعلّة صانعوها. أفبعد هذا ترتابون بوجود مُبدع هذه السّموات والأرض وذارئها ومُنشئها؟

وهذا الدليل البسيط العنصر، والمُستقى من واقع البشر على مرّ الزّمان. لم تستسغه عقول علماء القرن التاسع عشر الأوربيين المادّية، بالرّغم من بساطته ومعقوليته، وخصّوه بهجوم كبير. ظنّاً منهم أنّ هذا الكون الماديّ قديمٌ جدّاً وأزليّ، وأنّه يتطوّر من نفسه منذ أبد الآبدين.

أما علماء القرن العشرين الذين فوجئوا بنظريّة العالم الفيزيائي (غاموف) المعروفة بنظريّة الانفجار العظيم، هذه النظرية التي أثبت غاموف من خلالها أنّ عالمنا المادّي مخلوق وليس هو بأزليّ. وقد تم ابتداؤه وانشاؤه منذ (١٢ إلى ٢٠)

مليار عام، فقد مال هؤلاء العلماء إلى تصديق هذا الدليل القرآني، الذي دأب أنبياء الله تعالى على مواجهة أقوامهم به على الدّوام.

وهاهو العالم الفيزيائي (أدموند و يتيكر) يطرح سؤالاً، مفاده: هل من مكان لإلهٍ في هذا الكون المادّي من حولنا؟ ويجيب هو نفسه عن السؤال فيقول: (ليس هناك مايدعو إلى أن نفترض أنّ المادة والطّاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم، وأنّه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الذي يميّز تلك اللحظة عن غيرها من اللّحظات في الأزليّة؟ والأبسط أن نفترض خلقاً من العدم، أي ابداعاً قامت به الإرادة الإلهية للكون من العدم.).

والمهم هو أنّ الاتّجاه العلمي المعاصر، بات يتقبل هذا الدّليل القرآني البسيط. يتقبّل أن تكون لكلّ شيء علّة وسببٌ للوجود. ويسلّم بوجود الله الذي شاء أن يخلق هذا الكون، فأبدعه وأنشأه، فكان العلّة والسّبب الأساسي لوجوده (عالم المعرفة ـ العدد ١٣٤).

٥ ـ دليل الغائية والتّكامل:

وفي سورة ابراهيم نفسها، وابتداءً من الآيات (٣١) أدلت الآيات بدليل آخر متعدّد العناصر وبالأسلوب العلمي المعاصر في الاستدلال، الذي يثبت للعقل وجود الله الخالق المُبدع والهادف أيضاً. أقول أدلت هذه الآيات بدليل تجاوز أسلوبه في البرهنة والاستدلال مرحلة أسلوب الأسلاف من علماء القرن التاسع عشر، الذين كانوا يَعْزَون وجود كلّ شيء إلى عُنصري الضّرورة والمصادفة، مُنطلقين من اعتقادهم بأزليّة المادّة وخضوعها لقانون النّشوء والارتقاء في جميع أطوارها، وقد ارتكز هذا الدّليل إلى توضيح نقطتين هامتّين: الأولى هي أنّ جميع الظّواهر دالّةٌ على أنّ خلق كل شيء من أشياء هذا العالم كان هادفاً. والنّقطة الثانية هي أنّ كُلّ شيء في هذا الكون يُكمل المقصد والهدف الأصلي لخلق هذا الكون. لذلك تَراني اصطلحت لهذا الدّليل عُنوان دليل الغائيّة والتّكامل.

وقد أدلت الآيات بهذا الدّليل العلمّي الهام بعد أن فرغت من الكلام عن الأنبياء السابقين، ومواقف أقوامهم منهم، وماتبعه من أمور. وقد جاء هذا الدّليل العلمّي اثباتاً أيضاً كون هذا الإله الخالق هو عالم الغيب والشهادة. وليثبت من خلال الإدلاء بهذا الدليل صلاحيّة القرآن الكريم لكلّ زمانٍ ومكان.

وهاهو قد أدلى بدليلٍ أسلوب طرحه نفس أسلوب علماء القرن العشرين العلمّي في البرهنة والاستدلالّ.

وقد أتى الدّليل يُبرهن على وجود الله تعالى بنفس أسلوب هؤلاء العلمي المتعدّد العناصر، المستند إلى مختلف مُعطيات علومهم أيضاً.

وقد جاء في الآيات من سورة ابراهيم التي اشتملت على هذا الدّليل قوله تعالى: ﴿ **الله الذّي خلق السّموات والأرض، وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم، وسخّر لكُمُ الفُلك لتجري في البحر بأمره، وسخّر لكم الأنهار. وسخّر لكم الشّمس والقمر دائبيْن وسخّر لكم اللّيل والنّهار. وآتاكم من كل ماسألتموه، وإن تعدّوا نِعمة الله لاتُحصوها، إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار.**﴾.

ولنلاحظ أوّل مانُلاحظ أنّه جلّ شأنه لم يُقل ﴿ **الله الذي خلق السماء والأرض**﴾. بل أتى بصيغة الجمع للسّماء أي (السّموات). على شاكلة مافعله في الدّليل الأوّل الذي قال فيه (فاطر السّموات والأرض). و لم يفعل ذلك دون حكمةٍ ومقصد. بل جاء به كذلك لتنبيه أذهان علماء عصرنا، هؤلاء الذين بَرعُوا في علوم الفلك، إلى أنّه تعالى يتكلّم، وهو يعلم بما تشتمل عليه السّماء من فوقهم، فهي ليست سماءً بل سموات، أي ليست هي صفوفٌ من النّجوم الظاهرة للعيون، بل هي سماوات مُتراكبة ملأى بالكواكب والنجوم والمجرّات.

والله عز وجلّ، بعد أن طرح مقولته هذه من خلال قوله: ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض..**﴾ بمعنى أنّ هذا الكون المادّي مخلوقٌ، وأنّ خالقه هو الله عالم الغيب والشهادة، أقول: بعد أن طرح تعالى مقولته هذه أخذ يبرهن على صحّة مقولته. فلمّا انتهى منه، أنهى دليله العلمي هذا المتعدّد العناصر، بألفاظٍ مؤثّرة بليغة وهي: ﴿ **إن الإنسان لظلومٌ كفّار..**﴾. تنبيهاً لعقول علماء القرن العشرين خاصة، هؤلاء الذّين تكشّفت لهم مُختلف العلوم، فلم يستفيدوا منها حقّ الاستفادة، و لم يؤمنوا عن طريقها حقّ الإيمان، فيؤوبوا إلى خالقهم بصورةٍ عمليّة. فحقّ قول الله عليهم خاصّة ﴿ **إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار**﴾.

والأمر الأوّل الذي تناوله هذا الدّليل، هو التنبيه إلى أنّ خلق الله تعالى للسّموات والأرض ماحدث عبثاً، بل جاء يستهدف خلق الأرض وإقامة الحياة على سطحها، وخلق الإنسان فيها. وهذا التّنبيه للأذهان تحقّق من خلال قوله

تعالى بعد ذلك بالتّتابع ﴿رزقاً لكم﴾ ﴿وسخّر لكم﴾ ﴿وآتاكم من كلّ ماسألتموه﴾. والمقصود من هذه العبارات أن وجود الإنسان، وأسباب استمرار حياته على سطح الكرة الأرضية، كان هو محور هذا الخلق كلّه.

وقد جاء هذا التنبيه إلى هذه الحقيقة لينقل ذهن العالم المفكّر إلى أمورٍ علميّةٍ هي أوسع وأشمل بكثير ممّا ينتقل إليه ذهن الإنسان العاديّ.

جاء هذا الأمر لينتقل ذهن عُلماء القرن العشرين المُعاصرين، دون علماء القرن التّاسع عشر الذين لم يكونوا قد اطّلعوا على نظريّة آينشتاين، أو عرفوا الذّرة وتفاعلاتها، أو كشفوا علم تفجير الذّرة وماإليها، ولاكانت للفيزياء النوويّة وفيزياء الكمّ في زمنهم من وجود.

إنّ الله عز وجل، وهو قد انطلق في دليله هذا من أنّ خَلْقَهُ لهذا الكون كان هادفاً خلق الحياة والإنسان في ظلاله. هذا الأمر الذي أشار إليه من خلال تعابير (رزقاً لكم) (وسخّر لكم) (وآتاكم من كلّ ماسألتموه). أقول: إنّ انطلاقه تعالى من هذا المُنطلق، يحثّ ذهن العالم الذي يعيش في عصرنا لمراجعة ماتوفّر له من معلومات حتى اللّحظة، وكيف مهّد الله تعالى لخلق الحياة وخلق الإنسان إبداع هذه السّموات والأرض، بل سخّر لتحقيق ذلك المقصد العظيم هذا الكون العظيم الذي لم تُدْرك نهايته بعد وحدوده.

فالله تعالى، وقد خلق هذا الكون أصلاً من عُنصرٍ واحدٍ هو الهيدروجين على ماثبت علميّاً. فقد تطلّب ذلك الأمر تحويل عنصر الهيدروجين هذا إلى عناصر مُتعدّدة. وقد اقتضى هذا التّحويل، من الوجهة العلمية احتراقاً نوويّاً حراريّاً رهيباً، أي احتاج إلى مفاعلات تحوّلُ العُنصر إلى عناصر أثقل من الهيدروجين . واستدعى ذلك أن تكون هذه المُفاعلات من الضّخامة، بحيث تصلح لمثل هذا الاحتراق النوويّ الحراريّ.

وعلى ضوء هذه الحقائق، بإمكان عالم عصرنا أن يُدرك سرّ وحكمة خلق الله تعالى لهذه الأعداد الهائلة التي لاحصر لها من النّجوم والشّموس، وهي تفوق في حُجومها حجم شمس سمائنا المعروفة بمئات وألوف المرّات.

فبإمكان عالم عصرنا أن يُدرك على حسب التّنبيه الذي نبّهت إليه ألفاظ هذا الدليل أنّ حكمة خلق الله للحياة والإنسان على سطح كوكبنا الأرضي اقتضت منه تعالى خلق هذه النّجوم كمفاعلات ضخمة، تُحوّل عنصر

الهيدروجين داخلها إلى عناصر أثقل منه كالهليوم والكربون والأوكسجين والسليكون والحديد وسائر عناصر المادّة الكونيّة. فالعالم المُعاصر يحثّه علمه لإدراك واستيعاب مغزى ودلالة قوله تعالى في بداية آيات هذا الدّليل العلميّ **﴿ا لله الذي خلق السّموات والأرض﴾**، هذه الكلمات التي تعني أنّ عمليّة خلق ا لله الحياة والإنسان، اقتضت منه تعالى أصلاً خلق هذه السّموات والأرض على حالتها الحاضرة. وإنّ عظمتها لتثبت أصلاً وجود خالقها الذي لايُحدُّ علمه، ولاتقف قُدراته عند حدود. فا لله عز وجلّ هو الذي خلق هذا الكون على هذه الشّاكلة، و لم يُخْلق هذا الكون مُصادفةً من تلقاء نفسه.

فحين يتدبّر عالم عصرنا قوله تعالى بعد ذلك: **﴿وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم.﴾** يفطن إلى أن ا لله عز وجلّ جاء يضيف إلى العنصر المذكور من دليله الذي يحاول به إثبات وجوده، عُنصراً هامّاً جديداً. وكأنه يقول: إن نحن افترضنا أنّ الهيدروجين قد اتّحد بالأوكسجين مُصادفةً، فتكوّنَ من اتّحادهما كيميائياً هذا الماء السّائل. أفلا تُلاحظون كيف أنّ هذا السّائل قد خَضَعَ لقوانين مكّنته من التبخُّر، فالتّجمع في السّماء على هيئة غيوم، لاتلبثُ أن تتحوّل ثانيةً إلى ماء، إذا مامسّ الأرض الموات أحياها، فجاءت بفضله بمختلف الثّمرات **﴿رزقاً لكم﴾**؟

وهنا يستعيد هذا العالم في مخيّلته مُختلف التجارب والأبحاث التي قام بها العلماء لمعرفة الأساس الذي بُنيت عليه نشأة الحياة فوق سطح كوكبنا الأرضي. هذه التّجارب التي عجزت حتى اللّحظة في الكشف عن هذا السرّ الدّفين الذي يكشف كيف نشأت الحياة على سطح كوكبنا الأرضي.

ويفسّر سرّ عدم عثورهم حتى اللّحظة على أثرٍ للحياة على سطح كوكب آخر سواه. هذا السرّ الدّفين الذي لو وَضَحَ لكانَ ساعد العلماء على معرفة الكيفيّة التي تولّدت بها جميع نباتات وثمار وحيوانات هذه الأرض، وتولّد الإنسان نفسه أيضاً. هذه الأمور التي لم تفسّر حتى اللّحظة تفسيراً علميّاً مقنعاً.

فا لله عزوجل إذ أضاف قوله تعالى: **﴿وأنزل من السّماء ماءً، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾** كأنّه قال بألفاظٍ أخرى أن افرضوا أنّ هذا الماء السّائل تبخّر من نفسه، وأدّت المُصادفة إلى تكوّن الأمطار وسقاية الأرض الموات نتيجةً لذلك، فكيف يتأتّى للإنسان أن تستمرّ حياته ونسله دون توفير رزقه من

الثّمرات المحتوية على أنواع الفيتامينات والنّشويات والبروتينات الضرورية لاستمرار حياته؟ أفلا يدلّ إنبات هذا الرّزق المتنوّع على أنّ ماحدث، إنما حدث بتخطيطٍ وقُدرةٍ وعلمٍ من خلق إله خالق قد قصد إلى توفير رزقكم قصداً؟ فهذه هي دلالة هذا العنصر الثاني المضاف لهذا الدليل العلمي الهام الذي صرّح به قوله تعالى: ﴿**وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لكم.**﴾. فهذا عنصرٌ جديدٌ يؤكّد وجود خالق للسّماوات والأرض، وموجدٍ لهذا النظام لتوفير رزق الإنسان وسواه. وهذا العُنصر الجديد يُعين العالم المعاصر على استيعاب بقيّة العناصر التي اشتمل عليها هذا الدليل الذي أوردته آيات سورة ابراهيم للاستدلال على وجود الخالق عز وجلّ.

فهذا يسهّل على هذا العالم أن يُدرك العنصر الجديد الذي أضافه قوله تعالى: ﴿**وسخّر لكم الفُلك لتجري في البحر بأمره.**﴾، والذي يُلفتُ من خلاله الأذهان إلى أنّ هذا الماء السّائل الذي تولّد عن اتحاد الهيدروجين بالأوكسجين، كان قد غطّى أكبر قدر من سطح الأرض، وكان يُتوقّع أن تؤلّف هذه المساحات الشاسعة من الأرض المغمورة بالمياه حواجز تحول دون اتّصال الناس بعضهم بالبعض الآخر، لولا ن ألْهَمَ الله الخالق خلقه أن يتخّذوا الفُلك التي تجري في البحر بأمره. بعد أن وفّر جل شأنه لهم جميع مايدخل في صُنع هذه الفُلك، ذلك لتنقلُهم من مكان إلى مكان، فوق سطح هذه المساحات الشّاسعة من مياه البحر، وكأنه تعالى شاءً أن يقول: فهل يُعقل أن تزعموا بعد هذا كلّه أنّ كلّ ذلك قد حدث مصادفةً واتّفاقاً؟

وبإمكان هذا العالم المعاصر أن يدرك العنصر الجديد المُضاف إلى العناصر السابقة من هذا الدّليل العلمي، هذا العنصر الجديد الذي تضمّنه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **وسخّر لكم الأنهار**﴾. فهو يُعيد إلى ذاكرته الوظيفة التي تؤدّيها الأنهار والخدمات لصالح البشر، خلال مُختلف الأزمنة والأمكنة، الأمر الذي بات معلوماً من أكثرية المثقفيّن.

ولم تنشأ الحضارات أصلاً إلاّ على ضفاف الأنهار. وقد مضى الشعراء والأدباء يقولون: مصر هبة النّيل، ودمشق هبة بردى، وهكذا دواليك.. وكأنّه جلّ شأنه عندما أضاف قوله تعالى: ﴿**وسخر لكم الأنهار**﴾ قد أراد أن يتساءل الخلق: كيف يمكن أن يكون الحال، لو لم تكن هذه الأنهار في عالَمَ الأرض؟ فهل

كان تسخير الأنهار في خدمة الخلق من باب المصادفات؟ بل هل يُعقل إلاّ أن يُعدّ هذا ثمة عنصراً جديداً يؤكّد وجود الخالق الهادف لإيجاد الحياة والإنسان، وليساعد جميع ذلك على استمرارية الحياة الإنسانية؟

وقد أضاف تعالى إلى عناصر دليله التي ذكرناها عنصراً جديداً مزيداً من خلال قوله بعد ذلك: ﴿**وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين.**﴾. أي أوَليسَ هذا النظام الشّمسي أعظم برهان على وجود الله عز وجلّ الذي كان يهدف من إيجاده استمرار الحياة الإنسانية؟ فهل أتى هذا النّظام من قبيل المصادفة أيضاً؟

وأراد الله تعالى بهذا العنصر الجديد أن يُثير عقول علماء عصرنا، ليفكّروا كيف تستمر الشّمس وتدأب على إضاءة كوكبنا الأرضي، لتدفئته فتكون عاملاً على بعث الحياة فيه باستمرار. بل كيف يدور القمر دورته المعروفة مُستمّداً نوره من الشّمس، فيتراءى للنّاس بدراً فهلالاً، ثم يغيب ليعيد سيرته، فيتغنّى به العُشّاق والشعراء في كل زمان ومكان.

يستعيد هذا العالم المعاصر ماتوصّل إليه علماء عصرنا عن الشّمس، فيدرك أنّما هي مفاعل نوويّ حراريّ عظيم، بل وعظيم جدّاً، يُنتج الطاقة الشّمسية المستمرّة الدّائبة العطاء، وذلك من خلال تحوّل العناصر النوويّة داخله. تحوّل الهيدروجين إلى هليوم، فيولّد الطّاقة والضّوء.

هذا في حين كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعتبرون الشّمس لُغزاً من الألغاز حيّر العقول. فلم يكونوا يعرفون من الطّاقة إلاّ الوقود التّقليديّ. علماً بأنّ الاحتراق الكيميائي العادي لم يصلح تفسيراً لطاقة الشّمس، إذ لو كانت الشّمس كلّها فحماً، لاحترقت وفنيت في غضون ثلاثمائة عام. فقد ظلّت هذه الشّمس لُغزاً في أعينهم، إلى أن تمكّن الفيزيائيّان (هانزبيته وكارل فون فايتزساكر) عام ١٩٣٨ من تقديم تفسير كامل لكيفيّة توليد الشّمس للطّاقة والضوء، فهل يستسيغ عقلنا أن يحدث هذا النّظام الشّمسي مُصادفة دون تخطيطٍ من خالقٍ قدير؟

وهذا النظام الشمسيّ لايُعوّل عليه في توليد الطاقة والضوء وحسب. بل يُستفاد منه لإبراز نظام آخر يرتكز إليه، وهو نظام اللّيل والنّهار. وهو عُنصرٌ جديد في هذا الدّليل العلمي، عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿**وسخّر لكم اللّيل والنّهار**﴾. ولايحيط علماً بقيمة هذا النّظام إلاّ العلماء الذين أدركوا ماهذا النّظام

من مهام موكلةٍ إليه لخدمة الإنسان والحيوان والنّبات أيضاً، ممّا يجد المرء تفاصيله في بُطونِ الكتب التي ألفّها العلماء بما يختصّ بهذا النّظام أيضاً.

والله عز وجل وقد أضاف هذا العنصر الجديد إلى دليله العلميّ، كأنّه جاء يسأل: وهل يمكن أن يحدث هذا النّظام الدّقيق، بفوائده المعلومة من قبيل المصادفة، أللّهم إلاّ أن يكون هذا من تصميم خالق يعلم حاجات هذا الإنسان المخلوق التي تفيد في استمرار حياته وبالتالي تُعينه على تحقيق المقصد من خلقه؟

فلّما أراد جلّ شأنه أن يفحم الجاحدين لوجوده وخلقه الهادف، أضاف قائلاً: **﴿وآتاكم من كلّ ماسألتموه، وإن تَعُدّو نعمة الله لاتُحصوها، إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار.﴾**.

فبهذه الألفاظ المُعبّرة أنهى جل شأنه هذا الدليل العلمي المتعدّد العناصر، الذي أدلى به في سورة ابراهيم، ليواجه به علماء عصرنا، ومن ورائهم علماء الفلك الذّين وكأنّ السّماء كُشطت أمام أعينهم فتراكمت من جرّاء ذلك معلوماتهم، وامتازوا بذلك عمّن سبقهم من العلماء. بل عاد هؤلاء العلماء يُقرّون أنّ اجتماع هذه العناصر المؤلّف منها هذا الكون المادّي يستحيل إلاّ أن يَدُلّ على وجود الله الخلاق. لكنّ هذا الدّليل وأمثاله، المستمدّ من عناصر الطبيعة والمتعدّد العناصر، مكّن هؤلاء العلماء من القول بترجيح وجود الله الخالق فقط، لكنّه لم يهبهم اليقين الكامل للتّسليم بوجود الله عز وجلّ.

وقد سبق أن وضّحت المنهج القرآني المتعلق بالاستدلال على وجود الخالق، من أنّه ينقسم إلى أدلّةٍ ترجيحيّةٍ وأدلّةٍ سلوكيّةٍ تهب اليقين الكامل بوجود الله عزوجلّ. وهذا النوع الثاني من الأدلّة سيأتي بيانه بعد الانتهاء من تقديم نماذج من الأدلة الترجيحيّة إن شاء الله العزيز.

والمهمّ هو أنّ هذا القسم من الأدلّة العلمية المتعدّدة العناصر والتي ترجّح وجود الله عزوجلّ، كان الغرض من الإدلاء بها مواجهة التّقدم العلمّي في جميع العصور. ويثبت هذا بلا ريب أنّ تعاليم القرآن الكريم صالحةٌ لكلّ زمانٍ ومكان.

٦ ـ دليل النّظام والمُنظّم:

وفي سورة المُلك أدلى الله عزوجلّ بدليل من النّوع البسيط، تدليلاً على وجوده تعالى حيث قال: **﴿تبارك الذي بيده المُلك وهو على كلّ شيء قدير.**

الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسنُ عملاً، وهو العزيز الغفور الذي خلق سبع سموات طباقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارْجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسير.﴾.

ولنتدبّر مفردات هذه الآيات ومعانيها، قالوا: طباق الأرض ماعلاها. والسمواتِ طباق أي مُتطابقة بعضها فوق بعض. ومعنى تفاوت الشيئان: تباعد مابينهما واختلفا. فالتفاوت هو الاختلاف وعدم التناسب، كما قالَ الفرّاء. والفطور من فطر الشيء شقّه. وخاسئاً أي ذليلاً. وحسيرٌ من حَسَرَ البصر: كلَّ وانقطع من طول المدى.

ويُستدل استناداً إلى هذه المعاني أنّ الله تعالى قد أراد بقوله: ﴿ **الذي خلق سبع سماوات طباقاً.. الخ:**﴾ أراد أن ينبّه الأذهان إلى أنّ جميع مافي هذا الكون يخضع لنظام واحد، ذي قوانين واحدة أيضاً. أي أنّه مهما تقدّمت علوم الفلك، فلن تكشف عن أيّة ثُلمةٍ في هذا النظام.

وقد أراد تعالى من هذا التنبيه إلى وجود هذا النظام، أراد تقديم دليلٍ علميٍ أرقى وأقوى من دليل العلّة والمعلول الذي سبق أن بيّناه.

فهو جلّ شأنه لايستدل هنا على وجود الله عزوجلّ من كون كلّ شيءٍ مخلوقاً. بل يستدل بالنظام الكوني على وجود المنظّم الأحد. فهو تعالى ينبّهنا إلى أنّ النجوم والكواكب والسيارات، على ضخامة كلّ منها، لاتعملُ منفصلةً، كلٌّ على نظام. بل يضمّ الجميع نظام واحد وقوانين واحدة. في وقتٍ تتقاسم هذه الكُراة الضّخمة أعمالها وحركاتها، في ظلّ هذا النّظام الواحد والقوانين الواحدة. بالرّغم من أنّ كُلاً من هذه النجوم والكواكب والسيارات، تبدو مستقلّةً إحداها عن الأُخرى. وقد استحثّ ربُّنا عقولَنا أن تقف تجاه هذه الظّاهرة الكونية وقفة تدبُّر ومراجعة. لتوقن من جرّاء ذلك وجود خالقٍ مُبدعٍ ومنظّم أيضاً لهذا النّظام الكوني الواحد.

وهو تعالى عندما استحثّ عقولنا من خلال قوله: ﴿ **ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.**﴾. دفع هذه العقول إلى تقليب النّظر في الأمر من زوايا مختلفة، وليس من زاوية نظرٍ واحدة.

قال افرضوا أنّ هذا النظام الكوني الواحد، عَرَضَ وجودُه مصادفةً واتّفاقاً. وحاولوا تحليل الكُلّ إلى أجزائه، ومُمعنين نظركم فيه. ودونكم الإنسان مثلاً، فإنّه لايبدو مُنفصلاً عن هذا النظام الكوني، وإن بدا مستقلاً في الوقت نفسه عن هذا النّظام.

فالإنسان الذي لايستغني في وجوده عن الشّمس وضوئها وحرارتها، ولاعن الهواء والماء والغذاء. يبدو مستقلاً من حيث أنّه أُوتي عقلاً وحواسّ متلقّية متناسقة القوانين والأداء، فأيدي الإنسان هي أبرع من الآلة الكاتبة في الكتابة. وعيناه أعظم من جميع آلات التّصوير للرؤية وتمييز الألوان والأشكال. وأنفُه ولَمسه وأرجله وسواها من الأعضاء والحواس، بارعة التلقّي والأداء والتناسق فيما بينها. بل وهب الخالقُ هذا الإنسان عقلاً مُفكّراً يخزن به ماشاء من معلومات.

فالإنسان إذن يدور في فلكٍ كونّي يخضع فيه لِما هو حوله كالشّمس والقمر والهواء والماء والغذاء. كما يدور في فلك نفسه وكيانه الجسمانيّ المؤلّف من الأعضاء والحواس والدّماغ. وعلى شاكلته يُقال هذه حالُ الكواكب والنجوم والسيّارات. والعقل البشريّ لايستسيغ أن يأتي هذا النظام عُلى هذه الصّورة اتّفاقاً وعرضاً. بل يجزم أن يكون قد أتى من إبداع خالقٍ مُنظّم هو على أعلى قُدرة في الخَلق والتنظيم.

ثمّ إنّ حواس الإنسان، بالرغم من أنّها تبدو مستقّلةً في حدّ ذاتها، لكنّها في حقيقة الأمر تابعةٌ لما هو كائن في هذا الكون من أشياء. فلاترى العين إلاّ بتوسّط الضّوء الذي يأتيها من الشّمس من على بُعد مئات ألوف الأميال. والأذن لاتسمع إلاّ بتوسّط هواء الجوّ الأرضي، الذي يحمل إلى الأذن مختلف ذبذبات الأصوات، من مختلف الجهات. فحواس الجسم إذن، وإن كانت تبدو مستقلّةً متناسقة فيما بينها، فإنّها في حقيقة أمرها غير مُستغنيةٍ عن النظام الكوني العالمي.

وقوله تعالى: ﴿ **ثم ارجع البصر كرّتين، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.**﴾، يحثُنا أن ننظُر من زاويةٍ ثالثةٍ أدقّ. وذلك بأن نتناول الخلايا الحيّة التي يتركّب من مجموعها جسم الإنسان. فلقد تكشّف للعلماء أنّ كُلّ خليّةٍ من هذه الخلايا، تؤلّف عالماً مستقلاً مُنظّماً ومتناسقاً. وهي في الوقت نفسه تخضع للنظام الجسمانّي العام.

فلكلّ خليةٍ من خلايا جسم الإنسان استقلالها ونظامها وتناسقها من جهة، وهي تتبع نظام الجسم الكُلّي من جهة ثانية، فلاهي مُستقلة استقلالاً تامّاً، ولاهي تابعةٌ بصورةٍ مُطلقة.

والمهمّ في الأمر هو أنّ آيات سورة الملك هذه لفتت أذهاننا إلى ظاهرة النّظام الكوني التي ذكرناها، لتقول لنا بألفاظ أخرى: هل تستسيغ عقولكم أن تتأتّى معالم هذا النّظام الكوني مصادفةً واتّفاقاً؟ أفلا تلاحظون أنّ كلّ شيء في هذا العالم إنّما يُرى حلقةً من سلسلةٍ لاتنتهي من السّلاسل التابعة لنظام واحدٍ متناسقٍ لاتصادم فيه بين سلسلة وأخرى؟

وبهذا التنبيه إلى هذا النّظام الكوني الشامل لكلّ شيء في الوجود، يقدّم القرآن حجّةً قاطعة الدّلالة على وجود الله الخالق المنظّم المُبدع، وقد اصطُلح على تسمية هذا الدليل: دليل النّظام والمنظّم.

وعلى شاكلة دليل العلة والمعلول أو السبب والمسبب، فإنّ هذا الدّليل لم يسلم من نقد علماء القرن التاسع عشر الاوربيين الذين زعموا أنّ الكون أزليّ أبديّ. وراحوا يقولون مستهزئين: كيف تكون الشّجرة في الغابة، والحيوانات السّارحة في الصحراوات، والطّيور المحلّقة في أجواز الفضاء، والأفاعي والعقارب والدّواب المؤذية، وديدان الأشجار، كيف تكون جميع هذه الأحياء مسخّرة للإنسان؟ فهذه الأحياء التي ذكرناها لم تكن تخضع في نظرهم لقانون، هذا ماكان عليه مبلغ علمهم في عصرهم.

أمّا علماء القرن العشرين الغربيون فقد تكشّفت على أيديهم ما لم يتكشّف على أيدي أسلافهم من علوم. فهم الذّين تكشّفت لديهم معارف إنجلى لهم بها حتى تركيب الذّرة. وَوُفّقوا لإرسال مركباتٍ فضائيّة، كشفوا بها مجاهل الفضاء. وهكذا بدؤوا يؤمنون بصحّة هذا الدّليل الذّي قدّمه القرآن الكريم من حيث لايشعرون. وأخذت نظرتهم العلميّة الجديدة تكشف لهم أنّه مامن مخلوق في هذا الوجود إلا وهو يخضع للنّظام الكونيّ، فهناك توازنٌ طبيعيٌّ، بإمكان الإنسان الاستفادة منه، وأنّ الإنسان نفسه هو جزء من هذا التّوازن الكونيّ.

وقد عاد هؤلاء العلماء يتلمّسون عُنصراً روحيّاً، إضافة إلى العنصر المادّي في هذا الكون، مُتجاوزين في فهمهم وإدراكهم، مرحلة تفسير الأمور على أساسٍ من مبدأي المصادفة والضّرورة، حتى في الأمور الجماليّة أيضاً.

وأعظم دليلٍ على اندفاعهم على هذا الطريق من الفهم والإدراك، قول آينشتاين المشهور: (لاعِلم من غير الاعتقاد بوجود تناسُقٍ داخلّي في الكون.). فآينشتاين بهذه الألفاظ المعدودة شهد بأنّ هذا الكون يخضع لنظام في جميع أشيائه، وبتناسق فريد. فمن لايرى رأيه هذا، لايمكن أن يكون عالماً، ويبقى علمه قاصراً عن إدراكٍ حقيقة الأشياء.

وقد ظهر من بعده علماءٌ كُثُرٌ، راحوا يرون رأي آينشتاين، كالعالم الفيزيائيّ(ويلر) إذ قال[1] : (إنّ كلّ قانونٍ من قوانين الفيزياء مردّه إلى شيءٍ من التّماثل والتشابه في الطبيعة.) أي أنّه حتّى في مجال الفيزياء، فإنّ قوانينها مُتناسقة، تناسُق سائر القوانين الطبيعيّة ونظامها الكونيّ.

وهكذا فإنّ دليل النّظام والمنظّم الذي طرحه القرآن الكريم في سورة الملك، من خلال قوله تعالى: ﴿**الذي خلق سبع سمواتٍ طباقاً، ماترى في خلق الرّحمن من تفاوتٍ، فارجعِ البصر هل ترى من فُطور، ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.**﴾، يتراءى هذا الدّليل من حيث قوّة حُجّته، أمضى في الإقناع من دليل العلّة والمعلول، في أمر ترجيح وجود الخالق المُنظّم المُبدع.

ولّما كانت سورة الملك هي آخر سورة من كُتلة السّور السّبع عشرة التّابعة لمضمون سورة (ق) الذّي يرمز إلى القادر أو القدير، فقد لُوحظ أنّ الآيات هُناك قد تضّمنت دليلاً علميّاً من النوع المتعدّد العناصر، دليلاً يثبت وجود الله القادر على فعل كلّ شيءٍ أراده.

٧ ـ دليل القدرة :

وقدّمت لنا سورة (ق) دليلاً علمياً متعدّد العناصر يثبت وجود الله القدير. واصطلحت له اسم دليل القدرة. عرضت سورة (ق) هذا الدّليل من خلال قوله تعالى: ﴿ **أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها ومالها من فُروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج. تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيب. ونزّلنا من السّماء ماءً مُباركاً**

---

[1] ـ المرجع السابق

فأنبتنا جنّاتٍ وحبّ الحصيد، والنّخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد. رزقاً للعباد، وأحيينا به بلدةً ميتاً، كذلك الخروج.﴾ الملك (٦-١١).

والمدخلُ إلى هذا الدّليل فيه تقريعٌ وتوبيخٌ لأصحاب العقول من العلماء الغافلين عن حقيقة هذا الدّليل. وهذا الأمر عبّر عنه تعالى من خلال استهلاله هذه الآيات بقوله: ﴿ **أفَلَم ينظروا..**﴾ أي ماهؤلاء الذّين يدّعون العلم والفهم، يتجاهلون حقيقةً ماثلةً أمام أعيُنهم، وهي هذه السّماء من فوقهم، وبهذا الأسلوب من التّعبير والطّرح لهذا الدّليل، أكسب تعالى دليله العلمي من قوّة البيان والإقناع بأساً ماكان ليتأتّى بغير هذا الاستهلال.

وقد أتى ربُّنا بهذا الدّليل العلمي مؤسّساً على مُقدّمات مُتعدّدة، وفي كلّ مُقدّمةٍ منها نقاط مُتعدّدة، وعلى أساسٍ علّمي من الملاحظة والاستنتاج. وانتهى من كلّ ذلك إلى نتيجةٍ هي الحقيقة لاريب فيها، وهي إثبات وجود الله الخالق المُبدع القادر على خلق عالم آخر مثيل.

أمّا مقدّمة الدّليل الأولى، فقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿ **أفَلَم ينظروا إلى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها ومالها من فروج.﴾**. وقد احتوت هذه المقدّمة على نقاطٍ ثلاث: الأولى أوردها تعالى على جهة السؤال، مفعولاً مُطلقاً، وذلك بقوله: (كيف بنيناها..) بمعنى أفلا تُلاحظون أنّ كلّ شيء في السّماء المترامية الأطراف، وقد جاء على نسق، فأكمل بعضه بعضاً، بحيث يؤدي مقصداً مُعيّناً؟ وهكذا بدت السّماء وهي على هذه الشاكلة تؤلّف بناءً كاملاً لاسبيل إلى تجزئته.

والنقطة الثانية عبّر عنها تعالى بقوله: ﴿**وزيّناها**﴾ أي جَعلنا هذا البناء العظيم زينةً لأعين النّاظرين، تستوقفهم وتخلب ألبابهم من روعة جماله وتناسق أجزائه.

وعبّر عن النقطة الثالثة بقوله تعالى: ﴿**ومالها من فروج**﴾ أي لن يجد العلماء في يومٍ من الأيّام، مهما تقدّم العلم وتطوّر، أي خللٍ في النّظام الكوني، بل سيزداد هؤلاء العلماء يقيناً، بأنّ السّماء بناءٌ واحدٌ مُتماسكٌ وهادفٌ أيضاً. وهذا ماتَثبُت به وحدانيّة الصُّنع والصّانع، ووحدانية النّظام والمنظم المُبدع القدير. هذه هي المقدمة الأولى لدليل القدرة العلمي المذكور ونقاطها الثلاث.

أمّا المقدّمة الثانية لهذا الدّليل العلمّي فقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿**والأرض مدَدناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج تبصرةً وذكرى لكلّ عبدٍ منيب.**﴾. وقد احتوت هذه المقدّمة الثانية على ثلاث نُقاطٍ أيضاً.

النقطة الأولى احتواها قوله تعالى: ﴿**والأرض مددناها**﴾ بمعنى أفلا تلاحظون كيف بسطنا الأرض فجعلناها صالحةً لحياتكم صلاحاً كاملاً؟

والنّقطة الثانية عبّر عنها قوله تعالى: ﴿**وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج.**﴾، أي أفلا تُلاحظون كيف أنبتنا من هذه الأرض كلّ نباتٍ مُؤلّف من زوجٍ متكاملٍ، سالب وموجب، ليتلاقح ويستمرّ في العطاء، ولتحقيق هدفٍ واضحٍ هو تبصرة المخلوق وذكرى لكلّ عبدٍ منيب؟ أي عبرةً وآياتٍ لكلّ إنسانٍ باحثٍ عن الحقيقة مُستعيناً ببصيرته لاستجلاء أسرارها وخفاياها. فهذه هي المقدمة الثانية للدّليل ونقاطها الثّلاث.

وأمّا المقدّمة الثالثة التي يثبت منها وجود الخالق القادر على كلّ شيء، فقد اشتمل عليها قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا من السّماء ماءً مُباركاً، فأنبتنا به جنّاتٍ وحبّ الحصيد. والنّخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد.**﴾.

وقد اشتملت هذه المقدّمة الثالثة لهذا الدّليل العلمّي على نُقاطٍ ثلاثٍ أيضاً. النقطة الأولى احتواها قوله تعالى: ﴿**وأنزلنا من السّماء ماءً مُباركاً.**﴾ أي أفلا تُلاحظون كيف أنزلنا ماء السّماء، فأحيينا به الأرض وجعلناه مباركاً يحمل إليها الخير والخصب، فيؤلّف بذلك مادّة الحياة ووسيلتها؟

والنقطة الثانية احتواها قوله تعالى: ﴿ **فأنبتنا به جنّاتٍ وحبّ الحصيد**﴾ أي أفلا تُلاحظون كيف تولّد عن ماء السّماء المبارك هذا جناتٌ أرضيةٌ ملتفّة الأشجار، وزرعٌ تحصُدون حبّه وتنتفعون بالتغذّي به؟

والنقطة الثالثة احتواها قوله تعالى: ﴿**والنّخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد.**﴾ أي أفلا تلاحظون أنّ من هذه الأشجار التي أنبتناها، أشجار النّخيل الباسقات ذات الثمر النّضيد أي الذي ضُم بعضه إلى بعض فكان سائغاً شهيّاً وقد نبت في أرضٍ جافّة جدباء.

وقد نبّه جل شأنه الأذهان أيضاً إلى أنّ جميع ماأنبتناه لم يكن لغواً أو عبثاً باطلاً، بل بدا ومن ورائه حكمة بالغة تجلّت في أمرين اثنين: الأوّل أنّه قُدّر

ليكون النّبت (رزقاً للعباد). والثاني أنّه قد أحيا به بلدةً ميتاً لم تكن تبدو فيها معالم الحياة.

وبعد أن انتهى تعالى من عرض مقدّمات دليله العلمي. هذا الدّليل المرتكز إلى الملاحظة العلمية، نراه قد انتقل، فاستنتج منها مقولةً ثابتةً وهي وجود خالق قادر على كلّ شيء، قادرٌ على إبداع كون آخر بعد وعبّر عن هذه النّتيجة بقوله تعالى ﴿**كذلك الخروج**﴾. وكذلك تعني، أي على هذه الشاكلة تُبعث الأنفس من بعد موتها أيضاً.

فهذا هو الدّليل الثاني الذي أُدلي به بأسلوب الملاحظة والاستنتاج العلميّين. وقد طُرح هذا الدّليل، ليُثبت وجود الخالق ويُجلّي قُدُراته التي لاتقف دونها حدود.

وهكذا قدّم تعالى لنا هذا الدّليل العلمي المتعدّد العناصر، بعد أن مهّد لطرحه بأسلوبٍ علميّ أيضاً. موجّهاً أذهاننا إلى أنه لايُعقل أن تأتلف وتتساوق جميع هذه العناصر مُجتمعةً على صورةٍ هادفةٍ أيضاً، ويتأتّى ذلك كُلّه مُصادفةً واتّفاقاً. بل لابدّ أن يكون لها مُبدعٌ خالقٌ قادرٌ وحكيم. خصوصاً وأنّه تعالى قدّم دليله القرآني هذا على أسس العلم المعاصرة من ملاحظة واستنتاج. هذه الأسس التي باتت في عصرنا الأساس لجميع ماعرفته البشريّة من علوم. وإنّ أساس الملاحظة العلميّة، اعتمده دليلُنا المذكور من خلال مااستُهلت به الآيات وأسلوبه ﴿**أفلم ينظروا إلى السّماء فوقهم**..﴾، ومن خلال الواوات العاطفة التي استُهلّت بها كل نُقطةٍ من نقاط مقدّمات هذا الدّليل.

وهذا الدليل العلمي الذي جرى عليه علماء عصرنا في صوغ أسلوبهم، إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ الله عز وجلّ قد أنزل هذا القرآن لكل زمان ومكان. فعمل هذا قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، يوم لم يكن لهذا الأسلوب العلمّي في البحث والاستدلال من وجودٍ مشابهٍ له في زماننا الحاليّ.

وقد سبق لي أن قلت: إنّ الله عزوجلّ لم يكتف بتقديم أدلّةٍ نظريّةٍ تُرجّح وجوده. بل قد قدّم أدلّةً سلوكيّةً أيضاً، اعتمدت التجربة الشّخصية في الوقت نفسه، هذه التجربة التي تثبت لصاحبها وجود الله عزوجلّ، وتبلغ به حدّ المعرفة واليقين بوجوده أيضاً. وهذا ماسيأتي بيانُه بعد استكمال تقديم عددٍ مناسبٍ من هذه الأدلّة النظريّة، إن شاء الله العزيز .

ثانياً ـ الأدلّة المستمدّة من أسماء الله الحسنى

١ ـ دليل الله الحيّ:

أدلى القرآن الكريم بسلسلةٍ مُتجانسةٍ من الأدلّة التي يثبت لنا بها وجود الخالق عن طريق حسّي من صلب الوقائع والأحداث، وليس بمجرّد الاستدلال الذهني، على حسب ما كان الأمر في الأدلّة التي سبق أن ذكرناها. وقد جاء عدد جُملة الأدلّة هذه مساوياً لعدد أسماء الله الحسنى. أي أكثر من مائة دليل. أمّا سبب تساوي عدد هذه الأدلّة مع عدد أسماء الله الحسنى، فإنّه يعود إلى أنّ كلّ دليلٍ منها مُستمدٌّ من وقائع وأحداث تُجلّي كلّ صفة من هذه الصفات الإلهية. لذلك تحتلُّ هذه السّلْسلة من الأدلّة منزلةً أرفع من الأدلّة التي أسلفناها، على اعتبار أنّ الوقائع والأحداث تدخل في باب المحسوسات، ولاتدخل في باب الاستدلال الذهنيّ، لذلك فهي ليست محلّ شُبهةٍ أو ريبة. خصوصاً وأنّها تحدث وفق منهاج وقانون عامٍ وشامل.

وممّا يمتاز به القرآن الكريم أنّه زاوج بين كلّ منهجٍ وقانون، وبين كل اسمٍ من أسماء الله الحسنى المختصّ به. إنما في المكان المناسب لكلّ عنصُرٍ من عناصره. والذّي يتبقّى على الباحث المتدبّر، أن يجمع بين هذه العناصر ويُبرزها للعيان.

وهاأنذا أتناول إحدى صفتين تناولتهما سورة آل عمران استدلالاً على وجود الله عزوجلّ، من خلال الوقائع والأحداث. هذه الصّفة التي تضّمنتها أوّل آيتين من هذه السورة، هما قوله تعالى: ﴿ **آلم. الله لاإله إلاّ هو الحيّ القيّوم**﴾. وهذه الصّفة هي اسم الله (الحيّ).

فقد استدلّت سورة آل عمران على وجود الله "الحيّ" من خلال أحداث ووقائع بعثات موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، ومن خلال إنزال التوراة والإنجيل والفرقان. الأمر الذي شرحته في الجزء الأول من كتابي (حقيقة القراءة المعاصرة بمجرّد تنجيم).

فما معنى كلمة الحيّ؟ الحيّ مُعرّفاً بالألف واللاّم هو اسمٌ من أسماء الله الحسنى، ويعني أنّ الله دائم الوجود، لم يزل موجوداً، ولايزال فهو كامل الحيويّة والنّشاط فلا تأخذه سِنةٌ ولانوم. وهو أساس ومصدر الحياة في عالمنا، كما هو أساس نهضة الأمم والشّعوب وتقدّمها في مسار إنسانيّتها.

ذلك لأنّ الأمم تحيا وتموت، على شاكلة الإنسان الذي يحيا ويموت، وإنّ حياة الأمم والأفراد لفعاليّة وتجلّي صفة الله "الحي". هذا ماأفادته عدّة آيات قرآنيّة. ومن هذه الآيات: ﴿تولج اللّيل في النّهار، وتُولج النهار في اللّيل، وتُخرج الحيّ من الميّت، وتخرج الميّت من الحيّ..﴾ آل عمران ٢٧ـ٠ وقوله تعالى في الآية (٥٨) من سورة الفرقان: ﴿**وتوكّل على الحّي الذي لايموت، وسبّح بحمده..**﴾. وقوله تعالى في الآية (١٩) من سورة الرّوم: ﴿ **يخرج الحيّ من الميّت، ويخرج الميّت من الحيّ، ويُحي الأرض بعد موتها..**﴾.

والآن ماهي معالم عناصر المنهج والقانون الذي تتجلّى صفة الله الحيّ من خلالها، بما يتعلّق بإحياء الأمم والشّعوب خاصّة ومن دون بقيّة سائر الأشياء؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال يتبيّن لنا من خلال تدبّر كتاب الله الفرقان أنّ هذا المنهج يرتكز إلى خمس نقاطٍ رئيسيّة، هي :

أولاً ـ إنزال الله الحيّ أنظمة وتعاليم تتّصف بالحدّة دوماً، وتلتزم بأسلوب النقاش والحوار الخالي من أيّ إكراه أو ضغط، بعيداً عن أسلوب العُنف والقتل والتّدمير.

ثانياً ـ كلّ نظامٍ من هذه الأنظمة والتعاليم، ينسخ ماقبله من جهة ليأتي بأحسن ممّا نسخه. ويُحيي تعاليم تناساها البشر من جهة ثانية، مادامت هذه التعاليم تصلح لبيئة هذا النظام الجديد.

ثالثاً ـ و لم يستعمل القرآن الكريم لفظي (ثورة وانقلاب) تعبيراً عمّا تحدثه تعاليم النظام الجديد، هذان اللفظان الشائعان في عصرنا، بل استعمل كلمتي (قيامة وساعة) تعبيراً عمّا تحدثه تعاليم كل نظام جديد سماويّ، وهذا الأمر غفل عن الإحاطة به أكثرية المفسّرين.

رابعاً ـ إذا خاض نظامٌ جديدٌ قتالاً، فلايخوض المؤمنون به هذا القتال إلاّ مُكرهين دفاعاً عن كيانه.

خامساً ـ يتحقّق كلّ نظام جديد على أيدي أشخاص يبعثهم الله تعالى لإقامة الأنظمة الجديدة المُرتجى إقامتها. يكون هؤلاء المرسلون صفوة النّاس خلقاً وسيرةً وسلوكاً.

والذي يستعرض تاريخ الأنظمة الرّوحية هذه الـتي أُسّسـت علـى أيـدي المبعوثين الذين أرسلهم الله "الحي". لا يلاحظ أنّ أيّ واحدة من تلكـم البعثات والأنظمة، قد شذّت عن هذا النهـج والقـانون ونقاطـه الخمـس التي ذكرناها.

وهذا مايُثبت وجود الله "الحيّ" الذي يبعث بـأولئك الرسـل وبالتعـاليم والأنظمة التي يزوّدهم بها إحياءً للأمم والشعوب وإنهاضاً لها من كبوتها وانقـاذاً لها من تخلّفها وانحطاطها. فشتّان مابين عرب الجاهلية قبل الإسلام، وبين من آمن منهم بالدّين الإسلاميّ، على سبيل المثال.

والمعلوم لدى المفكّرين أنّ كلّ أمّة تسعى إلى النهوض والرّقـي والتّقـدم، فلابـدّ للذّيـن يتصـدّون لإنهاضهـا وتطويرهـا وترقيتهـا، مـن أن تحمـل رسـالتهم عُنصرين أساسيين :

الأوّل ـ أن تحمل رسالتهم أفكاراً جديدة تتناسب ومرحلة الأمة التي تمرّ من خلالها. وهذا عنصرٌ أشار الله عزوجلّ إليه في الآية (١٧) مـن سـورة الرّعـد وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿ **فأمّا الزّبد فيذهـب جفـاء، وأمّـا مـاينفع النّـاس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال.**﴾. والمعنـى أن الله الحـيّ ينبّـه إلى ضرورة توفّر عنصرٍ أساسيّ لإنجاح كلّ نظـام وتعليـم، وهـو أن يشـتمل هـذا النظـام والتعليـم علـى مبـادىء ثابتـة مفيـدة للنّـاس، وإلاّ ذهـب النظـام والتعليـم واضمحلّ، كما يذهب الزّبد الطّافي على سطح أيّ سيلٍ من السّيول.

الثاني ـ والعنصر الثاني الذي لابُدّ منه للنّجاح، هـو اللّجـوء إلى إحـدى وسيلتين، لاثالث لهما. الأولى مقابلة المُعارضين بالعُنف، إذا كان لابُدّ من العنـف كوسيلةٍ لحمايـة هـذا النظـام والتعليـم. والوسـيلة الثانيـة اختيـار الطّريـق السّـلّمي لإنجاح هذا النظام الجديد وتعليمـه، وذلـك بـالحوار الهـادىء والنّقـاش وأسـلوب الإقناع. وإلى هذا العنصر الثاني الذي لابدّ منه جاءت الإشارة في قوله تعالى مـن سورة الأنعام : ﴿**ومانُرْسلُ المرسلين إلاّ مبشّرين ومُنذرين. فمن آمـن وأصلـح فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون. والذين كفروا بآياتنا يمسُّهُمُ العذاب بما كانوا يفسقون.**﴾.

أي أن أسلوب الله "الحيّ" الذي انتهجه لإحيـاء أيّـة أُمّـة مـن الأمـم أو شعبٍ من الشّعوب. هو أن يبعث رسولاً من هؤلاء النّاس أنفسهم، يؤسّس علـى

يديه النّظام الرّوحي الجديد وتعاليمه بأسلوبٍ سلميّ، أساسه التبشير والإنذار، أي وسيلة الإقناع بطريق الحوار، تبشيراً بالنّظام الجديد المناسب للمرحلة الزمنيّة التي بُعث الرسول فيها بهذا النظام الجديد.

إلى جانب إنذار هؤلاء أنّ النّظام الرّوحي القديم قد استوفى أغراضه. وإلى جانب تبشير المؤمنين بالنظام الرّوحي الجديد الذين يصبغون حياتهم بتعاليمه، أنّ الله الحيّ سيُظلّهم بمظلّة حمايته، ويتولّى الدّفاع عنهم، ويؤيّدهم ببشاراته ونعمائه الرّوحية. الأمر الذي سيدفعهم إلى ألاّ يأسفوا ويحزنوا عمّا فاتهم. وهذا هو معنى: ﴿ **فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون**﴾. وإلى جانب أنّ هذا المبعوث سينذر، وبلسان الإله "الحيّ" كُلّ من يرفض قبول النّظام الرّوحي الجديد، بأن الله سيُنزل به عذابه، ذلك تأديباً لهؤلاء المُنكرين، وعقاباً لهم على تصدّيهم لنظامٍ روحّي أنزله الله "الحيّ" بغرض إحيائهم وإنهاضهم من كبوتهم وتخلّفهم. ذلك أنّ الله تعالى يعتبر هؤلاء الكافرين بنظامه الروحي الجديد أحجاراً ولَبِنَاتٍ لبناءٍ قديم قد تقرّر هدمه وتشييد بناء جديد ليحلّ محلّه.

وقد نبّه القرآن الكريم إلى ضرورة التزام كلّ نظام روحّي جديد بمعطيات هذين العنصرين المذكورين. وذلك من خلال قوله تعالى في الآية (٢٨٦) من سورة البقرة: ﴿**لاإكراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ**..﴾ بمعنى أنّ كل نظامٍ روحيٍ جديد يعتمد في حقيقة الأمر الأسلوب السّلمي وهو يهدي إلى الرشد تمييزاً إيّاه من الغيّ. ولايعتمد أسلوب العُنف والإكراه الذي لايُجدي في الإقناع.

فهذه هي معالم النقطة الأولى المتعلقة بالنهج الذي اختطّه الله "الحيّ" لإحياء الأمم والشعوب.

أمّا مايتعلق بالنقطة الثانية من هذا المنهاج وقانونه العام. فقد استوفى القرآن الكريم بيانه، وذلك من خلال قوله تعالى في الآية (١٠٥) من سورة البقرة : ﴿**ماننسخ من آيةٍ أو نُنسها، نأت بخيرٍ منها أو بمثلها، ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير. ألم تعلم أنّ الله له مُلكُ السّماوات والأرض، ومالكم من دون الله من ولّي ولانصير.**﴾. والمقصود بالآية هنا الكتاب السّماوي والنّظام الذي يؤسّسه. يقول الله "الحيّ" أنّه إذا استنفذ أيّ كتاب روحّي أغراضه

ومقاصده، أنزل الله الحيّ نظاماً جديداً يحلّ محلّه وينسخه. فيحُيي من خلال تعاليم النظام الجديد مالايزال من التعاليم صالحاً للعمل به، ومفيداً للمرحلة الجديدة. ويستبدل من التّعاليم التي نسخها ماهو خيرٌ منها وأفضل. ويهدم ماابتدعته أهواء الناس.

وقد نبّهنا الله الحيّ إلى قدراته التي تمكّنه من إحداث هذا التّغيير. خصوصاً وأنّه يملك مقاليد السّماوات والأرض، فلا تستطيع قوّةٌ الحيلولة دون إنجاح نظامه الجديد. كما نبّه جلّ شأنه إلى أنّ الذين يقاومون نظامه الرّوحيّ الجديد، لايجدون من دون الله من ولّي يتولاّهم بعنايته أو نصيرٍ ينصرهم فيما يُنصب لهم من مكايد.

وفيما يتعلّق بالنّقطة الثالثة من منهاج الإحياء الإلهي وقانونه العام الشّامل، وهو أنه تعالى لم يصطلح كلمتي (ثورة وانقلاب) لعمليّة إحلال النّظام الروحي الجديد، بل استعمل بدلاً عنهما مُصطلح كلمتي (الآخرة والسّاعة).

فقد كان السّبب في ذلك أنّه تعالى أعرض عن طريق العنف في مجال بسط نظامه الجديد، واختار الأسلوب السّلمي والذي أداته النّقاش والحوار والإقناع. متيحاً بذلك للإنسان أن يقف الموقف الذي يشاؤه من النظام الروحي الجديد، فيُعاقب هذا الإنسان أو يُثاب.

أقول: اختار تعالى لفظ (الآخرة)، بسبب ماتُحدثه بعثات أولي العزم من رسله من تحوّلاتٍ اجتماعيّة جذريّة في مجتمعاتهم، وبما يشبه مايحدث يوم القيامة من ظهور سماء جديدة وأرضٍ جديدة وبعثٍ للنفوس من جديد. خصوصاً وأنّ كلّ نظام روحيّ جديد ينْسَخ النّظام السابق له، ويقيم على أنقاضه نظاماً جديداً وعالماً جديداً أيضاً. فاصطلاح كلمة (قيامة) تناسب هذه العمليّة المُعبّرة عن الإماتة والإحياء كُلّ المناسبة.

وإشارةً إلى هذا المُصطلح القرآني، ورد قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا، ويسخرون من الذين آمنوا، والذّين اتّقوا فوقهم يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب.**﴾. فليس المقصود بالحياة الدنيا هي مجرّد هذه الحياة، بل إنّ كلمة (الدُّنيا) قُصد بها حياة التخلّف والانحطاط التي يحياها هؤلاء الذين كفروا بهذا النظام الروحي الجديد والذي يحمل تعاليم تفيد في إصلاح أحوالهم وترقيتهم ودفع التخلّف عنهم. ويصف

حالهم هو أنّهم يسخرون من الذين آمنوا بتعاليم هذا النّظام الروحي الجديد، الذّين نجوا من حياة الانحطاط والتخلّف بهذا الإيمان. ويضيف الله تعالى: (والذّين اتقّوا فوقهم يوم القيامة) أي وقضى الله تعالى بفوز أهل النظام الروحي الجديد الذّين اتّقوا أسباب تخلفهم وانحطاطهم من جراء أخذهم بتعاليمه. وتفاجيء تطورات الأحداث الذين كفروا (يوم القيامة) أي زمن قيام قيامتهم وانهزامهم على أيدي المؤمنين. وهذه إشارةٌ كانت هنا إلى ماحلّ بأهل مكّة يوم فتحها على أيدي محمد رسول الله ومن معه من المؤمنين معه، وكيف بات هؤلاء أذلاّء مقهورين. وأضاف تعالى قائلاً: ﴿**والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ أي والله بيده النّصر يرزقه من يشاء بغير حساب، على اعتبار أنّ النّصر والعاقبة من قبيل الرّزق الإلهي ودعماً للمؤمنين بعدما عانَوه من ذلّةٍ وضعفٍ، ولابدّ أن يجزيهم يوم القيامة أيضاً خير ماعملوه.

ومصطلح لفظ (السّاعة) أورده الله تعالى في سورة القمر، حيث قال فيها: ﴿ **اقتربت السّاعة وانشّق القمر، وإن يَرَوا كُلّ آيةٍ يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر.**﴾. وقد أشار بانشقاق القمر هنا إلى دُنُوّ ساعة وأجل الحكم العربي الجاهلّي وساعة زواله. ومن شاء التوسّع في فهم ذلك فليراجع (فن الاختزال ـ سورة القمر).

والنقطة الرابعة من المنهج الذي اختطّه الله الحيّ لإحياء الأمم والشعوب، نبّه إليها في الآية (٢١٦) من سورة البقرة من خلال قوله تعالى: ﴿**كُتِب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم.**﴾ بمعنى أنّ نظامكم الرّوحي الجديد الذي اعتمد السبيل السّلمي ولم يعتمد سبيل العنف والإكراه لنشره وتطبيقه. اعتمد النّهج الذي كرّه القتال إلى نفوسكم. ولايعني هذا بحال من الأحوال أن تستسلموا للذين اعتمدوا عليكم، اعتدوا عليهم بمثل مااعتدوا عليكم، حفظاً لكيانكم، هذا بالرغم من ايثاركم سبيل السّلام والحوار والنّقاش، وقد كتب الله تعالى أن تقاتلوا الذين يقاتلونكم، بالرغم من أنّ القتال هو كُرهٌ لكم.

وفي الآية (٢٥٦) من نفس سورة البقرة، قال تعالى: ﴿**لاإكراه في الدّين قد تبيّن الرُّشد من الغيّ..**﴾. ونبّه تعالى بذلك إلى أنّ النظام الروحي الجديد قد اختطّ عدم إكراه الناس على قبوله، بل اعتمد الحوار والحجّة والبُرهان.

فهذا هو السّبيل الذي يتميّز به النّظام الرّاشد، عن سبيل الغيّ. أي عن سبيل الجهل والضلاّل.

وقد وصف الله تعالى من يُخالف هذا النّهج الإسلامي بقوله تعالى في الآية (١٤٦) من سورة الأعراف: ﴿ **وإن يروا سبيل الغيّ يتّخذوه سبيلاً..**﴾ وفي الآية ٢٠٢ منها قال: ﴿**وإخوانهم يُمدّونهم في الغيّ ثم لايُقصّرون.**﴾.

وقد وضح سبحانه وتعالى الغاية من الحرب والقتال هذه التي يدفع المؤمنين إلى خوضها في الآية (١٩٠) من سورة البقرة: ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا..**﴾. وفي الآية (٣٩) من سورة الحجّ قال: ﴿ **أُذن للّذين يُقاتلون بأنّهم ظُلموا وأنّ الله على نصرهم لقدير.**﴾. وفي الآية الثامنة من سورة المُمتحنة : ﴿**لاينهاكم الله عن الذّين لم يقاتلوكم في الدّين، ولم يخرجوكم من دياركم، أن تبرّوهم وتُقسطوا إليهم..**﴾.

وتتعلّق النّقطة الخامسة والأخيرة للنهج الإلهي بالمبعوثين من الناس المُكلّفين، بحمل رساله هذا النّهج الإلهي، ولإخراجها إلى حيّز الواقع والتّنفيذ، وقد تضمنت هذه النّقطة الخامسة الآية التي سبق أن أوردناها، وهي قوله تعالى: ﴿**ومانُرسل المرسلين إلاّ مُبشّرين ومُنذرين.. الخ**﴾.

والسؤال المطروح هنا: كيف تتمّ عمليّة اصطفاء المُرسلين؟ وقد أجاب تعالى عن هذا السؤال من خلال قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة..**﴾. وقد أشار الله الحيّ في هذه الآية الكريمة إلى احتياج العقل البشريّ إلى معونة الوحي السماوي، ليستمدّ العقل عن طريقه سبيل الهُدى والرشاد، ليساعد ذلك على نقل وتطوير البشر إلى حياةٍ أفضل. فهذا الأمر استدعى منه تعالى أن يصطفي خليفةً له من هؤلاء الناس ليخلفه في عمليّة إصلاحهم وتبين نهج الهُدى والرّشاد.

وقد قصد من لفظ (خليفة) عدّة أمور منها :

أولاً ـ أنّ الذي هو مؤهّل لمنصب خلافة الله في الأرض، لابدّ له أن يكون من صفوة النّاس. وهذا هو سرّ خطابه جلّ شأنه لرسوله محمد (ﷺ) : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى.**﴾. والمقصود هُنا يتيم دهره، وليس يتيم الوالدين، وإنّ إيواءه، هو القيام بإسناد أرفع منصب يستحقّه وهو منصب حمل رسالة السّماء.

ثانياً ـ والله وهو عالم الغيب والشّهادة، فقد كان في سابق علمه من ستُسْنَدُ إليه الرّسالة، لذلك رعاه منذ نعومة أظفاره بفضله وكرمه إلى أن بلغ به المستوى اللاّئق لحمل هذه الرّسالة. وإلى هذه الحقيقة أشار الله عزوجل من خلال خطابه إلى موسى عليه السلام بقوله: ﴿**ثم جئت على قَدَرٍ ياموسى. واصطفيتك لنفسي إذهب أنت وأخوك بآياتي، ولاتَنيافي ذكري. اذهبا إلى فرعون إنّه طغى.**﴾. أي أنّ موسى كان مشمولاً برعاية الله وفضله الخاص قبل إسناد الرّسالة إليه. وإشارةً إلى هذا المعنى نفسه ورد لفظ (سوّيته) عن آدم في سورة الحجر. على شاكلة الأرض الزراعية التي تُسوّى قبل أن تُغرس وتُستثمر.

ثالثاً ـ وبعد عمليّة التّسوية، تأتي عمليّة النفخ في الرّوح ﴿**ونفخت فيه من روحي.**﴾. وهي مرحلةٌ تعليميّة لمبادىء الرسالة وتعاليمها التي يُكلّف بها هذا المبعوث السّماوي. وهي مبادىء وتعاليم تأتي نابعةً من احتياجات المرحلة التي يمرّ بها البشر أو قوم من الأقوام في فترة زمنية من الزمان. وإليه أشار قوله تعالى: ﴿ **ولايحيطون بشيء من علمه إلا بماشاء..**﴾. لذلك تختلف درجة وأُطُر النّفخ في الرّوح من مُرسل إلى آخر تبعاً لمقتضيات الزّمان والمكان. فآدم على سبيل المثال لم يتلّق إلا مبادىء أولية لحياةٍ تعاونية. على حين أنّ ماتلقّاه محمد (ﷺ) من مبادىء وتعاليم نزل يصلح لكل زمان ومكان.

ويُلخّص دليل اسم الله (الحيّ) في أنّ الإنسان إذا نظر بمنظار الأنظمة الروحيّة ومنهجها الموحّد وقانونها العام. تلك الأنظمة التي تؤلّف حلقات سلسلةٍ واحدة، وصادرة عن مصدرٍ واحد هو الله "الحيّ"، وذلك على حسب ماأفاد به جميع من بُعثوا بهذه الرّسالاّت الرّوحية التي ساعدت على تطوير البشر من زمن سُكنى الكهوف وبطون جذوع الأشجار، إلى زمن سُكناه في السّهول وإقامته وجعله متحضّراً وتعرُّفه خالقه وسبيل التقرّب إليه.

أقول: إنّ هذا الإنسان المتأمّل معالم حلقات هذه السلسلة من الرسالات التي تمتّد في الماضي الغابر السّحيق إلى قُرابة عشرة آلاف عام. لايَسعه وهو يبحث عن الحقيقة إلاّ أن يُقرّ بوجود الإله (الحيّ الذي لايموت)، هذا الإله الذي يهب البشر الحياة من جديد، كُلّما تقدّم بهم الزمان، وتدنّت أخلاقهم وتفسّخت، وانحطّت معايير سلوكهم.

فإذا نظر الإنسان المحقّق من نفس هذا المنظار إلى كل إسمٍ من أسماء الله الحُسنى، وتتبّعه وفق النّقاط الخمس التي احتواها منهاج إحياء الله تعالى للشعوب المُتخلّفة وقانونه العام، فلابُدّ أن تتوفّر لديه أدلّةٌ كثيرة يثبت منها وجود الله عزوجل، بقدر عدد أسمائه الحسنى التي أوردها القرآن الكريم بين ثنايا آياته المُقدّسة.

٢ ـ دليل الله العزيز

دونكم صفة الله العزيز مثالاً آخر للاستدلال الحّسي على وجود الله عزوجلّ الذي يملك هذا الكون ويدبّره بمحض إرادته ومشيئته. على اعتبار أنّ صفة العزيز تعني لغةً : الملك الغالب على أهل مملكته، والقويّ الذي ليس فوقه قويّ، والعزيز الذي ذلّ لعزّته كلّ عزيز.

فلنتدبّر كتاب الله العزيز، ونُتابع منهج عمل وتجلّي صفة العزيز من خلال آي الذكر الحكيم. يتراءى لنا أنّ الله العزيز لايُعامل عباده على أنّه مالكهم والمتصّرف بهم، على شاكلة مايفعله ملوك الأرض. فهو لايتجلّى بصفته العزيز إلا مقرونة بصفة سامية أخرى معها، ووفق منهج وقانون.

فتارةً يتجلّى على أنه "العزيز الحكيم"، وهي الحالة الغالبة على تجليّاته. وتارةً أنّه "العزيز الرحيم" أو "العزيز الغفور" أو "العزيز الحميد" أو "عزيز ذو انتقام" بمعنى الملك الذي يُنزل بالمجرمين عقابه الشديد.

ونعود معاً إلى معاجم اللّغويين، نستطلع معاني "العزيز والحكيم والحميد والغفور وذو انتقام". قال صاحب المقاييس: العزيز من عزّ أي ندر وُجوده وغلب وقَهر. وهي صفة تدلّ على الشّدة والقوّة والنّدرة. فالعزيز هو الذي لاتكاد توجد قُوّة تقدر على مغالبته. تقول : عزّه على أمرٍ إذا غلبه على أمره والمعازّة هي المغالبة. تقول عازّني فعززته، أي غالبني فغلبته، وقال تعالى (فعززنا بثالث) أي دعّمنا وقوّينا الأمر بثالث.

وقال صاحب محيط المحيط، العزّة مصدر تعني الغلبة والمناعة. فالعزيز هو المنيع الذي لايُنال ولايُغالب ولايُعجزه شيء ولامثيل له. وهو الشريف والقويّ والقليل النادر والمُكرّم والملك لغلبته على أهل مملكته. والعزيز اسم من أسماء الله الحسنى.

أي أنّ للعزيز خمسة معان رئيسيّة، هي : الأول: معنى النّادر الذي لايكاد يوجد له مثيل. الثاني : المنيعُ الذي لاينال ولايُغالب ولايُعجزه شيء، فهو المقتدر. الثّالث : الملك الغالب على أهل مملكته، فهو القويّ الذي ليس فوقه قويّ. الرّابع : الشريف المُعزّز المُكرّم الكريم الوهاب.

والمعنى الخامس : أو العزيز إلى ذلك كله اسم من أسماء الله الحسنى.

ولّما كانت صفة العزيز لاتتجلّى بمفردها لِرهبة ماتؤدّي إليه. وكانت تتجلّى مقترنةً بإحدى الصّفات التالية: الحكيم أو الرحيم أو الحميد أو الغفور أو ذو انتقام. فلنراجع معاني هذه الصفات في معاجم اللغويين :

الحكيم من الحكمة، وهي صفة تمنع من الجهل، وتعني العدل والعلم والحلم والكلام الموافق للحقّ. فالحكيم هو العالم صاحب الحكمة والمُتقن للأمور. ولايُسمّى حكيماً إلاّ من جَمَعَ بين العلم والعمل. ويُجمع هذا اللفظ على حُكماء والحكيم هو صاحب الحُجّة القطعيّة، بمعنى البرهان.

والحميد من كان كامل المحامد : يُنزل كامل المبادىء والتّعاليم، ويصبغ بصبغته، وينصر بتأييده، فلاأحد سواه يستحّق هذا الحمد، فهو الرّب العزيز الحميد. وهو إلى ذلك اسمٌ من أسماء الله الحسنى.

والرّحيم من رَحِمَه أي رقّ له وتعطّف. والرّحمة هي إرادة إيصال الخير ودفع الشرّ. وقيل هي من صفات الفعل أي إيصال الخير ودفع الشرّ. وذكر الإمام الرّازي أنّ الله رحمن، على اعتبار أنّ الجود هو إفادةُ ماينبغي ولالغرض. وإنّ كل ماعدا الله يُعطي ليأخذ عوضاً. والرحيم اسم من أسماء الله الحسنى أيضاً.

وهو ذو انتقام من نقم. نقول نقم منه، وانتقم أي عاقبه. وفي سورة الأعراف : (وماتنقُم منّا إلا..) أي ماتطعن فينا وتقدح، والنِقّمة اسم من الانتقام، وهي تضمّ إلى الكراهة السُّخط، فهي المكافأة بالعقوبة. ومعنى "ذو انتقام" صاحب الأمر الذي يملك حق إنزال العقاب، وهو الله عزوجلّ.

وانطلاقاً من المنهج والقانون الذي بيّناه، والذي تتجلّى صفة الله العزيز، من خلاله صفةً مُقترنةً بصفات الحكيم والرحيم والحميد والغفور وذو انتقام، نحاول على ضوء ذلك تحسّس تجليّات الله العزيز وعلى ضوء تاريخ مُجريات أحداث البشر في منطقتنا بالذّات.

وثمة سؤال يطرح نفسه هنا، وهو كيف يتجلّى الله تعالى بصفاتٍ تبدو في ظاهرها مُتضادّة : ففي الوقت الذي يكون الله رحيماً وغفوراً، يكون ذا انتقام أو شديد العقاب. كما يكون خلاّقاً ومُميتاً. فما تأويل هذا التضّاد الظاهريّ؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول : إنّ من لم يُحط علماً بمنهج وقانون تجلّي كلّ صفة من صفات الله تعالى، يستحيل عليه تأويل مثل هذا التضادّ الظاهري. ذلك أنّ لتجلّي كلّ صفة إلهية منهاجَ عملٍ وقانوناً. وهذا الأمر إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على عظمة الله وماتتّصف به ذاته من صفاتٍ وأسماء، تعمل بما يُذهل العقاب الشديد.

من هذا ندرك السرّ الكامن وراء ظهور أمرين متضادّين ظاهراً. ففي حين نلاحظ عفو الله عن مُذنب، فإذا به يُنزل بمذنبٍ آخر شديد العقاب.

ثم إنّ القرآن الكريم أنبأنا عن قانونين رئيسيّين يُهيمنان على عمل كلّ صفة وكل اسم من أسمائه تعالى. أما القانون الأوّل فقد تضّمنه قول الله تعالى في سورة الأعراف (١٥٦):﴿..**ورحمتي وسعت كُلّ شيء**..﴾. فهذا قانون عام رئيسّي. ففي كلّ تجلٍ لأيّة صفةٍ إلهية، لابدّ أن تغلب عليها سمة الرحمة وتجلياتها، لذلك لاحظنا أنه يقول تعالى في مقام آخر من كتابه العزيز : ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أنْ تحبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون.**﴾ البقرة ٢١٦-.

والقانون الثّاني الرئيسيّ الذي يُهيمن على عمل وتجلّي كل صفة من صفاته تعالى، قد تضمّنه قول الله عزوجل على لسان نوح عليه السّلام: ﴿**مالكم لاترجُون لله وقاراً. وقد خلقكم أطواراً**﴾. نوح ١٤ - أي مالكم لاتلاحظون الوقار والرّزانة عند الله، وهما يَدُلاّن على الحكمة الغالبة على عمل كلّ صفةٍ أخرى من صفاته تعالى، فهو الحكيم في تصرُّفاته، ومنها خلقكم أطواراً، فطوراً نُطفة، وطوراً علقةً إلى تمام خلق الإنسان، فمن واجبكم أن توقّروه، وهو الله الذي تغلب حكمته على جميع تجليات أسمائه الحسنى.

والخلاصة أن كلّ صفة إلهيّة تعمل وفق منهاج وقانون. وتتجلّى على كلّ صفة إلهية صفتان رئيسيّتان هما صفتا : الرحيم والحكيم.

وبعد أن أجبنا عن السؤال المذكور، ودفعنا التناقض الظاهريّ المُشار إليه، لنتبصّر في تجلّي صفته تعالى العزيز، وعلى ضوء ماأفادنا به القرآن الكريم.

وأوّل ماأتناوله بالبيان، هو عمل صفته العزيز، وهي مقترنة بصفته الحكيم. أي تلازُم العزيز الحكيم في عمل وتجليّات أسماء الله الحسنى، وصفة العزيز منها خاصّة.

تعالوا إلى سورة البقرة (١٢٩-١٣١)، حيث تحدّثت الآيات عن قصّة ابراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿**وإذ يرفعُ إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم، ربّنا واجعلنا مُسلمين لك ومن ذريّتنا أُمّةً مسلمةً لك، وأرِنا مناسِكنا وتُبْ علينا إنّك أنت التوّاب الرّحيم. ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم، ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ من سَفِهَ نفسَه، ولقد اصطفيناه في الدّنيا، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربُّه أسلِمْ، قال أسلمت لربّ العالمين.**﴾.

ولاشك أنّ قصّة إبراهيم هذه حادثة حقّاً، وقد ورد ذكرها جليّاً في التوراة التي تحكي لنا تاريخ بني إسرائيل الذي ينتهي عند ابراهيم عليه السّلام.

أضف إلى ذلك أنّ الدّعاء الإبراهيميّ، قد أشارت إليه نبوءة سفر التثنيّة ١٨/١٨، الذي سبق أنْ عرضنا لسردها وتبيانها أيضاً. ولقد تحقّق هذا الدّعاء الإبراهيمي، ببعثة سيّد المُرسلين ومعه القرآن الكريم.

والقرآن يصف لنا حالة الحيرة التي تملّكت صدر إبراهيم عليه السلام، وهو قد علم باستجابة الله لدُعائه، ورد ذلك في نفس سورة البقرة (٢٦٠) : ﴿**وإذ قال ابراهيم لربّ أرني كيف تُحيي الموتى، قال أَوَلَم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فَخُذ أربعةً من الطّير، فصُرهُنّ إليك، ثم اجعل على كلّ جبلٍ منهنّ جُزءاً، ثم ادعُهنّ، يأتينك سعياً، واعلم أنّ الله عزيزٌ حكيم.**﴾. أي أنّ نفس ابراهيم تاقت إلى معرفة الطّريق والأسلوب الذي سيتحقّق به دُعاؤه الذي تقبّله ربّه بالاستجابة، فطلب منه أن يفعل مايفعله مربّو الحَمام، فيربّي أربعة منها ثم يجعل على كلّ جبلٍ واحدةً منها، ثم يدعوهن، فإذا بهنّ يُلّبين نداءه ويأتينه سعياً، وهنا نبّه الله ابراهيم إلى أنه تعالى سيستجيب دعاءه، على هذه الشاكلة من مُنطلق كون الله عزيزاً حكيماً. وهذه إشارة إلى

بعثة عددٍ من أنبياء الله الذين سيتحقّق على أيديهم تربية المؤمنين بما يحملونه من تعاليم وذلك استجابة للدُّعاء الإبراهيمي، وهذا قد تحقق فعلياً وعملياً. وإنّ وسيلة التربية الروحية تحقّقت على يديّ محمد رسول الله (ﷺ) بشكلٍ مُدهش، ولولا ذلك لما كانت قد تحقّقت على أيديهم تلك الفتوحات التي لم تكن لتتحقّق لولا هذه التربية وماستقرّ في قلوبهم من يقين وإيمان، فأنّى لأبي بكر مثلاً، وهو ابن أبي كبشة، الرجل التّاجر البسيط، أن يصبح خليفة الله ويقود أمّة ناشئة إلى شاطىء الأمان، لولا أن كان أبو بكر من السّابقين في الإيمان وفي صحبة محمد رسول الله (ﷺ). علماً بأنّ المفسّرين أخطؤوا حين أخذوا لكلمة (فصُرهن إليك) معنى قطّعُهن. فلم ينتبهوا للصلّة التي أتت بعدها وهو حرف (إليك) الذي قلب معنى قطّعهن إلى معنى أَمِلهُنّ إليك.

والمهمّ أنّ ابراهيم عليه السلام قد استغاث في دعائه بصفتي الله العزيز الحكيم. وهاأنه، وبعد مُضيّ ألوف السّنوات على ذاك الدّعاء المقبول، تحقّقت الاستجابة وفق تجلي صفتي "العزيز الحكيم". حيث استُهلّت سورة الجُمعة بقوله تعالى إشارة إلى ذلك : ﴿**هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيّهم ويُعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لّما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.**﴾ أي هانحن أولاء بعزّتنا وحكمتنا قد حققّنا ماوعدنا به إبراهيم، وأثبتنا بذلك أنّ الله موجود وعزيز غالب على أهل مملكته، وقويّ على تحقيق مايشاء بحكمة، فهو صاحب الحكمة المُتقن للأمور.

وهانحن أولاء كذلك قد أثبتنا أنّه كان في سابق علمنا أنّه سيأتي على أمّة محمد (ﷺ) عصرُ تخلُّف وانحطاط تتكالب فيه على المسلمين أمم الأرض، فبعثنا من هذه الأمّة أيضاً، وفي هؤلاء المسلمين الآخرين، ومنهم لّما يلحقوا بالمسلمين الأولّين رجلاً يكون ظلاً لهذا الرسّول العظيم محمد الصادق الأمين، ليصّحح مسار الأمّة، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت ظُلماً وجوراً. لنثبت من خلال بعثتنا إياه تجلّي صفتنا العزيز الحكيم.

وهكذا نكون قد أحطنا علماً بمثال محسوس من واقع البشر في هذه المنطقة من العالم، يثبت من خلاله وجود الله العزيز الحكيم، وذلك من خلال

تقبُّل هذا "العزيز الحكيم" دعاء إبراهيم وإسماعيل اللذين وُجدا في واد غير ذي زرع وقبل ألوف السّنوات. هذا وفي وقت كان تحقّق ذلك في أعين ابراهيم نفسه من باب شبه المستحيلات. فأين هذا الوادي غير ذي الزرع وقبائله المُتجوّلة المُتنقّلة الأميّة، ومابلغوه من السّؤود حين سادوا العالم ببعثة محمد سيّد المرسلين (ﷺ)، وهو سليل نسل ابراهيم عليه السلام أيضاً عن طريق نسل ابنه اسماعيل. وهانحن وقد وُجدنا في عصر تخلّف المسلمين الذي أشارت إليه سورة الجُمعة، وهانحن في ظلّ هذا المبعوث لإحياء الدّين فسُبحان الله الحيّ القيّوم العزيز الحكيم، وهل يستهين بهذا الدّليل المحسوس، الذي يثبت من خلاله وجود الله العزيز الحكيم إلاّ من سِفه نفسه وكان من الجاهلين المكابرين؟

وعليه يكون قد ثبت من خلال تجليّات صفة الله العزيز، والتي تجلّت مُقترنةً بصفة الحكيم أنّ الله تعالى ليس موجوداً وحسب، بل وغالباً على أهل مملكته، فلايوجد قويٌّ يقوى عليه، وأنّه تعالى فعالٌ لما يريد، وأنّه يحقّق مشيئته بحكمةٍ بالغةٍ مُتقنةٍ للأمور مذهلة للعقول.

وأتناول تجلّي اسم الله العزيز، مقترناً بصفته تعالى الرّحيم، وذلك من خلال التّعليم الذي بُعث به محمد رسول الله (ﷺ) نفسه، وهو تعليم القرآن الحكيم. فقد جاء في أوّل سورة (يس) : ﴿**يس. والقرآن الحكيم. إنّك لَمِنَ المرسلين. على صراطٍ مستقيم. تنزيلَ العزيز الرحيم. لتُنذر قوماً ماأُنذر آباؤهم فهم غافلون.**﴾. هذه الآي تعني : أيّها الإنسان السّيد، قد تأتّت سيادتُك على النّاس من خلال ماأنزلناه عليك من آي هذا القرآن الحكيم الذي اشتمل على تعاليم مُتقنةٍ فكراً وعملاً، وصالحةٍ للنّاس كافّة في كلّ زمان ومكان، مقرونةً بالأدلّة السّاطعة والبراهين القاطعة. وقد جعلناك سيّداً، مصداق تقبُّلنا دعاء جدّك ابراهيم. وقد زودّناك بهذا القرآن الحكيم ذي التعاليم المُتّصفة بالكمال وجعلناك على صراط مستقيم، إثباتاً منّا لوجود الله وأنّ هذا القرآن هو ﴿**تنزيل العزيز الرّحيم**﴾، فجئت بذلك رحمةً للعالمين.

وأتناول تجلّي صفة العزيز مقترنةً بصفةٍ أخرى هي صفة "ذو انتقام". ولننتقل إلى سورة آل عمران التي قال تعالى في أوائل آياتها : ﴿.. **وأنزل الفرقان. إنّ الذّين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديد والله عزيز ذو انتقام.**﴾. وقد علمنا أنّ معنى قوله (ذو انتقام) أي صاحب الأمر البالغ في

العقوبة، لمن ناهض وصدّ عن سبيل الله. وقد قال تعالى لقد أنزلنا هذا القرآن ليكون فرقاناً نفرق به الحقّ من الباطل. فمن يتمرّد على عزّتنا، ويتصدّ لقوتنا وهيمنتنا نُنذره بالانتقام، قال تعالى: ﴿**إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديد، والله عزيز ذو انتقام.**﴾. أي لاينبغي لهؤلاء المكذّبين أن يتناسوا أن الله العزيز يتجلّى، فيما يتجلّى به، بصفةٍ مُلازمةٍ هي أنّه "ذو انتقام" في الوقت المُناسب. فليحذر الذين كفروا عذاب الله العزيز ذي الإنتقام. وقد رآى العالم ماحلّ بالذين كذّبوا هذا القرآن المنزل على محمد (ﷺ)، وكيف ذلّوا وآلوا إلى دار البوار.

وأتناول صفة العزيز مقترنةً بصفة العليم. وقد جاء ذلك التجلّي في قوله تعالى من سورة غافر: ﴿**حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافِرِ الذّنب وقابل التّوب شديدِ العقاب ذي الطَوْل، لاإله إلاّ هو إليه المصير**﴾. أي أنّ الله العزيز الذي بعث محمداً استجابةً لدُعاء جدّه ابراهيم، هو العليم غافر الذنب وقابل التّوب شديد العقاب ذو الطَوْل لاإله إلاّ هو إليه المصير. وصفة العليم اشتملت على جميع ماإقتضته هذه الصّفات، لتثبت وجود الله العزيز العليم. وهل يتّصف بهذه الصّفات المذكورة إلاّ من كان عليماً لايَحُدّ من علمه شيء، مُحيطاً بكلّ أمرٍ، يعلم خائنة الأعين وماتُخفي الصّدور.

وأتناول صفة العزيز مقترنةً بصفة الحميد. وإلى ذلك أشار قوله تعالى في سورة ابراهيم التي استهلّها الله تعالى بقوله: ﴿**الر كتابٌ أنزلناه إليك لتُخرج النّاس من الظّلمات إلى النور بإذن ربّهم، إلى صراط العزيز الحميد. اللهِ الذي له مافي السّموات ومافي الأرض، وويلٌ للكافرين من عذابٍ شديد.**﴾. أي أنا الله الذي لايغيب عن ناظره شيء، قد أنزلت عليك هذا الكتاب ليكون سبيلك إلى النّاس ممّا صاروا إليه من الفساد لتخرجه، إلى الصلاح والفلاح، وقد شئت، وأنا العزيز الحميد الغالب على الكون، المحمود بكلّ لسان وعلى كلّ حال، القادر على أن أُخرج الناس من الظّلمات إلى النّور، تصديقاً لدعاء إبراهيم، قد أنزلت أكمل المبادىء والتّعاليم لتحقيق ذلك على أيدي محمد الصادق الأمين، الرّسول الذي سيتحوّل بالنّاس من حالة البؤس التي هم فيها، إلى حالة العزّة والسّيادة والكرامة. يُحوّلهم عن طريق هذه المبادىء والتّعاليم الكاملة، إلى عالم نورانّي علميٍ بعيداً عن سموم الأهواء النفّسيّة والوساوس الشّيطانية. والحقّ هو أنّ العالَم

شاهد ماأحدثته تعاليم القرآن الكريم الذي بُعث به محمد (ﷺ)، وتصديقاً لدُعاء جدّه إبراهيم، ماأحدثته في بيئة العرب الجاهليّين، إضافةً إلى بيئات سواهم من الأمم والشّعوب، من يقظةٍ وترق ونهضةٍ في كل مكان سادت فيه هذه المبادىء والتعاليم، والتي ثبت من خلالٍ ماأحدثته من تغييرٍ وتحوّلٍ، أنّ الله العزيز هو حيٌّ قيّومٌ، وأنّه تجلّى بصفته العزيز الحميد أيضاً.

وأتناول بالذّكر اسم الله العزيز مُقترناً بصفة الغفور. الأمر الذي يتضّح ممّا استهلّ به الله تعالى سورة الملك حيث قال: ﴿**تبارك الذي بيده الملك وهو على كُلّ شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكُم أيّكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سمواتٍ طباقاً، ماترى في خلقِ الرّحمن من تفاوُت، فارجع البصر هل ترى من فُطور.**﴾.

والمعنى أنّ الله العزيز مالك هذا الكون والقادر على تحقيق كل شيءٍ أراده ويريده، إنّما تتجلّى صفته العزيز مُقترنةً بصفته الغفور.

فهاهو ذا قد استجاب دعاء ابراهيم، وأثبت من خلال بعثة محمد أنّه العزيز. ولّما كان الإنسان قد خلق مُبْتلىً بين موتٍ وحياة، فقد كان لزاماً أن تتجلّى صفة الله العزيز مقترنةً بصفته الغفور أيضاً. بمعنى السّتار ضعف عباده. لذلك تجّلى، وهو العزيز الغفور الذي وسعت رحمته كلّ شيء. وقد قال تعالى في مقام آخر من كتابه العزيز : ﴿**ياعبادي الذّين أسرفوا على أنفُسهم لاتقنطوا من رحمةِ الله، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً.**﴾ الزّمر ٥٣ ـ وهكذا تجلّى الله العزيز، وهو يحثّ عباده على أن يكونوا من المستغفرين ومن التوابين لتشملهم تجليّات صفتيّ العزيز الغفور بواسع ظلّهما الوارف الظّليل الذي يخلب ألباب المفكّرين المحّققين.

على هذه الصّورة يكون قد تجلّى لأعيننا أنّ صفة الله العزيز وعملها وتجلّياتها عبر تاريخ البشر، قد بَدَت وفق منهجٍ وقانون، وصفة العزيز هذه دليلٌ من الأدلّة القاطعة على وجود الله العزيز الحكيم الرحيم الحميد الغفور المُنتقم.

وبإمكانكم أن تقيسوا على هذه الصّفة ماذُكر في القرآن الكريم ما لله تعالى من أسماءٍ وصفاتٍ، حيث يؤلّف كل اسمٍ وصفةٍ منها دليلاً قاطعاً يثبت وجود الله عزّوجلّ في نظر كلّ باحثٍ عن الحقيقة، متجرّدٍ عن أهوائه، وغوايته،

وتيهه، وجهالته وعَنعناته وسابق تصّوراته. وهكذا تلاحظون أنّ الأدلّـة المستمدّة من أسماء الله الحسنى تبلغ عدد مايتّصف به الله عزوجلّ من أسمـاء قـد تجلّـت في كوننا الماديّ الذي نتفيّأ ظلاله.

٣ ـ دليل الله المُتكلّم

هنا روايـةٌ أسنَدَتْها كتـب الحديـث، كالـترمذي وابـن حيّـان والبيهقـي أسندتها إلى رسول الله (ﷺ) بطريق أبو هريرة. وقد عدّد صاحبهـا فيهـا تسعاً وتسعين من أسماء الله الحسنى، تناولهـا العلمـاء المُقلّـدون دون أيّ تمحيص. فمـا تساءلوا : كيف يُعقل أن يكون رسول الله (ﷺ) قـد أحصى جميـع أسمـاء الله الحسنى قبل أن يكتمل نزول القرآن الكريم؟

ألا إنّ أسماء الله الحسنى لم تجتمع في كتاب الله تعـالى في مقـامٍ واحـد. بل أتت في طيّات الآيات الكريمة، وذلك وفقاً لما كانت تقتضيه مضامينهـا. وقـد تبيّن لنا، بنتيجة تدبّرنا كتاب الله تعالى أنّ الرّواية المذكورة أغفلت عدّة أسماء من أسمائه تعالى الواردة فيه، وهـذه الأسمـاء هـي: (ذو العـرش، وذو الوقـار، والمُنعـم، والشّـافي، والكـافي، والمتكلّـم.)، ليصبـح عـدد أسمـاء الله الحسـنى مائـة وخمـس صفات.

والمؤسف أنّ هؤلاء المقلّدين، ونتيجة لأخذهم بالرّواية المذكورة، ذهبـوا إلى القول بانقطاع الوحي السّماوي بعد رسول الله (ﷺ)، علـى حـين أنّ كـلّ اسمٍ من أسمـاء الله تعـالى، لاينقطـع عـن عملـه فهـو مـع ذات الله أزلّـي وأبـديّ ومستمّر التجلّي والعطـاء. فـإن اتّصـف الله عزوجـلّ بصفـة تكليمـه لعبـاده قبـل الإسلام، فكيف تصوّروا أن يصمت الله ولايعود يكلّم عباده بعد الإسلام؟ أفلـم يكلّـم أم موسـى بكـلام غـير تشـريعي، فكيـف لايعـود يكلّـم الصّديقـات مـن المُسلمات بكلام غير تشريعّي بعد بعثة خاتم النبيين(ﷺ)؟ خصوصاً وأنّ القـرآن الكريم لم ينصّ في أيّة آيـةٍ مـن آياتـه الكريمـة علـى أنّ الله لايوحـي ولايكلّـم إلا النبيّين. أفَلم يقرأ هؤلاء المقلّدون قول الله عزوجلّ: ﴿**وماكـان لبشـرٍ أن يكلّمـه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسلُ رسـولاً فيوحـي بإذنـه مايشـاء إنـه عليّ حكيم**﴾ الشورى ٥١ ـ فلم يقل هنا ﴿**وماكان لنبيٍ أن يكلّمه.**﴾ بل عمّـم